مُنِيرُ

الأبيض لا يليق بكم

الرواية الكاملة

رسالة بيضاء إلى معشر الأطباء ورجال القانون

د. طارق البكري

(الطبعة الحادية عشرة)

2019

الإهداء

إلى كل طبيب يليق به الأبيض..
وإلى كل من فقد حبيبه بخطأ طبي.

مُنير

#الأبيض_لا_يليق_بكم

رسالة بيضاء إلى معشر الأطباء ورجال القانون

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

د. طارق البكري

+96597860918

docbakri@yahoo.com

Tarik Bakri

الطبعة الحادية عشرة: 2019 (موسعة).

الرواية خيالية هدفها نشر الوعي بقضايا الأخطاء والتقارير الطبية المغلوطة وأي تشابه بالأسماء والأحداث والأمكنة مصادفة لا تمت للواقع بصلة مع الاحترام والتقدير الكاملين للأطباء ورجال القانون

الترقيم الدولي في مكتبة الكويت الوطنية للطبعة الأولى 2016:
ISBN: 978-99966-1-122-3

دُعَاء

اللهم أنزله منازل الشهداء، واجعل عيشه في قبره عيش السعداء، واجعله في الجنة مرافقاً للأنبياء.. وأنزل عليه الضياء والنور، والفسحة والسرور.. اللهم ارفع ذكره، وضع وزره، واغفر ذنبه، وأسكنه الدرجات العلى من الجنة.. اللهم أكرمه ولا تهنه، وأعطه ولا تحرمه، وثبته في قبره بالقبول الثابت كما ثبت أنبياءك وأولياءك وعبادك الصالحين..

يا رب

رِسَالَة

لأبنائنا من مقدمي الرعاية الصحية مستقبلاً من طلبة كليات العلوم الطبية والتمريض:

#الأبيض__سيليق__بكم

بقلم: د. منال منصور بوحيمد
أستاذة الأخلاقيات الطبية
واستشاري طب وجراحة العيون
كلية الطب - جامعة الكويت

تقدم لكم تجربة الفتى النبيل منير وتجربة محبيه فرصة نادرة للتأمل والتفكر الأخلاقي والمهني، فيما كان وما يجب أن يكون.. تقدم لكم - على الرغم من الألم والحسرة - الأمل في أن تتعلموا منها وتجتهدوا وتعملوا وتبدعوا حتى يليق الأبيض بكم.

■ أنتم الآن على مقاعد الدراسة.. تعلموا من الأخطاء، فليس المهم أسماء وصفات وأدوار من أخطأ، فكل بني آدم خطاء.. والمساءلة الفردية مطلوبة لمن جاء خطأه نتيجة إهمال أو تقصير أو تهور؛ لكنها لن تمنع الخطأ من التكرار. وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الطريقة المثلى للتعامل مع الخطأ الطبي هي: الدراسة المستفيضة لأسباب هذا الخطأ، وتغيير النظام الطبي والسياسات المعمول بها، والاستثمار في التعليم والتدريب، والمتابعة والتقييم بحيث لا يتكرر مثل هذا الخطأ مستقبلاً.

■ أنتم الآن على مقاعد الدراسة.. تساءلوا دوماً عن فعالية الرعاية الطبية في أماكن تدريبكم، وهل تحقق الهدف المرجو منها؟ هل يتم تطبيق البروتوكولات المعتمدة والتدخلات المبنية على البراهين؟ تساءلوا عن كفاءة تقديم الخدمات الطبية، وعن المقدرة التقنية، وعن تقديم الخدمات المناسبة في الوقت المناسب، وعن سياسات سلامة المرضى.

■ أنتم الآن على مقاعد الدراسة.. احرصوا على وجود الثقة والاحترام والتواضع واللباقة والتجاوب والتفهم والإصغاء لمرضاكم، والمحافظة على أسرارهم.

■ يقول الشافعي: "لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب".. تعلموا هذا العلم النبيل رفيع المنزلة.. تعلموا كل يوم كيف تكونون من وسائل رحمة الله.. اجتهدوا لتسخير العلم لنفع الإنسان لا لأذاه.. أحسنوا وارحموا.. فرسول الرحمة يقول: "الراحِمون يرْحمُهم الرحمن".

تقديم

الطب مهنة إنسانية.. ولكن!!

المحامية أ. ليلى الراشد

الطب مهنة إنسانية، وجدت لِمساعَدة البَشر والأخذِ بيدهم ليعيشوا بلا آلام ولا أنات.. لكن أن تتحول إلى مصدر للأحزان والدموع.. وأن تفقدنا أغلى الناس عندنا، وتحرمنا منهم إلى الأبد، نتيجة إهمال أو خطأ طبي؛ فهنا تنحرف المهنة عن أهدافها السَّامية.

ويعتصرنا الألم لما وصل إليه الحال في مهنة الطب بسبب أخطاء بعض الأطباء وجشعهم، ليس في مكان محدد، بل في جميع دول العالم، وتحولها من مهنة إنسانية إلى تجارة، من يدفع يستحق العناية الكاملة والرعاية الطبية الجدية، ومن لا يملك المال فعليه أن يفكر ألف مرة قبل أن يمرض..

وهذه الروايَة وإن كانت من نَسج خيال الكاتب، فهي تحاكي الواقع المرير الذي نعيشه.. راجية من الله تعالى أن تكون سبباً لإعادة الطب إلى مساره الصحيح، لكي لا تحرم أباً ولا أماً من ولدهما، ولا أخاً من أخيه، ولا ابناً من أمه وأبيه..

وهي لا تقصد كل الأطباء لأن معظمهم من الشرفاء المخلصين ومن خيرة الناس، بل هي تتحدث عن فئة قليلة دخيلة على الطب، والإخوة الأطباء ينكرونهم قبل غيرهم.. فلكل طبيب مخلص فائق التقدير والاحترام.. أما بالنسبة للأطباء من فئة غير المخلصين فإننا نضم صوتنا إلى صوت المؤلف المبدع الدكتور طارق البكري ونقول:

#الأبيض_لا_يليق_بكم

ابنة بائع الملابس المستعملة

هي
تعلم أنَّ للطب
فوائد لا تعد ولا تحصى
وأنه مهنة إنسانية
عظيمة

قدَّرت
النعماء بعد
الضَّراء فما أنْ أصابتها
حتى أسعدتها وأسعدت
من حولها

كل
صاحب مهنة
يمكنه الحفاظ
على إنسانيته
أو خسرانها

لم
تكن تريد
دخول كلية الطب
فهي تدرك الأخطار
والمسؤوليات

هي ابنة بائع جوال، يتاجر بالملابس القديمة المستعملة.. لكنه يحرص على أن تكون كالجديدة، لا رثة ولا بالية، كأنها لم تستعمل من قبل.. ينتقي لنفسه ما يناسبه منها، يفضلها على الأثواب البراقة القشيبة، رغم أنه بات قادراً على اقتنائها من المتاجر الكبرى.. ذاق مر الحاجة بنفس عزيزة.. ثم تحسن حاله.. لم يكن يتبجح بما يبديه أو يخفيه، وبما يقدم أو يرجئ، يسعى وراء أسباب العيش دون توحش، يرضى بالرزق مهما كان قليلاً، ما دام بعرق جبينه، لا يستدر عطف القلوب الطيبة الرحيمة لكي تشمله بجودها وكرمها، لا يتودد إليها ولا يتذلل.

لم يقصد تجارة الملابس المستعملة ليصنع منها ثروة صغيرة أو كبيرة.. راودته الفكرة في بدايتها لمساعدة الفقراء أمثاله فضلاً عن نفسه.. كان يقصد حارات الأثرياء، ينقب في حاويات نفاياتهم بحثاً عن ثياب استغنوا عنها رغم أنها بحال جيدة، فهم قد يبدلون ثيابهم بأوقات متدانية كيلا يراهم الناس بثيابهم نفسها مرات متكررة، وربما بعضهم يرتدي الثوب مرة واحدة ثم يتخلص منه..

كان في البداية يلملم ما يعثر عليه من ملابس ملقاة في الحاويات، فيغسلها بعد أن يكحت عنها ما علق فيها من أوساخ حتى تصبح نظيفة تماماً، ثم يقوم بكيها لتبدو ملساء دون ثنيات وبهيئة جديدة، يعطرها ويزكيها، ثم يحفظها بأكياس شفافة حتى تظهر – تماماً – كأنها خرجت للتو من مصنعها، على يد خياط حاذق..

ما كان غاشاً لزبائنه أو كاذباً عليهم، ينبئهم قبل أن يسألوه بأنها ثياب مستعملة، يعرضها عليها بأثمان زهيدة ولا يرفع عليهم الأسعار ليزداد ربحاً، وربما يهدي بعضاً منها لمن لا يملك من المال إلا قليلاً ولا يساومهم.. يفرح قلوب الفقراء المعوزين في أعيادهم ومناسباتهم السعيدة، ويردد دائماً:

"أوليس من حق الفقراء أن يفرحوا كما يفرح غيرهم؟"..

وكان ذلك الفرح يمتد بطبيعة الحال ليشمل أفئدة جميع أفراد أسرته الصغيرة..

عاشت ليلى مسرورة بالعسر قبل اليسر، في كنف هذا الرجل الصبور الجسور، لم تكن لديها مطالب كثيرة ترهق كاهل والديها، ذاقت طعم الفقر واستيقنت مرَّه، قدَّرت النعماء بعد الضَّراء، فما أنْ أصابتها حتى أسعدتها وأسعدت من حولها.. هي الدنيا لا تثبت على حال.. إن سرت أحداً يوماً فإنها لا تلبث حتى تكدره..

امتلأ قلبها في أيام دراستها الجامعية الأولى بالحزن والكآبة، حاولت إخفاء حزنها وكآبتها حتى لا يلحظ همها أحد ممن يحيطون بها، سواء من عائلتها أو من صديقاتها.. وبخاصة زميلاتها في كليتها الجديدة.

لم تكن تريد دخول كلية الطب، هي تعلم أنَّ للطب فوائد لا تعد ولا تحصى، وأنه مهنة إنسانية عظيمة كما يقول كثير من الناس، لكنها تدرك في المقابل ما يحيق بالطب من أخطار ومسؤوليات جسام، ومن أخطاء عظام قد تكون مميتة، فخطأ الطبيب، وهو في الغالب الأعم غير مقصود، قد يغرم المريض الغالي والنفيس، وربما كان الثمن حياته، لكنها تعلم أيضاً أن مقابل كل خطأ طبي هناك ملايين من المرضى خفف الطب عنهم آلامهم، واستعادوا عافيتهم بفضل الأطباء الذين يبذلون جهدهم الكامل.

هي تدرك أنَّ الخطأ لا يمكن أن يكون مقصوداً من طبيب، لكنَّه عندما يقع لا يجوز أن نسميه بغير اسمه، كما أن الطبيب عندما يقع في خطأ قد يتهرَّب من مسؤولياته، ويقوم بالبحث عن تبريرات كثيرة لكيلا يؤدي الخطأ إلى ضرر يؤثر أو يضر بحياته المهنية، وبخاصة عندما يكون الخطأ ناتجاً عن إهمال حقيقي، أو عن سوء تقدير، لأنَّه في النهاية لم يَمنحه ما يلزمه من وقت وافٍ وتحقيق ودراسة لحالة المريض الذي يعالجه، أو ربما لعدم التركيز والاهتمام اللازمين.

وكم سمع الناس وقرأوا فيما مضى من زمان عن أمور لا تحب ليلى أن تذكرها ولا أن تتذكرها.. وكم تعجبوا من تحوُّل الطب في بعض الأحيان من واجب إنساني يقوم به نخبة القوم، إلى مجرد وجاهة اجتماعية يسعى إليها الساعون من الأهل أو الأبناء أنفسهم، بحثاً عن مهنة تدر عليهم المال الوفير، وتجعل الناس بحاجة ماسَّة إليهم، إرضاء لرغباتهم، وتشريفاً لمكانة يبحثون عنها، كأنها علاج شاف لعقدة نقص في نفوسهم.

"ليس كل الأطباء كما تعتقدين يا ليلى.. بل أكثرهم على نقيض مما تظنين.. وهذا النموذج السيء من القلة، وكل مجال فيه نماذج سيئة.. لكنهم بفضل الله نادرون جداً، وبالعموم؛ ليس من بينهم من يضمر الشر للمرضى.. وهناك من يعالج الفقراء منهم من دون أي مقابل، بالسر ولا يفاخر بالعلن.. والواقع يشهد".

"هل نسيتِ يا أمي؟؟!! لم نكن نستطيع الذهاب إلى عيادات الأطباء الكبار لأن

تعرفة الفحص عالية، وليس بوسع الفقراء مثلنا سدادها.. وكنا غالباً لا نشتري الدواء الجيد ونكتفي بالعلاجات الشعبية الرخيصة.. ولطالما رأيتك تحبسين نفسك في غرفتك عندما تشعرين بالمرض، تقفلين الباب وتبقين وحدك، تتألمين بصمت بعيداً عن عيوننا، تتحاملين على الألم، لتوفير أجرة طبيب وثمن دواء".

"هذا ليس عيباً في الطبيب يا ابنتي الجميلة.. فهو مثل غيره من أصحاب المهن، تعب وكد في الدراسة والتحصيل، حتى وصل إلى ما هو عليه اليوم من خبرة ومكانة علمية، من حقه الأجر لقاء جهده وعمله.. والأجر ليس مقياساً لإنسانيته، فكل شخص يمكنه أن يحافظ على إنسانيته أو يخسرها، في أي مهنة من المهن.. وكما أنَّ الأجر المادي حق له، فإنَّ هذا الأجر سيكون من حقك أيضاً عندما تصبحين طبيبة ماهرة ومخلصة في عملك، ولا ينقص هذا من شرف الطبيب شيئاً، وبخاصة المحب لمهنته، والمراعي لحال الفقراء، وكثير منهم يتنازل عن بعض أجرته، أو عن أجرته كاملة، في الحالات الحرجة.. الأطباء الأنقياء يفعلون ذلك يا ابنتي برحابة صدر.. ونحن نتمنى أن تكوني منهم"..

كانت الأم تحاور ابنتها من حين لآخر بشأن هذا الموضوع، لكن في الفترة الأخيرة التي سبقت دخول ليلى الجامعة كانت حواراتهما كثيرة ومستمرة، لا تكاد تنتهي حتى تعود من جديد أكثر كثافة ونشاطاً وحيوية.. الأم تفكر في جانب، والبنت في جانب آخر.. لا تقتنع ليلى بسهولة.. غير أنها استسلمت أمام رغبة أمها ولم تعد تحاور ولا تناور.. حتى وقع ما لم يكن بالحسبان..

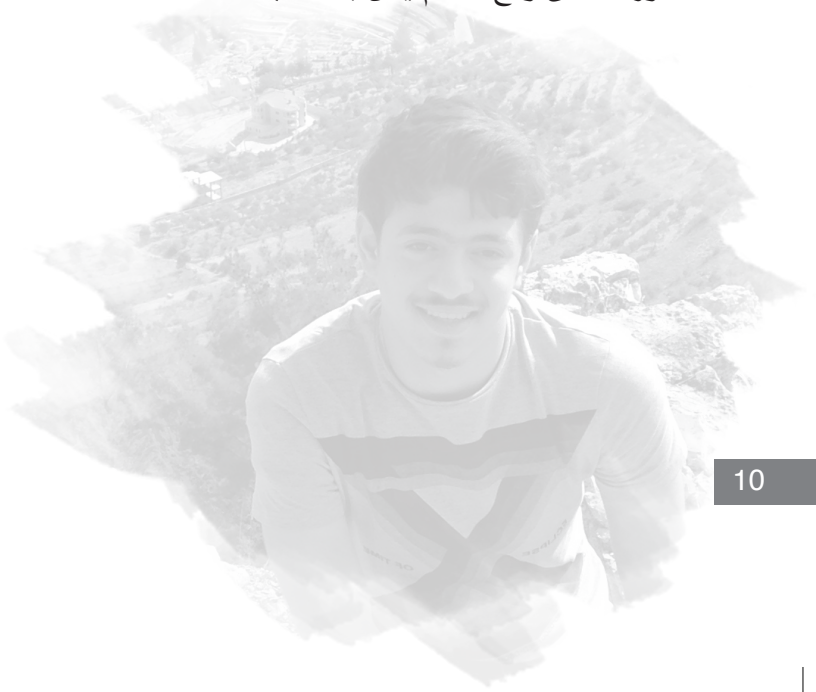

الطبيب الشهم

يغادر
الأحبة أماكنهم
فيأتي غيرهم ليستولي
عليها ثم يخف وهج
ماضيهم وتتناثر
الذكريات

الطب
ليس مهنة..
أول جملة يجب أن
تحفظ في كتاب
الحياة

المساكين
هم وحدهم
فقط فاكهة الحرب
وأشهى وقود لها

لم
تكن ليلى
وحيدة فيما تعزم
عليه.. وكان نصيبها
زميلاً طبيباً مثلها

أبو ليلى مطلع على كل هذه التفاصيل، غير أنه لم يكن يتدخل مباشرة في شؤون ابنته وأمها، فلا يتكلم ولا يعلق على ما يرى ويسمع.. يراقب الأمور من قريب أو بعيد، دون أن يحدث جلبة أو يثير حفيظة أحد.. لكنه يعرف أين يجب أن يتدخل، بل وكيف يتدخل، وفي الوقت المناسب.

يبدو أحياناً لابنته وكأنه لا يحيط علماً بما يجري من حوله بسبب انشغاله الدائم بالعمل، إلى درجة أنها قد تعتقد أنه لا يهتم بتفاصيل حياتها، لكنه على عكس ذلك تماماً، وهو يود من أعماق قلبه أن يرى ابنته مثال الطبيب الناجح الذي يسخر نفسه لمعالجة مرضاه، لا يريد منهم جزاء ولا شكوراً..

كان يرجو أن يكون ابنه البكر منير هو أيضاً ذاك الطبيب الإنسان الذي يتمنى.. لكن إهمال بعض أهل الطب قاد الابن إلى حتفه، ما أشعل في نفسه ناراً متأججة لا يطفئها شلال ماء بارد متدفق.. أما هي فإنَّ الأسابيع الأولى في رحلتها الدراسية الجديدة لم تنسها قصة أخيها ومعاناته التي لا يمكن أن تنسى بسهولة.. كما أنها لا تستطيع أن تنسى مدرستها ومدرساتها وصديقات الطفولة.. وما يزال تعلقها بصديقات طفولتها ويفاعتها راسخاً في نفسها، زميلاتها في المدرسة ما زلن أكثر قرباً إلى قلبها من زميلاتها في الكلية، رغم تفرقهن في جامعات وكليات مختلفة؛ وبقيت صداقاتهن على حالها، وما زالت قلوبهن الصغيرة تنبض بطهارة الحب الذي جمع بينهن منذ أيام البراءة الأولى، وهن كن أكثر الناس تعاطفاً ومساندة لها في شهور المحنة التي تعرض لها أخوها..

الأيام تمضي سريعة بانتظام قدماً نحو الأمام، كأنها تفر من أمامها كما تفر الغزلان عندما تصادف الأسود المتوحشة.. كانت الأيام تسرِّع من خطواتها بلا إبطاء.. دون تريث أو تلكؤ أو انتظار.. لا تعبأ بأحد، ولا يضغط على مضيها دون هوادة أحد.. وهل يستطيع؟؟!! وإن حاول وحاول معه كل من ملك قوة أو مكانة أو شهرة..

قانونها القدري مثل كل شيء ثابت في الكون لا يتغير، لا يمنعها مانع عن السير الحثيث والوثوب بمهارة ورشاقة نحو الهدف.. مهما أوتي من قوة أو علم أو سلطة أو ثروة أو جبروت.. فهي تجعل الجنين رضيعاً.. والرضيع طفلاً.. والطفل الصغير صبياً يافعاً ثم شاباً.. والشباب الأقوياء شيوخاً عاجزين.. وفي النهاية تلقي بالجميع.. بلا استثناء.. تحت التراب.. تبعد الناس عن بعضهم بعضاً، أحياناً.. أو تلقيهم في طرقات

بعضهم بعضاً أحياناً أخرى.. دون موعد ودون حاجة.. يحار كثير منهم مما يحدث، يحاول بعضهم التمسك بذكرياتهم الجميلة وماضيهم السعيد، لكن دولاب العمر يتدحرج على المنحدر الحاد الوعر، ينزلق بلا تمهل، يصطدم بين حين وآخر بصخور صلبة على الطريق، فيقفز عالياً محلقاً ثم يهوي بعنف محدثاً جلبة ترج أعلاه وأسفله، يمضي دون توقف، ومعه تمضي سلسلة الذكريات، يسقط بعضها خلال الطريق، وبعضها الآخر يمل ويرحل.. لكن الأجمل يكمن في الحب الذي يحفر عميقاً، ولا يمحى بسهولة ويسر..

والحب سجية غالية جداً لا تقدر بثمن.. تجمع بين القلوب النقية الصافية وتؤلف بينها، تمهد طرق الخير والتآلف والتراحم بين الناس.. إنه قيمة عظيمة الشأن.. تجعل الإنسان محباً لكل شيء من حوله.. بدءاً من نفسه وأهله ثم دنياه بأسرها.. فتتزين الحياة في عينيه بألوان شتى، كقوس قزح موشَّى بالفرح والسعادة الدائمين.

ومع ذلك؛ فإن ذاكرة الإنسان المتخمة بالأحداث المتتالية المتسارعة والأنهار الهادرة، تتعب مع مضي السنين، ثم تأتي أحداث أخرى جديدة فتطرد أحداثاً أخرى قديمة، كأنها تقول لها: "لا مكان لك عندي الآن.. ارحلي وجدي لنفسك مكاناً آخر"..

وقد يغادر الأحبة أماكنهم، فيأتي غيرهم ليستولي عليها.. ثم يخف وهج ماضيهم.. فتتناثر الذكريات هنا وهناك، تتبعثر، حتى يجد المهرول نحو الأحلام نفسه يتيماً، تتلاشى كلما اقترب وهو يسعى، يبتعد الناس فيظل يركض وحده.. وحده... ظاناً أنه جماعة بنفسه.

لا تريد ليلى أن يكتشف أحد منهم سر حزنها الكبير الذي تخفيه في نفسها، غير أن بعض الأسرار الكبيرة لا يمكن عادة إخفاؤها بسهولة عن الجميع كل الوقت، وإن خفيت عن البعض معظم الوقت، فهناك دائماً من يحاول الترصد والتربص بالآخرين، والبحث في مقتنياتهم الخاصة الخفية، ومهما كان الأمر بسيطاً فإن العيون المتربصة لا تترك المهمومين حتى تفقأ، وغاية الأمل أن تبقى الأسرار مستورة لا ينتهك سترها أحد..

لم تعد ليلى تنعم بلذة النوم منذ موت أخيها.. فهي قلقة على الدوام تفكر بما أصابها وجرح إحساسها.. ما رسم هالة سوداء كللت عينيها، ونسجت حولهما دائرتين من الحزن لا تنكفئان، ولا بد لهما من أن يكشفا سرها المدفون في قلبها الصغير.

العيون البريئة تتحدث عما في القلوب دون أن تتكلم الأفواه.. فهي ناطق صريح حر، يعبر عن الحق بلا لسان.. وهو مرآة تعكس ما تضمر أعماق الصدور حزناً كان

أم فرحاً.. لها بصمة تعرفها الأجهزة والتقنيات الحديثة الذكية، لكن هذا الذكاء لم يمنحها يوماً قدرة على قراءة مستوى الإحساس، لتكتشف ما في الدواخل من بكاء صامت هادر، أو فرح مخبوء مستور.. أو ما بين هذا وذاك..

أمسكت جهاز هاتفها الذكي.. وكان مشققاً من بعض جوانبه، ما زال يعمل لكن بجهد، ألقت نظرة سريعة على الرسائل الكثيرة التي هبت عليها دفعة واحدة..

"أصبحت مزعجاً.. لم أعد أطيق الهواتف المتعبة، ولا برامج التواصل المؤرقة"..

الهواتف الذكية في الواقع لا تبني تواصلاً اجتماعياً بقدر ما تشكل من تفريق للجماعة وتشتيت للذهن.. لا تحرص على متابعة الرسائل والأحداث المتتابعة التي تتراءى لها كسلسلة لا تنقطع عبر شاشة هاتفها الذي لا يمل ولا يكل، فلا يتوقف لحظة عن العمل ولا يأخذ إجازة قصيرة ولا طويلة.. لكن سلطة الهاتف الطاغية تبقى دائماً أقوى من إرادتها..

"دعي الهاتف قليلاً يا ابنتي.. دعيه يرتاح، لقد أتعبته أكثر مما أتعبت نفسك..".

لطالما سمعت ليلى مثل هذه الجملة تتردد على لسان أمها – وغير أمها – بين وقت لآخر.. لكنها من كثرة ما سمعتها لم تعد تكترث بها.. كانت تتابع كل شيء بشغف، يغمر قلبها حزن إضافي شديد وهي ترى الدنيا من حولها تحترق.. في كل مكان، حريق ودخان، ونفس تزهق، وأموات تدفن في كل اتجاه.. لا تدري متى تنسدل الستائر ويعلنون انتهاء فصول الحكاية!

"ترى متى يتوقف هذا الجنون ويخمد لهيب النار المشتعلة؟ لعل شلالات الحزن الهادرة تطفئها بعد أن غطت مساحات شاسعة لا يستهان بها من العالم".

غردت بهذه الكلمات تعقيباً على صورة رأتها في (تويتر)، ثم غطت عينيها وأشاحت بوجهها ومسحت كفيها بأطراف ثوبها، كأن الدماء الساخنة السخية لسعت أصابعها بعد أن لطخت شاشة هاتفها الصغير وحجبت الرؤية عما يجري من وراء الشاشة.. ثم أطلقت على صفحتها (هاشتاغ): # دعونا__بسلام.. لكن؛ لم يسمع نداءها أحد، فأزيز الرصاص.. وزغردة الصواريخ.. وعربدة الظلَّام.. قطاع طرق يحولون بينها وبين وصول النداء.

كانت ليلى حزينة.. تحتفظ في ذاكرتها بمجريات الأحداث التي عانى الجميع بسببها.. تفاصيلها ما زالت واضحة، تذكر ملامحها المحفورة في الأعماق.. كما

أن قصصاً مشابهة تترى أمام عينيها، ومنها ما سمعت عنها أو قرأتها ولا يمكن أن تمحوها من مخيلتها...

تقرأ خبراً قصيراً في صحيفة يومية يحمل عنوانه اسم طفلة يافعة عانت كثيراً من أخطاء الأطباء، وبعضها قد يكون نتيجة إهمال، وبعضها الآخر نتيجة أخطاء كما جاء في الخبر.. عادت بها الذاكرة لتلك القصة، فقد عاشتها على أرض الواقع، كانت تراها قصة تروى ومشاهد تجسم؛ مشهداً مشهداً.. ولحظة لحظة.. تذكرت أيضاً يوم استضافت جامعتها جراحاً شهيراً يعمل في إحدى المستشفيات الكبرى، روى الجراح للطلاب في محاضرة حضرها معظم طلبة كلية الطب وأساتذتها قصة أبيه الطبيب الشهم، وكشف لهم سر حرصه على أن يكون طبيباً مثله..

تحدث المحاضر الضيف عن قريته البعيدة النائية.. وأنه نشأ في العاصمة ودرس في أحسن مدارسها، وفي نهاية كل أسبوع كان يتوجه إلى قريتهم برفقة أمه وأبيه، في رحلة طويلة تستغرق عدة ساعات، وبعد وصولهم ينتقل أبوه فوراً إلى عيادته.. يتفقد حالها.. يسأل الخالة (أم قاسم) التي ترعى العيادة والمرضى في غيابه وهي ممرضة علمها أبوه كثيراً مما تعرفه عن تعقيم الأدوات والإبر.. وبعد أن يتأكد من أن الأمور على ما يرام.. يذهب إلى البيت ليرتاح من عناء السفر.. كان يقول لزوجته جملةً يرددها في كل رحلة: "أمامنا يومان مرهقان.. لننم الآن... نستيقظ صباحاً بنشاط وافر..".

كانوا يقضون يومين في القرية ثم يعودون إلى العاصمة بفرح أكبر وسعادة لا توصف.. أهل القرية فقراء وعيادة الطبيب مجانية.. يعاين مريضهم.. يعطيه الدواء.. يجري لهم العمليات الجراحية البسيطة، وكان زملاؤه في المستشفى يظنون أنه يقضي العطلة في قريته للراحة والاستجمام.. لم يكن يخبر أحداً عن أفعاله حتى لا يبدو متفاخراً بها..

أخبرهم المحاضر الضيف أنه في البدء احتج على هذه الحياة القاسية.. وأنه اعترض كثيراً، ولكثرة مناقشته لأبيه قال له كاشفاً له السر: "أهل القرية وقفوا معي عندما مات جدك، كنت أدرس الطب فانقطعت عن الدراسة لعدم توفر المال، لكنهم أصروا على أن استكمل دراستي، أطعموني يوم كنت جائعاً.. وكسوني يوم كنت عرياناً.. ساعدوني بالمال رغم إمكاناتهم الضعيفة.. حرموا أنفسهم لكي أحقق حلم أبي.. فأكون طبيباً.. فكانوا كلهم في مقام أبي".

ويحكي أن الأيام مضت حتى جاء اليوم الذي بكى فيه أهل القرية جميعاً.. جاؤوا كباراً وصغاراً.. لم يتسع بيت العاصمة.. ملأوا السلالم... مدخل العمارة.. الشارع.. تنافس أهل القرية على حمل نعشه.. نقلوه في موكب مهيب إلى مدافن القرية.. وكان يروي قصة أبيه بنبرة حزن مشحونة بالفخر.. فقد صار حديث أهل القرية، أخبروا المعزين والجيران وكل العاملين بالمستشفى إلى أين كان يذهب أبوه في عطلة نهاية الأسبوع.. ترحموا عليه وقالوا: "خسارة لا تعوض..".

ثم ختم الجراح الضيف قصته بالقول: "وهكذا كبرت.. وتزوجت.. وها أنا أذهب في عطلة نهاية كل أسبوع إلى قريتي.. إلى عيادة أبي.. تساعدني زوجتي وأولادي.. وابنة الخالة (أم قاسم).. وأقول بعد تناول طعام عشاء يوم الأربعاء: "أمامنا يومان مرهقان.. لننم الآن.. نستيقظ صباحاً بنشاط وافر".. وكلما رآني أهل القرية قالوا: "رحم الله أباك.. من خلف ما مات"... لقد فخرت بأبي حياً وميتاً.. وأريد أن يفخر بي أولادي كما فخرت بأبي".

ثم قال وهو يغادر المنصة: "الطب ليس مهنة.. هذه أول جملة يجب علينا أن نحفظها في كتاب الحياة، وليس في كتب الطب"..

وهذه الجملة الأخيرة لطالما رددتها ليلى كثيراً منذ تلك المحاضرة القيمة.. وحتى بعد أن تخرجت في الجامعة بقيت على هذه الحال في ترديدها، واكبت كثيراً من قوافل الأطباء، قاصدة معهم أماكن خطرة كثيرة.. لا تحفل بما قد يصيبها من شرور وآفات.. لأنها تؤمن بأن: "الطب ليس مهنة كما يظن البعض، حتى أقضي كل وقتي بين العيادة والمستشفى.. واجبي يحتم عليَّ مساعدة المرضى الذين لا قد يجدون طبيباً يساعدهم، هناك حيث تكثر الأوبئة والأمراض، فضلاً عن الإصابات الحربية.. والكوارث الطبيعية"..

قالت ذلك ذات مرة في مقابلة تلفزيونية نادرة.. فهي لا تهوى المقابلات الإعلامية.. ولا الظهور على الشاشات، ولا على صفحات الجرائد.. لكنها اضطرت لإجراء هذه المقابلة حتى تحث الناس على التبرع وتوفير مبلغ من المال يغطي تكاليف شراء سيارة إسعاف مجهزة لمستشفى في منطقة فقيرة نائية، يحتاج إليها أهالي المنطقة للضرورة الملحة.. تخدم بلدات متجاورة تعاني الجوع والمرض والتنازع بين مقاتلين لا تعرف قلوبهم الرحمة، فهم متنازعون على كل شيء، لا تجمع بينهم سوى صفة واحدة، إلا

وهي (القرصنة)، والتي يندرج تحتها العديد من الصفات.. حتى أنها تخشى اعتراضهم طريق المسعفين في مهماتهم الإنسانية، والاستيلاء على سيارة الإسعاف الجديدة.

كأنما قدر الحروب جمع فرقائها حول قصعة واحد.. فيغتنون بعد أن يجمعوا الثروات الطائلة، في حين أن المساكين هم وحدهم فقط يكونون فاكهة الحرب وأشهى وقود لها، يموتون إما قنصاً أو جوعاً أو مرضاً، لا يجدون خبزاً ولا طبيباً ولا دواء.

لم تكن ليلى وحيدة فيما تعزم عليه.. كان نصيبها زميلاً طبيباً مثلها.. جمعتهما قافلة إنسانية في يوم ما.. ثم لم يفترقا بعدها في كل القوافل التالية.. كان طموحها أن تجفف دمعة الألم في عين كل مريض.. وأن تعيد البسمة إلى ثغر كل متألم..

شعور نبيل لامع متألق، يمنح النفس وهجاً لا يخبو، وشعاعاً لا يندثر.. كانت مثل أبيها: حمَّالة جوَّالة.. ترفع عدة الطبيب على كتفيها كما يفعل أبوها بالثياب القديمة.. هو تاجر جوال، وهي طبيبة جوالة، تعيش في رحلة تنقل دائمة في مناطق لا تعرف الرحمة، تعانق الليالي المتخمة بالرعب، تخوض كل الصعاب.. ولم تتغير مبادئها.. زوجها عاصم كان مثلها، لا تزيده الصعوبات إلا تسلحاً بالقوة والإصرار..

قالت له مرة: "يا عاصم.. أظن أن الوقت آن لنرتاح بعد كل تلك السنين.. لقد بذلنا كل الجهد.. زملاؤنا القدامى الآن يعيشون في راحة وبحبوحة.. ونحن لا نملك حتى منزلاً ثابتاً يأوينا..".

أجابها بإصرار: "لم يحن الأوان بعد يا حبيبتي.. ما زال أمامنا العديد من التحديات التي لم ننجزها.. كثير من الناس ما زالوا بحاجة إلينا، هذا قدرنا ويجب ألا نتخلى عنه"..

لم تكن لحظة ضعف أو يأس.. أو لحظة راحة واطمئنان في أحد المنتجعات الكبرى، أو على شاطئ البحر وهو يحتسي شراباً مثلجاً.. بل هي كلمات خرجت من فم عاصم فيما هو يتألم إثر عملية جراحية صعبة لعلاج جرح عميق نازف أصاب قدمه خلال قيامه بعلاج طفل صغير في مخيم للنازحين حين سقطت قذيفة قرب الخيمة التي نصبت لتكون غرفة عمليات بدائية بسيطة، كان نصيبه شظية مسننة دخلت رجله اليمنى فحفرت عميقاً حتى وصلت إلى عظمة الساق صعوداً، وكادت تفتتها، ولولا لطف الله لكان حتفه وحتف الفتى ومن معهما جميعاً..

ليلى والمحكمة

قضيتها لم تهدأ يوماً ولم يخفت وهجها ولم يبهت ضجيجها ولم تلتئم جراحها

تحدثت أمام القاضي بجرأة قبل تلاوته قراره النهائي الحاسم

كانت ليلى موقنة بأن قلب القاضي أرق من جناح فراشة

تحكي ليلى لأبيها في بعض جلساتهما القليلة منذ تخرجها من الجامعة وتطوعها لمعالجة كثير من المرضى في أنحاء متفرقة من العالم.. تحكي فصلاً من فصول الحزن.. تقلِّب بين كفيها صفحات التواصل الاجتماعي المتنوعة، فيقول لها: "الأخبار الحزينة لن تنتهي يا ليلى..".

يتنهد تنهيدة عالية خرجت من أعماقه وهو يقول جملته السابقة، لعل اضطراب قلب ليلى يهدأ وحره يبرد قليلاً.. لم يكن أبوها قادراً على القيام بفضول كثيرة، فهو تاجر بسيط، قدراته لا تتخطى توفير بعض الملابس القديمة المستعملة وتوزيعها من حين لآخر على بعض خيام النازحين.

"لا يبدل أبوك من طبعه شيئاً يا ليلى.. هو هكذا ثابت على المبادئ، لا يغيرها منذ شبابه.. حتى فكرة بيع الملابس القديمة لا تهدف للتجارة، بل لتأمين كساء مناسب للفقراء والمساكين، وبأقل الأسعار".

أم ليلى كانت تعلم هذا قبل أن يمتهن زوجها هذه المهنة التي لم تكن في البداية مهنته الأولى، فهو كان يعمل بنَّاء قبل أن يقع من مكان مرتفع ويصاب بعاهة مستديمة بيده اليمنى، جعلته عاجزاً عن أداء مهنته كما يجب، فعمل في بعض المهن البسيطة قبل أن يصبح بائعاً جوالاً للثياب القديمة البالية، ثم تطورت مهنته، فأصبح تاجراً صغيراً، وكلما ازداد رزقة ازدادت إعانته الفقراء، وهو يبيع ثياباً جميلة تستر في حر الصيف وتقي من برد الشتاء، مقابل أثمان زهيدة أحياناً، ودون مقابل في أحيان أخرى، وبذلك يساعد الفقراء ويتمكن هو أيضاً من العيش في بحبوحة مع عائلته الصغيرة وبكرامة؛ فلا يمد يده لأحد من الناس.

تتذكر ليلى كيف تجرأت للدفاع عن قضيتها وقضية عائلتها التي لم تهدأ يوماً، ولم يخفت وهجها، ولم يبهت ضجيجها، ولم تلتئم جراحها.. تتذكر عندما تحدثت أمام القاضي بجرأة قبل تلاوته قراره النهائي الحاسم وبعد قوله بأنه لا يحق للمدعي اصطناع الأدلة، فإذا لم يكن من حق المدعي البحث عن الدليل لإثبات حقه، فكيف من حق المدعى عليه أن يطرح أدلة مفبركة غير صحيحة؟؟! كانت تتكلم بقلب مجروح.. غير أن القاضي لا يمكنه الحكم دون إثبات.. وأمها وأبوها لم ينسيا لحظة كلمتها التي عبرت عما يجيش في صدرهما من ألم..

عادت بها الذاكرة إلى تلك اللحظات، حين وقفت فيها أمام القاضي بجرأة

غير معهودة.. وتجاوزت أعراف المحاكم لتتحدث رغم صدور الحكم.. لكن القاضي قاطع كلامها فلم تكمل ما تريد قوله، فكتبت له رسالة تتضمن كلاماً خارجاً عن مألوف المحكمة... كانت ليلى موقنة بأن قلب القاضي أرق من جناح فراشة، وأنه إذا قرأ كلامها فسوف يتأثر.. لكنها تعتقد في المقابل أن الرسالة لم تصل.

"الحكم مبرم ولن يتغير"..

تألمت ليلى من تعليق أمها على الحكم.. لكن هذا الحكم كان دافعاً مباشراً لكي تلتحق بكلية الطب، رغم معارضة قلبها.. وكتبت ليلى في رسالتها:

"يا حضرة القاضي.. لك الحق التام الكامل غير المنقوص يا سيدي بأن تحكم كما تشاء، وفيما تشاء، وكيفما تشاء، فالسلطات منحتك كامل الحرية بما تتمتع به من ثقة وتقدير واحترام، ما أوجب لك بالغ التبجيل والهيبة، فرض على الجميع واجب السمع والطاعة لما بما أنت به قاض.. فتحية لك نرسلها واحتراماً.. ولك نحني الهامات..

غير أن ذلك لا يعني ضرورة الإذعان والرضى والقبول بما ترى مهما كان قضاؤك وفصلك للأمور، فأنت بالنتيجة مثلنا قد تخطئ وتصيب.. وفي كل حال أنت على الرأس والعين، والخضوع لقضائك واجب علينا بحكم ما لديك هيبة ووقار واحترام في قلوبنا، لكن هذا لا يعني أن لا حق لنا بأن نسعى لحق نراه ماثلاً أمامنا وتصويب الرؤى، ما دمنا متحلين بالأخلاق، متمسكين بالعدالة التي تمثلها، نهدف إليها معاً، دون ظلم لأحد، ودون تشويه للحق الذي نريده.

أعلم مقدار ما لديك من قضايا تستوجب السهر والتعب.. ولك من كل محب للعدالة كل تقدير، ولا شك أن عندك مسؤوليات عديدة، ومشاغل كثيرة، وقضايا أهم مني بكثير.. ومن الطبيعي أن تنشغل يا سيدي عن سماع كل أقوالي وتفاصيل قضيتي، ولا ألومك يا حضرة القاضي.. فأنت وما تحكم به – كما قلت لك وسأبقى أقول – على الرأس والعين.. فنحن نحب العدالة ونسعى إليها ولا يمكن أن نعاديها.. وهذا ما يدفعني إلى الاسترسال في قولي.. وإن لم تجد وقتاً لتسمعني.. فإن كان لك الحق الكلي – فعلاً وقولاً – بأن تقرر مصيري وأن تقرر ما تريد سماعه، فإن لي من الحق أيضاً ما يمنحني القوة بأن أقول كلمتي، فالقانون لا يمنع الكلام ما دام

في سياقه وتحت سقفه، فضلاً عن احترامي لشخصك، وتبجيلي لمقامك يا حضرة القاضي الوقور..

فاسمح لي يا سيدي أن أحكم على حكمك من وجهة نظري، وإن لم أكن خبيرة بالقانون، وليس في ذلك إساءة لك ولا للقانون، فتقبل رأيي، وإن خالف رأيك.. فأنت تعلم يا سيدي أن هناك بوناً شاسعاً بين أحكامك التي تحدد مصير الناس وتفصل بالقضايا وبين رأي المتقاضين، سواء المدعي أو المدعى عليه، وبالرغم من أن كلامي ليس له أثر رجعي في القانون، ولا وزن له في ميزان عدالتكم لترجيح إحدى كفتي الميزان، ونحن نبجل عدالتكم ونحترم، موضوعاً وشكلاً، ولا ننقص من مكانتكم بأي حال، وإني وأن كنت أدرك أن قولي لا يعدل ولا يسدد الحكم وقد صدر، فلا بد لي من قوله والحديث عنه بلا حرج.

أعلم أن وقت سيادتكم لن يسمح راهناً بقراءة ما أكتب إليكم، أو سماع ما أريد أن أتلوه عليكم، فتزاحم القضايا ومشاكل الناس بالطبع أكثر أهمية من كلام على قضية انتهى الحكم فيها، كما أن كلامي إليكم – ربما – لن يقدم ولن يؤخر، لكنها فرصتي لأسجل لكم ما أريد قوله، ولعلك عندما تتقاعد يا سيدي، يكون لديك متسع من الوقت، ما سيتيح لك الاطلاع على قضية فتاة ملتاعة مثلي.. إن رغبت بذلك.

وإني لأدرك تماماً أنك قد تنسى قضيتي في زحمة القضايا، كما قد تنسى الحكم، من كثرة ما يرد عليك من قضايا وأحكام جسام، أكبر وأهم من هذه القضية، لكن القضايا كما تسجل في سجلات محاكم الدنيا، فإنها تسجل أيضاً في سجل العدالة الكبرى، وحتى يحين موعدها المرتقب؛ فإني أذكرك يا سيدي الآن بالقاعدة التي تقول بأن ما بني على باطل فهو باطل، وأن حكمك الذي يقول: (لا يحق للمدعي أن يصطنع دليلاً)، فهذه الجملة وإن كانت مسجلة في ملفاتك القانونية كقاعدة يعتمد عليها لرد القضايا ورفض بيانات المدعي؛ فإنها لن تعيق بحثي عن الأدلة.

القول بالاصطناع يقابله الاختلاق، وأعتقد – وقد أكون مخطئة نظراً لجهلي بالقانون – أن في ذلك تهمة لو كنتَ مقتنعاً بها فقد يكون لزاماً عليك أن تتهمنا بتحريف القضية وتضليل العدالة، لا مجرد الحكم برد القضية دون

توقيع العقاب على محاولة تضليل آثمة، ما دمت تحدثت عن اختلاق للأدلة... لكنك لم تفعل!!! ولا أدري إن كان ذلك هو المعتمد والمتوافق عليه، لكني لا أتفهم كيف يترك من يضلل العدالة طليقاً دون عقاب؟؟؟ بل كيف لنا أن نصطنع الأدلة ولا تحقق في ادعاءاتنا "المصطنعة" كما رأيتها، وفيها ما فيها من حرف للعدالة عن مسارها، وهذه رؤية تستوجب زجَّنا بالسجون تزامناً مع ختم القضية لصالح المدعى عليه!!

حكمت أيها القاضي الجليل وقضيت بما لديك من أدلة وخبرة وشهود قدمهم الخصم، فاقتنعت وقضيت.. ولك علينا السمع والطاعة، وهذا حق لا يقدر على مخاصمتك فيه أحد مثلنا، لكن اسمح لي بأن أقول لك بكل احترام لشخصك الجليل إن لي رأياً في حكمك، فمن حقك أن تحكم الحكم الذي تراه عادلاً، ومن حقي أن أقول ما أراه مناسباً ضمن احترامي الكامل لراية العدالة الشامخة، وليس في ذلك ظلم لا عدوان، سواء أوصل صوتي إليك أم لم يصل.. فإن رأيت أن في كلامي تطاولاً فإني أعلن من الآن اعتذاري أمام الملأ..

وإني وإن كنتُ موقنة بأنك قد حكمت بالعدل كما رأيتَ بناء على ما وصلك من معلومات؛ فقد وقفتُ أمامك قبل الحكم وقلت لك مباشرة بصوت مسموع بأن في تلك المعلومات زيفاً أكثر مما فيها من الحق، فابتسمت ولم تسمح لي بأن أكمل حديثي، وكأنَّ الحكم على مصير لا يسمح للمحكوم عليه بأن يدلي رأياً، أو يشرح وجهة نظر، أو يبدي اعتراضاً على وصايا لجنة تحقيق الخبرة التي وضعت خليطاً من المعلومات في تقريرها، جانب بعضها الصواب، ولم يصب كثير منها كبد الحقيقة، فيما غفلت عن كثير من الحقائق، عفواً ربما، أو عن سابق إصرار وتصميم وترصد.. لا ندري.. فنحن لسنا جهة تحقيق يا سيدي.

ولا شكَّ أنك معذور يا حضرة القاضي من كثرة القضايا التي تطرح أمامك وما تتطلبه منك من جهد وكد، وكثرة القضايا تتعب القلب والنفس.. فاسمح يا سيدي أن أقول لك اليوم كلمات لن تغير مسار حكمك في شيء، كما أنها لن تبدل واقعاً، واعتبرها كلمات في الهواء.. فهل يخطئ من يرسل كلاماً في الهواء أكثر ممن يرسل سهاماً في القلوب فيدميها ويقتلعها من جذورها، أو من قلب مكانها؟؟!!

سيدي القاضي...

من حقي أن أتكلم ومن الكرم أن تصغي، لكني ما إن بدأت الحديث حتى ابتسمت وسارعت بإنهاء كلامي، ورفضت أن تسمع مني الحقيقة كما أراها، ثم قررت سريعاً رفض ما قدمناه من أدلة وشهود، قاضياً في قرارك المكتوب أنه لا يحق للمدعي "اصطناع" الأدلة والوقائع! فكيف يا سيدي ترفض أن تسمعني وقد قلتُ "حقاً" فيما سمعت كلامهم واتخذته دليلاً حتمياً..

لك الحق كاملاً فيما تقضي، ولا أزعم غير ذلك.. لكنه أخي يا سيدي.. أخي.. فتحوا بطنه دون أن يخبرونا.. حقنوا عنقه بأدوية لا حصر لها من كل صنف، ومنها ما هو بالخطأ ومنها ما لا ضرورة له، عصروا دمه، أهانوه واحتقروه وأهملوه، صنعوا من جسده مسرحاً للتجارب الفاشلة.. ولعبة لكل واهم بأنه أفضل طبيب في الدنيا وأكثر فهماً من غيره.. دون رحمة واعتبار.. حتى حانت ساعة الوفاة..

ليس لدينا يا سيدي القاضي اعتراض على الموت.. فالموت حق لا مفر منه، طال العمر أم قصر، وكل إنسان ملاقيه ولو اجتمع كل أطباء العالم حوله، لكن اعتراضي على فظاعة ما حدث.. فالمشكلة لم تنته عند الموت احتراماً وإجلالاً لهيبته.. بل استمروا في تجردهم من الإنسانية.. وأنكروا.. بل كذبوا.. وقدموا لك تفاصيل غريبة، في ظاهرها "الصحة" وفي باطنها "ضلال وتضليل".

وضعوا في وريد جيده كمية فاحشة من دواء كانت لمريض آخر.. دخلت جسده المريض المنهك المتعب المتألم فيما كان يحتاجها مريض ما في غرفة مجاورة.. ثم تتهمنا يا سيدي بأننا نصطنع الأدلة طالما لم يعترف الطبيب بذلك!!! ومنذ متى يا سيدي يعترف الجاني بجنايته ويقر المخطئ بخطئه برضى نفس وطيب خاطر؟!!

كما أنك يا سيدي لم تبادر إلى استدعاء الشهود للإدلاء بما شاهدوه من جرح كبير في خاصرته، واتهمتنا بجملة مهذبة: لا يحق للمدعي – الذي هو نحن – اصطناع الأدلة.. كما أنك لم تسأل عن الوقائع التي تحدثنا عنها، ولم تستدع أصحاب الأسماء التي أخبرناك بها للتحقيق معهم.. ولم تسأل لجنة

التحقيق لماذا غفلت عن كثير من الأمور التي قلناها، ولماذا ذكرت اللجنة وقائع وأرقاماً وتواريخ غير صحيحة، ولماذا كل هذه التشخيصات الخاطئة، والأشعات والجراحات التي لا ضرورة لها، والأدوية المكثفة التي ابتلعها بالفم وبالوريد ولم تكن له أو لم تكن مناسبة.. وكانت كلها نتيجة أخطاء، وترجيحات، وتوقعات ضئيلة الاحتمال، وتشخيصات واهمة واهية غير جازمة؟؟؟!!!

فهل يعني هذا يا سيدي القاضي أن العبوَّة ذات الرأس المسنن ضلت طريقها بقدرة قادر.. وسلكت سبيلها لوحدها من غرفة إلى غرفة، على غفلة من الطبيب اليقظ المراقب الفطن، وقامت من تلقاء نفسها بحقن الدواء المميت في رقبته، دون فعل فاعل؟؟!!!.. هذا – والله – يا حضرة القاضي أشد غرابة من أساطير الأزمنة وغرائب الأمكنة، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً..

ويا سيدي القاضي – إن أذنت لي – هل هناك من يصدق حقاً أن طفلاً عاجزاً عن الحركة والاعتراض والتعبير قرروا أن يفتحوا بطنه في غفلة من أهله، ثم سلموه لهم في اليوم التالي جثة مشوهة هامدة.. فهل يجب أن نكون مثله، لا نملك أيضاً حق التعبير والتفسير والتبيان و"اصطناع" الأدلة كما حكمت.. حتى الموت؟؟!!

صدقني يا حضرة القاضي.. لست حاقدة على الطب ولا على القانون.. بل علمني حكمك كيف يجب أن يكون الطب في الحقيقة.. ولذلك قررت أن أكون طبيبة.. حكمك يا سيدي بني على باطل، والقاعدة تقول: (ما بني على باطل فهو باطل)، حتى لو كان حكمك يا سيدي المبجل حكماً صارماً".

وهكذا انتهت رسالة ليلى التي لم يقرأها القاضي.

رسالة أخرى بيضاء

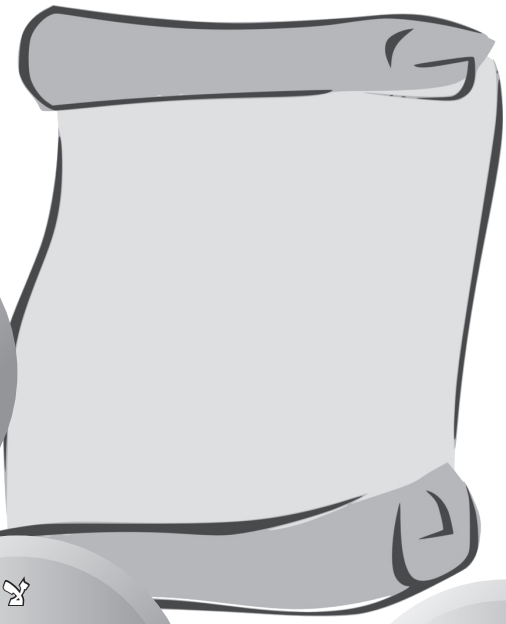

كانت
أحياناً تأخذ
كتبها إلى متجره
الصغير وتقف فيه
بائعة

لا
تحسبوا أيها
الأطباء المنتظرون
أنكم على العموم
متهمون

دراسة
الطب تحتاج
لمصاريف كثيرة
ليست بمستطاع
كل أحد

كثير
من الطلاب لا
يتنافسون على دخول
كليات الطب من أجل
الإنسانية

عزمت ليلى على أن تحقق ما أرادته..

لم تكن الطريق كلها سهلة مفروشة بالورود والرياحين..

قامت خلال دراستها بمساعدة أبيها في عمله وتجارته، فهو تاجر صغير كما أنه بائع متجول، بعد أن كان بائعاً جوالاً فحسب، إمكاناته محدودة، ودراسة الطب تحتاج لمصاريف كثيرة، ليست بمستطاع كل أحد، لذا فقد كانت تهب إلى مساعدته كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وكانت أحياناً تأخذ كتبها إلى متجره الصغير، تقف فيه بائعة، فيما هو يجول بين الأزقة والشوارع الضيقة يجر عربة ذات ثلاث عجلات، تغطيها الثياب المستعملة..

كانت تحب مساعدة الفقراء، مثل أبيها تماماً، وعندما ترى أحداً منهم مريضاً، تهب إلى مساعدته، تحاول تأمين موعد مجاني له مع طبيب يعلمها في الجامعة.. وقد تعطيه بعض النصائح التي تعلمتها في الجامعة، وبخاصة إذا كان مرضه بسيطاً ولديها معرفة عامة عنه.. ولا تبالغ، كيلا تعرضه لخطر تشخيص خاطئ... وكانت تستعير عبارة الجراح الضيف من وقت إلى آخر فتقول:

"الطب ليس مهنة.. هذه أول جملة يجب علينا أن نحفظها في كتاب الحياة، وليس في كتاب الطب"..

مضت الأيام وأصبحت ليلى طبيبة في كبرى المستشفيات، كما أصبحت أستاذة في جامعتها التي تخرجت فيها، وفي لقائها الأول مع طلبتها مع بداية كل فصل؛ توزع عليهم رسالة قصيرة أخرى بعنوان: (رسالة بيضاء إلى معشر الأطباء)، تقول فيها:

"لا تستغرب يا طبيب المستقبل، القارئ لهذه الرسالة، فعنوانها (الأبيض) لا ينفي حزننا وشقاء بعضنا من بعضنا.. وإن كان الشقاء يشفع لنا بعطائنا وإنجازاتنا العظيمة في تخفيف آلام كثير من المرضى، لكن هذا لا يمنع أن نمسح دمعة الحزن فيمن كان مصابه نتيجة خطأ، من بعضنا حيناً، أو إهمال وتسرع وعدم اكتراث من بعضنا الآخر أحياناً، وإن كانوا قلة ولله الحمد والمنة..

ولا تحسبوا أيها الأطباء المنتظرون أنكم على العموم متهمون ما دمتم أطباء، ومن منا لا يخطئ؟ لكني أتحدث عن الخطأ الواقع لأسباب لا يمكن أن يقبلها

عقل عاقل، ولا فهم فاهم.. وأنت حين تكون طبيباً شهماً فإنك تعلم مقدار ما تخلفه من فرحة وسعادة في قلوب الناس الذين يشفيهم الله على يديك.. "الطب ليس مهنة.. هذه أول جملة يجب علينا أن نحفظها في كتاب الحياة، وليس في كتاب الطب".. لكن هل تعلم في المقابل مقدار حزن من يقع ضحية لبعض الأخطاء الطبية؟؟!!!

لا تقل إن في هذا الكلام تجنياً.. فلست أنا من يحب التجني، وقد سمعت يوماً من طبيب مشهور قولاً مثل قولي، ورأياً مثل رأيي.. حتى في نفسه.. ودون أن ننسى فضل الأطباء على الناس، لكننا في المقابل لا بد أن نذكر أن كثيراً من طلاب اليوم لا يتنافسون على دخول كليات الطب من أجل الإنسانية، لكن باعتبارها كليات النخبة التي تضمن لخريجيها مالاً وفيراً ومقاماً رفيعاً.. وما من أب وأم اليوم – إلا من رحم ربي – يشجعان أبناءهما على دراسة الطب ويدفعانهم نحو هذه الدراسة – فقط – ليكرسوا أنفسهم خدمة للبشرية جمعاء.

وكان الناس في الماضي – إلا ما ندر منهم – يؤملون أنفسهم بالثوب الأبيض كمهنة إنسانية، لكننا اليوم، أيها الطبيب الآتي إلى المستقبل، ما عدنا نجد ذلك في بعض الأحايين، حتى صار الأبيض لا يليق بكثير منَّا، فالطب أمسى كسائر المهن، لا كما قيل "الطب ليس مهنة"، كلما دفع المريض أكثر نال من العناية أكثر..

ولا يخفى على الناس – كما تروي الصحافة في بعض البلاد – وفاة مريض على باب الطوارئ لأنه لا يملك دفعة على الحساب، ومن ذلك ولادة حامل على رصيف مستشفى رفض استقبالها لأنها لاجئة ليس لديها ما يكفي لولادتها.. وقد يقول البعض ليس للأطباء علاقة في ذلك.. ربما، لكنهم مسؤولون عن جزء منه.

هناك كثير من الأطباء إنسانيون بطبعهم.. وهذه الرسالة ليست لهم.. فكل طبيب يليق به اللون الأبيض هو نصير للحق وخصيم للباطل.. لكن الاحترام لكل منهم – لائق أم غير لائق – لا يمنع السؤال: "لماذا يحجم الشرفاء منهم عن قول الحق فيمن لا يعرف الحق؟!!".. بل على العكس من ذلك؛ هناك من يتستر على زملاء مهنته، ولا يتكلم ويفضل الصمت على الإفصاح بالحقيقة التي رآها أمامه، بل وربما لا يشهد ويتجاهل علمه بما يعلم، كأنه لم يسمع ولم ير، ولم يكن (للخائنين خصيماً)".

وهكذا تطوي ليلى رسالتها، محتفظة بما تبقى من أوراق، تدسها في ملف معد لهذه الغاية، بانتظار الفصل الدراسي المقبل، ثم تعود لتخرجها منها وتوزعها مرة أخرى على طلبة جدد تلتقي بهم للمرة الأولى، حتى عرف عنها هذا التقليد واشتهرت به، وبات كل الطلاب الجدد يتوقعون الحصول على هذه الرسالة في لقائهم الأول معها.

وبالرغم من إصرار ليلى على توضيح فكرتها، فإنها كانت تقابل بكثير من اللوم والتوبيخ من بعض زملائها وزميلاتها في العمل، وقبل ذلك في الجامعة.. هي لا تنكر أن الخطأ ممكن الوقوع في كل حال، وقديما قالوا: "من لا يعمل لا يخطئ"، ومن المستحيل أن يقصد الطبيب الوقوع بالخطأ، كما أنها لا ترى في الأخطاء العفوية ما يستوجب العقاب، ولا التأنيب، فكل مجالات العمل تواجه الكثير من الأخطاء، غير أنها ترى بوناً شاسعاً ما بين الخطأ غير المقصود، وما بين الخطأ الناتج عن إهمال..

"من ذا الذي يقر على نفسه بالإهمال؟!".

كان زوجها الطبيب الجراح عاصم يقول لها ذلك بكل واقعية وصراحة وصدق..

"حتى أنت يا زوجي العزيز؟!".

"نعم.. بالتأكيد.. وهل أنا غير سائر البشر! جميع الناس يبحثون عن مبررات، حتى العامل البسيط، فكيف بالطبيب الذي يواجه كل يوم عشرات الحالات الصعبة والخطرة، والتي تتطلب منه الكثير من الجهد".

"الاعتراف بالخطأ فضيلة".

"مجتمعنا لا يقبل هذا الفضيلة ببساطة، من يقر بخطئه تلازمه جريرة هذا الخطأ طوال عمره، وتصحبه حتى إلى قبره، فلا تنفك عنه ولا ينساها الناس، وكلما رأوه لا بد أن يذكروه بخطئه ويتحدثون عنه من ورائه، بسبب أو بدون سبب!".

تخفض ليلى جبينها، تسدل جفنيها حتى لا ترى شيئاً، ثم تغوص في عالم من الصمت الصاخب، "نازحة" نحو العتمة المصطنعة، وفي قلبها حسرة لا تنتهي، وجرح لا يندمل.. تتملص من الضوء المتسلل من قلبها.. تدلي رأسها بشموخ، مقتنصة لحظة تمعن، ثم تفتح جفنيها قليلاً، وبتكثيف بالغ تشرِّح نقوش السجادة

العجمية الفاخرة أدنى قدميها، كأنها تخضعها للدراسة والتمحيص، وتبدأ عملية التشريح بمبضع الطبيب الذي لا يسقط من بين كفيها.. تتوسل فيها حطبة الخلاص، تصب نظراتها ولهى في ألوانها البراقة المدهشة، تتماهى مع دقتها اللا المتناهية، في ترامي الخطوط وتداخل الدوائر، وتراقص الرسوم ذات الأشكال المتفاعلة مع بعضها بعضاً، بتناثر معبر.. تتساءل في نفسها:

"ماذا لو اكتشفنا خطأ فادحاً في هذه السجادة قبل تبضعها، هل كنا سنعد هذا إبداعاً خلاقاً مذهلاً أم عيباً نتغاضى عنه؟ وما دامت السجادة عجمية؛ هل سنشتريها مهما كان ثمنها باهظاً، وحتى دون تحقق المهارة في صنعها والجودة في خيوطها، مع التيقن من وجود خطأ فني ما، مؤملين النفس بأن هذا الخطأ الفني مهما كان باهظاً أو بسيطاً، ما دمنا ندركه، فإنه لن يؤثر على هيبة هذه السجادة العجمية وقيمتها الفاخرة، ولن يحط من قدرها"..

تتأجج في نفس ليلى وتتقدح تلك الأفكار والهواجس، تحرص أحياناً على كتمانها في ذاتها.. لكنها لا تلبث حتى تنطلق في كل اتجاه أقوى مما مضى بحثاً عن الحقيقة:

"من يستطيع التنكر للحقيقة المشعة المتلألئة التي تسطع دون مراوغة أو مداهنة؟! أوليست الحقيقة هي الحياة نفسها، لكن هل كل حقيقة يمكن الإفصاح عنها والتلفظ بها؟ حتى وإن كانت مترائية مترامية بأوسع نطاق وعلى امتداد البصر، وهل كل ما نعتقد أنه حقيقة يجب أن يكون حقيقة محضة، وقد لا تكون هي بالضرورة الحقيقة المطلقة، كما أن إنكار الحقيقة المشرقة.. تشويه للحقيقة".

الرعاية الصحية وحقوق الإنسان

الأرواح المشرّدة الساكنة في المخيمات أقل حظاً وحظوة من أرواح أبناء القصور الفارهة

انتهت القضية بحكم قضائي مؤلم لكنه القضاء.. ولا بد أن يحترم

الأخطاء قد تحدث حتى في المنتجات الطبية ذائعة الشهرة

لم تكن تخمن في طفولتها ويفاعتها أن الطبيب يمكن أن يشوّه وجه الحقيقة

تستطلع ليلى أحوال مرضاها من جديد.. تجول في ملفاتهم المتخمة، العامرة بشتى النتائج المخبرية والملاحظات الطبية التي لا يمكن فهمها أحياناً.. حتى من الطبيب التي كتبها.. تقرأ منها ما تسنى لها بحذر شديد، ثم تعود للتفكر بأحوال المرضى النازحين في أنحاء متفرقة من بلاد قريبة وبعيدة.. تنهمر التساؤلات في سريرتها.. لكنها لا تجد إجابات مقنعة:

"هل هناك حقاً من يجفل من الوقوع بخطأ ما، أم إن المبالاة باتت مفقودة والاستهتار بات شائعاً؟؟!!".

"تعلمنا أن الرعاية الصحية صنو الطب، والعملية الطبية نفسها إذا انعدمت فيها الرعاية الصحية اللازمة تصبح عملية شكلية، وقد تنقلب لضدها.. فماذا نحن فاعلون لكيلا يتأذى من وثق بنا وسلمنا روحه؟!".

"وبما أن الأخطاء – وإن كانت استثنائية – قد تحدث حتى في المنتجعات الطبية ذائعة الشهرة، رغم الدقة المتناهية والاهتمام المبالغ فيه، وقد يكتَّم عليها وتبقى في غياهب الظلام بالملفات السرية، ثم تطمس معالمها مع اختفاء هذه الملفات فلا يعرف مصيرها ولا يفتضح أمرها.. فما المانع من حدوثها بلا حسيب أو رقيب بين طوابير النازحين الذين يتدافعون على السرادق الطبية، وقد يكون الطبيب مجهداً فلا يتأنى بتشخيصاته، وربما في عملياته.. فهل هذه الأخطاء الخفية التي لا يراها أحد، وقد يغض البعض الطرف عنها، لن تحدث مراراً وتكراراً مرة تلو المرة.. ومن يضمن ذلك؟! أم إن الأرواح المشرَدة الساكنة في مخيمات النازحين، أقل حظاً وحظوة من أرواح أبناء القصور الفارهة؟!"..

زوجها المسكين يحاول سبر سرائر أعماقها الغائرة والغوص في غموضها، وبخاصة حين لا تتورع عن التحليق نحو فضاء الصمت السحيق، والتحليق بالتأمل الفسيح بحثاً عن مجهول.. يريد النفاذ نحو تأويلات مقنعة لما تحمله من هموم تجعلها جزعة ساهية على مدى الأيام.. لكنه تعب وكلَّ من محاولاته التي باءت بالفشل، فهو لا يملك قدرة أسطورية تمكنه من الجمع بين مهنة التطبيب المرهقة للذهن والبدن، وما بين حل الأحاجي والألغاز الغامضة التي تتعاظم أمامه كلوحة فسيفسائية ملتبسة الأطراف، تتبرعم دون تخوم وبلا رادع، تحتاج إلى ساحر مبدع نابغة، أو عرَّاف عبقري غير محاكٍ، لا إلى مجرد طبيب غارق في معضلات الطب

حتى أنفه، فضلاً عما تقتضي من مهارة في التأويل، وحذق فائق في الفهم والتعليل، حتى يحسن فك شيفرتها كونها مركبة التعقيد ومعقدة التركيب، ومن ثم التوصل إلى استيعاب فحواها وإدراك منتهاها..

هو يدرك معنى المحنة التي مر بها أخوها، ومعاناته الطويلة مع الطب والأطباء:

"لكن ذلك أصبح من الماضي، وانتهت القضية الحزينة، وإن كانت نهايتها بحكم قضائي مؤلم، لكنه القضاء.. والقضاء لا بد أن يحترم"..

"ومن قال إنني لا احترم القضاء؟! القضاء على الرأس والعين، لا اتهام له.. وحكمه محترم.. أما التقصير فهو من لجنة التحقيق.. لا أدري.. هل هو تقصير أم شيء آخر.. تقرير اللجنة جانب الصواب.. سأبقى أحمل هم هذه القضية في قلبي إلى الممات.. كما حملها أبواي..".

يحاول عاصم أن يبعدها عن تلك المأساة.. لكنها قابعة في أعماقها.. ولا تلبث حتى تعود بها الذاكرة من حين لآخر إلى غرفة المستشفى، ثم تمتد صعوداً نحو كلية الطب ومنها إلى قاعة المحكمة..

لم تكن تخمن في طفولتها ويفاعتها أن الطبيب يمكن أن يشوِّه وجه الحقيقة، وأنه قد لا يتورع عن تلويث لسانه بالكذب والبهتان، والجري وراء مسوغات وتبريرات فاسدة لكي ينجي نفسه من التلطخ بأوحال الأخطاء الطبية، سواء أكان خطأ فعلياً أو نتيجة إهمال مقصود، أو قد يبحث على تبريرات واهية غير حقيقية لحرف العدالة عن اتباع طريق اليقين، كما أنها لم تكن لتعتقد يوماً أن مثل تلك الأكاذيب يمكن أن تنطلي على القاضي فيصدقها..

ربما لأنه يؤمن إيماناً حتمياً بنقاء الطب وإنسانية الطبيب، ولا يريد أن يفقد ثقته بهما مهما كانت الذرائع، كما أنه قد يظن أنه من المستحيل على الطبيب أن يكذب وأن يضيق صدره من قول الحق ولو على نفسه.. ومن حق القاضي أن يقول كلمة الفصل، وكلمته بطبيعة الحال لن تكون هي الفضلى عند أحد طرفي النزاع.. كما أن من حقه إدانة المدعين وتبرئة المدعى عليهم، وكذلك تكليف الخصم ليكون حكماً.. له الحق الوافي غير المنقوص بأن يختار الأدوات التي يرتكز عليها لينطق بالحكم راضيا مطمئناً..

تستعيد ليلى لحظات عبرت فيها جمعية حقوق الإنسان عن استنكارها الشديد

للتهاون والمماطلة في التحقيق في ظروف وفاة أخيها، الطفل اليافع، في إحدى المستشفيات، بالرغم من مرور 450 يوماً وقتها على وفاته، دون الحصول على أي تقرير من أي جهة تحقيق كانت في ملابسات الوفاة.

ثم تتذكر أن التحقيق لم يتم إلا بعد نحو سنتين من وفاته بالرغم من كل المحاولات التي تطالب بذلك.. وتتذكر أيضاً كيف تأخرت ورقة طلبتها الأدلة الجنائية من الجهة المعنية بوزارة الصحة، واستغرقت ما يقارب نحو 55 يوماً حتى تصل، علماً أن المسافة ما بين مبنى الأدلة الجنائية ومبنى الجهة المعنية قصيرة جداً، ولا تتجاوز مدة التنقل ما بين المبنيين بالسيارة أكثر من نصف ساعة، وفي أصعب الأحوال، وفي أقصى التوقعات وقت ذروة الزحام، لن تتجاوز الساعتين.. ولنفترض أنها تتطلب يوماً.. وحتى أسبوعاً كاملاً... وليس 55 يوماً.. فهذه المدة كافية لقيام برحلة حول العالم.

وشرحت الجمعية المدافعة عن حقوق الإنسان أنه بناء على المعلومات المتوافرة لديها فقد تم بداية تشكيل لجنة تحقيق من قبل إدارة الشؤون القانونية في الجهة المعنية بالتحقيق بعد مرور حوالي خمسة أشهر من الوفاة، بناء على شكوى قدمها والد منير، لكن للأسف لم يصدر أي تقرير من تلك اللجنة، ورغم الاستفسار المتواصل من الأب عن تقرير اللجنة لم يتم تقديم أي معلومات حول التقرير.. وبعد لجوء الأب إلى القضاء قام الأخير بتوجيه الأدلة الجنائية لمخاطبة عميد كلية الطب وتشكيل لجنة ثلاثية من الكلية؛ لكن عميد الكلية لم يتجاوب مع الطلب سريعاً، ودون شرح الأسباب، واستغرق ذلك أكثر من سنة حتى تدخل بعض ذوي الشأن.

وقالت الجمعية إن المتوفى دخل المستشفى على قدميه، وظل فيه مدة سبعة أشهر حتى تدهورت صحته في ظروف غامضة، وظل هناك حتى توفي.. وأشارت إلى أنه بالرغم من تجاوب كبار المسؤولين الرسميين ورجال أعمال مع مناشدة الوالد المتكررة؛ لكن المستشفى للأسف ماطل في التعاون بإعطاء الأوراق اللازمة للسفر إلى الخارج.. وأوضحت أن هذه ليست المرة الأولى لمثل هذه الشكاوى، وقد حصلت سابقاً بالعشرات، بل أصبحت ظاهرة في قطاع الرعاية الصحية، ولكن للأسف، فإن الجهات المعنية لا تتحرك ولا تعترف بهذا الأمر، بل تقوم بتشكيل لجان عديدة دون توضيح ما يصدر عن تلك اللجان للراي العام.

وطالبت الجهات الكبرى بالتدخل الفوري، حتى لا يتم تدمير ما تبقى من الثقة

بالرعاية الصحية، وتوجيه المختصين بإيضاح نتائج التحقيق في ملابسات وفاة المريض للرأي العام، مع إيضاح الآليات المستخدمة في التحقيق، ومن هي الأطراف التي شاركت فيه.. كما طالبت بمعرفة الأسباب التي أدت الي تأخير تشكيل لجنة التحقيق في كلية الطب وتجاهل طلب الجهات المسؤولة، وبأن لا تقتصر لجان التحقيق على الإدارات الطبية الرسمية فقط، بل يتم تشكيل لجنة وطنية من خبراء مستقلين ومحايدين، ممثلين لجميع أطراف المصلحة، ضمن منهجية رقابة مستمرة، وألا يكون تشكيلها ردة فعل آنية للتجاوزات والأخطاء.. ودعت الناشطين والمدافعين عن حقوق الإنسان، والعاملين في جمعيات النفع العام، ووسائل الإعلام المختلفة، إلى تحمل مسؤولياتهم التاريخية والوقوف مع هذه القضية لكشف ملابساتها، حتى لا تتكرر المأساة.

وتذكر ليلى أن الصوت لم يصل.. بل تأخر التحقيق زمناً طويلاً.. والأسوأ من التأخير أنه بعد أن تشكلت اللجنة كان أحد أعضائها من أصدقاء الخصوم، وبذلك كانت اللجنة مناوئة للمدعي، وتعرض الأب والأم للإهانة على يد عضو لجنة التحقيق دون مبرر، حتى أنه انسحب من الجلسة اليتيمة التي جمعت بينهم، وغادر الجلسة بحجة عدم التعاون، ثم قدمت اللجنة الطبية المكونة من ثلاثة أعضاء للمحكمة معلومات غير صحيحة ودقيقة في تقرير هزيل استغرق نحو سنة من الوقت.. وفي ذلك مماطلة إثر مماطلة، ما أدى إلى حرف القضية عن مسارها.. وانتهاء المحكمة إلى حكم رأته ليلى وعائلتها أنه حكم غير منصف، وبذلك تحمل المتوفي في النهاية مسؤولية وفاته..

وتستعيد ليلى أيضاً أنها بعد خمسين يوماً من الاستنكار الذي أعلنته جمعية حقوق الإنسان؛ تقدمت هي أيضاً، باسم أسرتها، بشكوى إلى أعضاء اللجنة المختصة في مجلس الشعب، لعلها تستطيع الاستعانة بهم لاسترداد حق أخيها المتوفى.. وجاء في شكواها:

"عناية رئيس وأعضاء لجنة الشكاوى في مجلس الشعب المحترمين..

نتقدم إليكم بشكوى تفيد بقيام المسؤولين في وزارة الصحة وكلية الطب بالتهاون والمماطلة في التحقيق في ظروف وفاة الطفل منير في إحدى المستشفيات، رغم مرور نحو 500 يوم على وفاته، دون الحصول على أي تقرير من أي جهة تحقيق

كانت في ملابسات الوفاة. علما أنه قبل نحو سنة تم تشكيل لجنة تحقيق من قبل إدارة الشؤون القانونية في وزارة الصحة بعد مرور حوالي خمسة أشهر من الوفاة بناء على شكوى قدمها والده، ولكن للأسف لم يصدر أي تقرير من تلك اللجنة، ورغم الاستفسار المتواصل عن تقرير اللجنة؛ لم يتم تقديم أية معلومات حول التقرير.. وتم التستر على نتائج التحقيق التي توصلت اليها اللجنة.

وبعد لجوء والد منير إلى القضاء تم توجيه الإدارة العامة للأدلة الجنائية بتاريخ 21 أغسطس 2016 بمخاطبة عميد كلية الطب لتشكيل لجنة ثلاثية من الكلية، وللأسف لم تتجاوب كلية الطب مع الطلب وبدون معرفة الأسباب. وكان الطفل المتوفى دخل المستشفى على قدميه بتاريخ 31 ديسمبر 2014، وظل فيها مدة سبعة أشهر حتى تدهورت صحته في ظروف غامضة، وظل هناك حتى توفي بتاريخ 28 يوليو 2015.

وكان منير تعرض خلال تلك الفترة لإهمال فاضح، كتبت عنه الصحف ووسائط التواصل الاجتماعي، لكن الجهة الطبية كانت تمعن بإهمال هذا الطفل، ومن ذلك إعطائه أدوية كثيرة لا فائدة لها، فضلاً عن إعطائه أدوية كانت لمرضى آخرين.. وتشخيصه أكثر من خمسة تشخيصات خاطئة، ورفض الأطباء استشارة آخرين، وعرقلة سفره عن طريق إحدى الجهات العليا كانت ترغب بذلك، ثم عرقلة سفره بعد تبرع أحد كبار المسؤولين الرسميين بالدفعة الأولى لمستشفى فرنسي، ثم تكفل رجل أعمال بكامل التكاليف..

كما أن الوفاة كانت بسبب بكتيريا أصابته بالتسمم ولم تتم معالجته على الفور، ولم يتم ذكر البكتيريا في تقرير الوفاة، تهربا من حقيقة الأمر.. إضافة إلى أخطاء أخرى كثيرة.. لذا ندعو اللجنة الموقرة للاستماع إلى والد الطفل منير والتحقق من هذه الوقائع المؤسفة وغيرها من الحقائق التي لا تليق بالإنسانية.. ونأمل منكم التدخل الفوري حتى لا يتم تدمير ما تبقى من ثقة بالرعاية الصحية وتوجيه المختصين بإيضاح نتائج التحقيق في ملابسات الوفاة للرأي العام، مع إيضاح الآليات المستخدمة في التحقيق، ومن هي الأطراف التي شاركت فيه.. كما يجب معرفة الأسباب التي أدت الي تأخير تشكيل لجنة التحقيق في كلية الطب وتجاهل طلب الجهات المسؤولة".

شهادة عامل التنظيفات

العام الوليد
الآتي ليس هو
العام نفسه الذي
شاخ ومضى

علمني
هذا الصبي
الصامد في وجه
المحن معنى الصبر على
المصاعب الكبرى

فتحت التجربة
القاسية عيني على
كثير من الأشياء
المتوهمة

هذه المأساة
جعلت من عامل
التنظيفات إنساناً
جديداً مختلفاً

تعود ليلى بذاكرتها مرة أخرى إلى شهادة عامل التنظيفات، فقد كان الشاهد الأول على مجريات الأحداث، منذ لحظة دخول منير المستشفى إلى لحظة خروجه منها حتى عتبة القبر.. تتذكر تلك الليلة المؤلمة في نهاية العام الحزين، نهاية عام كانت بداية لنهاية حياته نهاية حزينة، لكنها لم تمضِ هكذا.. فقد صنعت منها هذه المأساة شخصاً آخر، كما فعلت مع عامل التنظيفات في المستشفى الذي أصبح إنساناً جديداً مختلفاً.

تتذكر العامل الذي تغيرت حياته عندما قال:

"علمني هذا الصبي الصامد في وجه المحن معنى الصبر على المصائب الكبرى، وعزَّزت المِحنة في نفسي قيماً كثيرةً، منها قيمتا التحدي ورفض الانهزام، وفتحت التجربة القاسية عيني على كثير من الأشياء المتوهمة".

تتذكر كيف روى ذلك العامل قصة منير في شهادة طويلة سماها (الأبيض لا يليق بكم)، يسرد فيها تفاصيل الحكاية من بدايتها حتى نهايتها، والتي يبدو أن أطباء المستشفى لم يهتموا بقراءتها ولا الاطلاع عليها، على الأقل في العلن، حيث رفض أحد الأطباء قبول نسخة من الشهادة هدية له بالقول: "لا شكراً.. فهي تذكر أسماء زملاء لي".. وكأن الزمالة تمنع سماع صوت الحق..

تتذكر ليلى تلك الشهادة على لسان راويها، عامل التنظيفات.. شهادة ملأت العالم.. وانتقلت عبر الحدود من بلاد إلى بلاد.. لكن هل يقبل القانون شهادة عامل تنظيفات فقير مسكين؟؟؟!!!

لم تطمع ليلى من القاضي تصديق شهادة عامل التنظيفات.. بل كانت تلتمس التحقيق فيها.. فإن كانت كاذبة فعليه معاقبة مروجها لأنه يخدع القانون وينشر كلاماً كاذباً، أو يعاقب من كان السبب وراء كل تلك التشخيصات الخاطئة، والأدوية الخاطئة.. والحسابات الخاطئة..

وتمضي شهادة عامل التنظيفات من بلاد إلى بلاد.. تطبع في كتاب بعشرات الآلاف النسخ.. يبلغ عدد الطبعات نحو عشر طبعات.. فضلاً عن انتشارها بواسطة البرامج الإلكترونية المختلفة.. وتقرأ ليلى من جديد شهادة العامل الطويلة التي قال فيها:

"لا أملك للآلام مُسَكناً وَلا للجراحِ بَلسماً.. هي الحَياة تقول لعابِريِّها بملء فيها: "حذارِ حذارِ".. غير أنهم يغضونَ الطَرف عن كل التجارب.. يضعون أصابعهم في

آذانهم، يَطعنُون في أعمارهم متحدين موتاً آتياً طمعاً بخلود موهوم.. يسيرون في طرقاتهم متجاهلين حتمية النهاية.. لكن الواحد منهم يصر على عَصْرِ تفاصيل دنياه حتى الثمالة، وكأنه فيها خالد لم يأت ليغادر.. بل ليبقى!!!! أحداث كثيرة لم تفارق مدامعي.. حِوارَات عديدة لَم تغادر مسامعي.. رغم مضي سنين طويلة..

"ألم أركم هنا قبل أيام قليلة، هل يجدر بي أن أُبلغكم أن المستشفى ليس مكاناً لتمضية الوقت؟".

"هل تقصد أننا نأتي لكي نهدر وقتك ووقتنا.. أو أننا جئنا لكي نتسلى؟".

ينظر إليها الدكتور يَترقبُ ماذا ستقول..

"آسفة يا دكتور لأننا لسنا كذلك، ربما اختلطتِ الأمورُ عليك بيننا وبين غيرنا".

"كثيراً ما يأتي الناس إلى المُستشفى وهم لا يحتاجون إلى طبيب".

"يا أخي.. الولد لا يستطيع الوقوف على قدميه بسهولة، ولا يُمكنه المشي جيداً".

كان هذا جزءاً من حوار طويل موجع مؤلم في نهاية عام حزين.. كان العام يلفظ أنفاسه الأخيرة، يطوي أوراقه ويجمع أمتعته استعداداً للرحيل، مترقباً وصول عام آخر جديد.. كان يمضي متثاقلاً متسارعاً في آن معاً، كمن يُريدُ أنْ يتخلصَ من عبء ثقيل يحمله رغماً عنه، يُريدُ تسليم العالم إلى خلفه بأسرع وقت ممكن فراراً من هذه الدنيا ومن فيها، راضياً بكل الخسائر الماضية، أو التي ستأتي خلال السويعات القليلة المقبلة، قبلَ أنْ يقلبَ العالم صفحته..

كان العام المنتهية ولايته يسرع في دقائقه الأخيرة متنصلاً.. متخلياً عن عرشه، مصافحاً يد من يأتي بعده بفرح غامر، فهو يدرك أنه يُصافح طفلاً وليداً نقياً غراً لا يدرك معشار ما سيصادفُ في عهده الجديد من محن وابتلاءات.. كان مرحباً به بشدة وحرارة، ومودعاً له بسعادة غامرة في آنٍ معاً، قبل الفراق النهائي، معلناً وبكل سعادة عن رحلة لا عودة منها.. ولعله – وبلا شك – كان ينتظر هذه اللحظات بكل شوق، حتى يتخلص من هذه الدنيا..

كأنَّه في الترحيب المغالى فيه، والوداع المطلق، يُنبئُنا بأنه كان منتظراً هذه اللحظة بشغف كبير، ليُسلم أمانة الزمن – بحلّة مختلفة وليس كما تستلمها – إلى عام غِرٍّ لا يدري أخطار ما هو قادم، ليُعلن بكلِّ وضوح وإدراك براءته من ذنوب البشرية والعالم بأسره، وليؤكد كما أكد سابقوه على مدى آلاف السنين أن البقاء على هذه الأرض

مستحيل، وأن النهاية آتية لا ريب فيها، وأن العام الوليد الآتي ليس هو العام نفسه الذي شاخ ومضى.. مُخبراً بالفعل – لا بالقول – أنَّ الزمان يموت وينتهي، كما تموت وتنتهي الأشياء الجميلة والقبيحة كلها في هذا الكون..

مرَّت فترةٌ طويلةٌ – والكلام لعامل التنظيفات – وأنا أتنقل في الجوار، على مقربة من سريره الأبيض في غرفة الطوارئ المزدحمة بالمرضى وذويهم والممرضين المنهكين، في الساعات الأخيرة من ليل بارد طويل، وقبيلَ سويعات مما يعرفه الناس بأنه مُنتصف ليلة رأس السنة الميلادية، إذ يحتفل العالم بهذه المناسبة، يضحكون ويمرحون.. فيما نسمع هنا أنين المرضى وتضرعاتهم.. وكان الأوْلى لهؤلاء الفرحين بانتهاء عام وقدوم آخر أنْ يحزنوا لمضي العام وذهابه من أعمارهم، ونقصان حياتهم سنة كاملة مع بدء أخرى جديدة ستنتهي حتماً معهم أو من دونهم..

ولعل في أنين المرضى وتضرُّعاتهم ما يُشعل في أعماق القلب وأوصال الجوارح شموع الهدى وقناديل الحق، ويفرغ القلوب القاسية من الشحناء والبغضاء والصراع على كل ما هو فانٍ، ويملأها حُباً وجمالاً وبهاء..

وعِوضاً عن أن يمضي الوقت سريعاً، ويخرج هذا الصبي من غرفة الطوارئ عائداً إلى بيته؛ طال الوقت كثيراً، أكثر مما كان يتوقع.. وأبتِ الأحداث إلا أن تسجل قصة مأساة تحكيها الجوارح.. وانتهت حياته نهاية حزينة، لكنها لم تمضِ هكذا.. فقد صنعت مني هذه المأساة شخصاً آخر، بل إنساناً جديداً مختلفاً.. تلك الأحداث التي عشتها في المستشفى غيرت في نفسي ملامح الزمن، وأظهرت حقائق كثير من الأشياء التي كنت مخدوعاً بجمالها.. فبدلت مسيرة حياتي.

تعلمتُ أنْ أرى الدنيا بحجمها الحقيقي، اختبرت كثيراً من الفروق ما بين الأحلام والواقع، ما بين الحقيقة والخيال، فرأيت الدنيا على حالها؛ صغيرة جداً.. بل أصغر من سَمِّ الخياط، وكانت الإرادة ألا أستسلم..

علمني هذا الصبي الصامد في وجه المحن معنى الصبر على المصائب الكبرى، وعزَّزت المِحنة في نفسي قيماً كثيرةً، منها قيمتا التحدي ورفض الانهزام، على الرغم من شدة الألم وقسوة الحياة، وفتحت التجربة القاسية عيني على كثير من الأشياء المتوهمة.

خمسة تشخيصات خاطئة.. وأكثر

الأسيرُ لدى العدو قد يكون أوفر حظاً من مريض بين يدي طبيب لا يحترم مشاعره

سبعة أشهر من التشخيصات الخاطئة قضاها هذا الغلام الصالح على سريره الأبيض

أصبح هيكلاً عظمياً نظيفاً من الشحم واللحم صلب المفاصل ثقيل الحركة

تناول الأدوية المتنوعة الألوان والأحجام داء فوق الداء نفسه

سبعة أشهر متواصلة قضاها هذا الغلام الصالح على سريره الأبيض، متنقلاً من مكان إلى مكان داخل المستشفى الواحدة، وغيرها من المستشفيات، لإجراء فحوصات ومناظير وأشعة مختلفة.. وكانت الحصيلة نحو خمسة تشخيصات – وربما أكثر – كلها كانت خاطئة، وكأنَّ التشخيص واجبٌ كتجربة مائلة إلى أن تكون خاطئة قبل أنْ تكون صحيحة، بشكل يبدو فيه الإنسان المريض: "لا شيء"، مجرد رقم في دفتر طبيب..

تماماً مثل سجين في معتقل حاكم ظالم، لا يُنادى إلا برقم معين، ولا يُسمح له بلفظ حروف اسمه، أو أنْ يُناديه أحد باسمه أو كنيته ولقبه، هو مجردُ مجموعة أرقام، تُمحى من المعتقل عندما يتم التخلُّص منه، أو تُمنح لمعتقل جديد آخر، وبخاصة عندما تنتهي حياة المعتقل القديم بشكل "طبيعي".. أو "تُنهى" على يد حراس المعتقل.. وربما يكون السجينُ الأسيرُ لدى العدو أوفر حظاً – إذا كان العدو يحترم الأسرى ويعاملهم كبشر لهم حقوقٌ تُحترم ليبدو أمام العالم إنساناً – من مريض أسير على سرير أبيض بين يدي طبيب لا يحترم مشاعر المريض، ولا ينحني أمام هول المرض..

وليس المقصود بالطبع العدو الذي "لا يحترم نفسه"، وقد يكون "العدو" أحياناً "شريكاً" في وطن، يَحمل الهوية نفسها، ويتحدث اللغة نفسها، لكنه في النهاية يبقى عدواً.. وربما يكون مؤمناً بنفس المعتقد؛ لكنه قد يصبح أشرس قباحةً من عدو تاريخي للاثنين معاً، الأخير قد يُعامل الأسير برفق مزيف، أقله أمام عدسات المصورين، ليباهي بنفسه، ويستعرض فنونه الكاذبة إزاء العالم الإنساني.

وأنا في هذا الواقعِ المؤلم – يضيف عامل التنظيفات – لا أدري تماماً كم عدد المرات التي شخصوا فيها مرَضه خطأ، لم أتمكن بشكل دقيق من إحصاء العدد النهائي لكل التشخيصات أو الاحتمالات التي توصلوا إليها نتيجة بحث وتفكير!!! أو – ربما – نتيجة تسرع وتهاون.. وكل تشخيص اتفقوا عليه – أمْ لم يتفقوا – كان محل تجارب غذائية أو دوائية مخيفة، بدءاً من حرمانه للطعام أربعة أيام متواصلة بسبب إهمال بين وتكرار الإهمال دون بحث أو تفكير بخطورة ذلك، ثمَّ تجربة أنواع من الطعام المسلوق الذي لا يستسيغه الإنسان صحيح البدن،

فكيف إذا كان مريضاً لا يقوى على تناول الطعام الشهي اللذيذ.. وانتهاء بأدوية لا حصر لها ولا عدد، حتى تشبَّع جِسمه منها وتيبست أطرافه، ولا سيما عندما وضعوه عدة أيام في العناية المركزة وتسببوا في تيبس ركبة قدمه اليمنى، فلم يعد يستطيع طيها ولا مدها بشكل مستقيم، وأُعيقت حركته، وتحوَّل من بطل رياضي متميز يحمل الحزام الأسود في الكراتيه إلى ما يُشبه الإنسان، بل أصبح هيكلاً عظمياً نظيفاً من الشحم واللحم، صلب المفاصل، ثقيل الحركة.

وعندما تأتي محنة الأدوية الكثيرة، متنوعة الألوان والأحجام والأشكال، يُصبح تناولها داء فوق الداء نفسه.. ومَا أدراك ما تلك الأدوية ذات الطعم المر والحاد، ولاسيما عندما أرغموه على شرب مادة ذات مذاق لاذع بدلاً من الأدوية الوريدية، سعياً منهم لإخراجه من المستشفى تخلصاً منه ومن همَّه، عِوضاً عنِ المسارعة إلى تغذيته بطريقة صحية سليمة، والبحث عن العلاج الشافي، خاصة أن طبيبة التغذية كانت تشتكي إلى الأب والأم بسبب عدم اكتراث الأطباء بالتعاون معها لكي تستطيع تنظيم غذاء مناسب له، وكانت تؤكد أن الأطباء لم يُبلغوها بطبيعة مرضه، ولم يُنسقوا معها لتتمكن من وضع خطة غذائية سليمة، كما تستوجب حالة منير الصحية، لا في البداية ولا في النهاية.

وواظب منير على شِرب تلك المادة الكريهة لعدة أسابيع، على الرغم من عدم فائدتها، إذ لم يكن جسمه يمتص كامل محتوياتها كما كانت تظهر التحاليل، فضلاً عن أنَّها كانت تزيد من شعوره بالغثيان الشديد، وتزيد من عملية الإرجاع التي كان يعانيها.. لتأتي بعد ذلك احتمالات وجود سرطان، أو مرض مناعي، أو نوع من الالتهابات المعوية، وصولاً إلى تشخيص محتمل لورم في البنكرياس.. ثم داء الكرونز، وهو مرض يُصيب الأمعاء.. ثُم ما يُعرف بحساسية القمح (سيلياك)، وما رافق تلك التشخيصات من تشخيصات سابقة ولاحقة؛ من حقن خطيرة مثل التي تُستخدم في التصوير الإشعاعي المتنوع، وخاصة الإشعاع النووي الذي تكرر من دون سبب وجيه، مما أدى إلى مضاعفات كثيرة، وذلك بعد مرور طبيب زاره مرة واحدة فقط ولم يكرر الزيارة وهو الدكتور آميرال، حيث اقترح نوعاً من التصوير الذري يسمى غاليوم، يتطلب عزل المريض فترة من الوقت بسبب خطورة الإشعاع الذي يحقن به المريض وقد يؤثر فيمن حوله.

علماً أن هذا الطبيب لم يعد للسؤال عنه مرةً ثانيةً، ألقى اقتراحه دون تدقيق تفصيلي في ملف منير ثمَّ انطلق حتى دون أن يلقي عليه تحية الوداع، وربما لم يفتح الملف على الإطلاق، ومن دون أن يلاحظ لا هو ولا غيره من الأطباء المتابعين أن هذا المريض الصغير أجرى الفحص نفسه قبل فترة وجيزة، ونتائج الفحص السلبية التي تبين عدم وجود أورام أو خلايا سرطانية يمكن أن تُظهرها الصورة الموجودة في الملف، ولأنه في الأساس ليس مريضه؛ فما فائدة أن يُرهق نفسه بالبحث والتنقيب؟!

وإذا كان الأطباء الذين من المفترض أنه مريضهم لم يلاحظوا ذلك، كما أنهم لم يسألوا عنه وعن تفاصيل ما يحدث – سابقاً ولاحقاً – فهل سيسأل عنه طبيبٌ مر مرور الكرام، جاء ورحل حتى من دون أن يهتم بأن يُلقي السلام في المجيء وفي المغادرة، بعد أن أوصى بإجراء صورة لا تُقدم جديداً – لكنها تؤخر – حيث انتظر الأطباء كلهم شهراً كاملاً حتى موعد الصورة، وكانت النتيجة: "لا شيء".. وهنا المصيبة التي تأتي وكأنها إحدى مهازل الدنيا الكبرى..

وكما قال الشاعر:

كل المصائب قد تمر على الفتى

فتهون غير شماتة الحُساد

وفي رواية "شماتة الأعداء"، وقد تكون في مثل حالنا رواية جديدة وهي: "شماتة الأطباء".. لكنني في الحقيقة "أعيذها أقوالاً منهم صادقة"، أن يكونوا قد شمتوا به وبأهله بعد وفاته.. وكنت وكانوا كقول المتنبي لسيف الدولة الحمداني:

أعيذها نظرات منك صادقةً

أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره

إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وعلى الرغم من أنني لاحظت ذلك على بعضهم فأنكرته، فقد كان منهم من يحذر انتقاله إلى مكان آخر خشية كشف الأخطاء التي قاموا بها، نتيجة التكاسل التقليدي – ربما – والذي يمكن ملاحظته في بعض المستشفيات وفي أماكن متفرقة من العالم.. وليس ذلك حكراً على مكان محدد؛ فقد نجده في مستشفيات خاصة مثلما نجده في مستشفيات عمومية، وربما يُخفي أحد الأطباء خطأه ترجيحاً لمصلحته الشخصية، وحرصاً على مستقبله و"رزقه" كما يقولون، بغض النظر عن الضرر الذي قد يُصيب المريض وصحته.

ودليل ذلك لا يرقى للشك، حيث كانوا يرفضون مراراً وتكراراً إعطاء ما يثبت عجزهم عن التشخيص الصحيح والعلاج السليم، حتى قبل موته بسويعات معدودات، حيث كتبوا في إفادة طبية طلبتها سفارة فرنسا لمنحه تأشيرة الدخول:

"أدخل المريض إلى المستشفى بتاريخ 31 ديسمبر 2014، ولا يزال إلى الآن في المستشفى للتشخيص والعلاج اللازم"..

ما عرقل حصوله على تلك التأشيرة، فيما كانت السفارة تطلب ما يثبت أن الأطباء عجزوا عن التشخيص والعلاج.. ومثله أيضاً طلبٌ مشابهٌ من مكتب مسؤول كبير.. لكنهم بدلاً من أن يتعاونوا معه عرقلوا السفر..

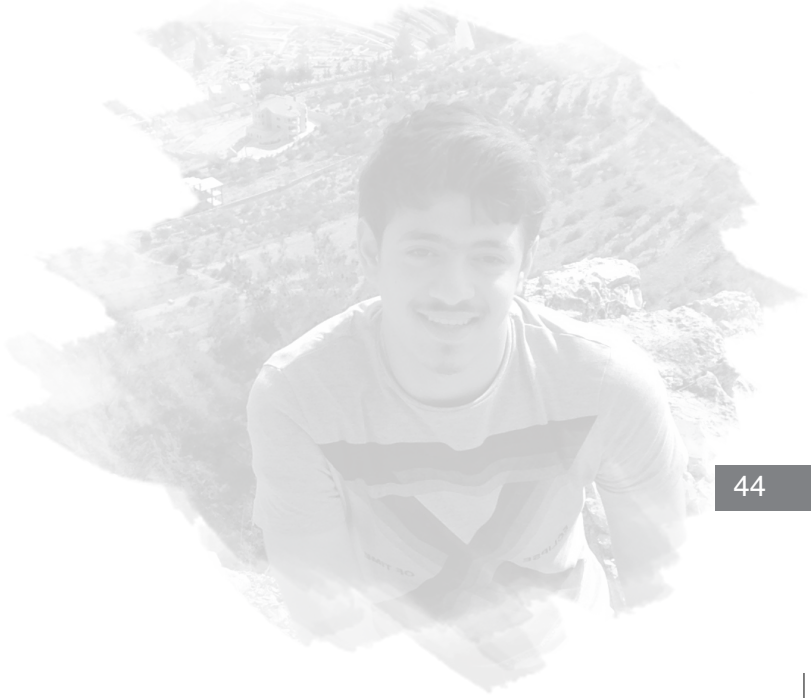

وضع بائس محزن

الإهمال والخطأ
أمران شنيعان جداً
لا يقبلهما الطبيب
المخلص الذي يليق
به اللون الأبيض

الطبيب الذي
لا يليق به اللون
الأبيض لنْ يُعجبه
هذا الكلام

كان كلُّ شيء تحت
سقف المستشفى
يهوى المجافاة حتى
النوم

الدكتور
نوفل حرص
على تبرير الخطأ
بحجج واهية

الفتى في الواقع كان في وضع بائس، حزين ومؤلم لكل من رآه، فكيف ينتظرون شهراً كاملاً لتجرى له صورةٌ اعتقدوا في لحظة ما أنها مهمة؟؟؟!!! أو هكذا تهيأ للدكتور آميرال.. على الرغم من أن الأطباء الآخرين رأوّا أنها صورةٌ غير مهمة حسب تعبيرهم، خاصة أنهم اكتشفوا بعد ذلك أنه كان قد أجراها سابقاً، قبل دخوله المستشفى، فضلاً عن أن المادة التي سيأخذها في الدم قد تؤثر عليه مع ضعفه الراهن.. لكن أحداً لم يهتم بذلك، ولا بكل الصيحات والتنبيهات التي كان الأب والأم يرددانها، وكأنهما لا يملكان الحق بالتحدث أو التعليق على ما يَجري، حتى الخطأ الجسيم عليهما السكوت عنه!!!

بل أكثر من ذلك؛ عليهما قبول الإهمال فضلاً عن الخطأ وعدم الاعتراض عليهما، واعتبارهما شيئاً طبيعياً، على الرغم من أن هذا الإهمال وذلك الخطأ أمران شنيعان جداً.. لا يقبلهما الطبيب المخلص الذي يليق به اللون الأبيض.. مهما كانت الظروف.. أما الطبيب الذي "لا يليق به اللون الأبيض"؛ فلنْ يُعجبه هذا الكلام.. ففي ليلة من ليالي الشهر الأول من العام الجديد تم حقن منير بحقنة "مجهولة الهوية" في الرقبة، ولم يكن هناك سببٌ واضحٌ لذلك عنده.. دخل الممرض إلى غرفة منير وكان ينام وحده في الأيام الأولى لإقامته في المستشفى، فأيقظه:

"منير.. منير.. هيا انهض! الطبيب كتبَ لك حقنة حان وقتها"..

"ماذا؟؟!! حقنة..! الآن..! في منتصف الليل؟!!".

لم يُدرك منير ما الذي يحدث في بداية الأمر، بسبب الوقت المتأخر، فقد كان بين النوم واليقظة، لم يتوقع أن يكون مكان الحقنة في وريد رقبته.. وكانَ لهذه الحقنة تأثير كبير على إحساسه ومزاجه، حيث شعر بخوف شديد لا يُدانيه خوف.. قضى ما بقي من الليل يتساءل عن أسباب هذه الحقنة، وما الذي دعا الأطباء إلى هذه الخطوة الغريبة وغير المفهومة؟!!

والإنسان الراشد قد يشعر بالاضطراب، ويتأذى نفسياً من مجرد التفكير بأنه سوف يُحقن في وريد الرقبة من دون سابق إنذار، فكيف ونحن أمام غلام صغير؟؟؟!!!

في تلك الليلة المؤرقة أعرض النوم عن عينيه ونأى، هجره بجفاء، كان كلٌّ

شيء تحت سقف المستشفى يهوى المجافاة؛ حتى النوم.. أمضى ليله يتجافى جانباه عن المضجع حتى اكتوى من نار الأرق.. سأل ربه الرحمة والخلاص من الداء والابتلاء قبل الدواء، هجر النوم والاضطجاع بسلام، فهو لن يستطيع الاستقرار بأمن واطمئنان على فراشه الأبيض، خشية دخول ممرض آخر بإبرة أخرى تصب جامَّ حممها في وريد آخر..

مرت عليه ساعات طويلة مثل الدهر.. ثقيلات مثل جبل.. كانَ يتضرعُ إلى اللّه تعالى كي يمضي الوقت سريعاً، مترقباً طلوعَ الفجر قبلَ أوانِه.. لكن شيئاً لا ينضبط في وَقته، ولا يتخلفُ عن الحضور في موعِده المحدد، كما ينضبط الفجرُ في توقيته.. ومثله: "الموت".

وفي الصباح الباكر، وبَعد مجيء الوالدين إلى المستشفى – إذ لم تكن حاله في البداية تتطلب بقاءهما أو بقاء أحدهما معه طوال الليل – أبلغهما منير بما حدث، فاستغرب الأب كما استغربتِ الأم، لم يخبرهما أحدٌ بهذه الحقنة المفاجئة، وفي الرقبة بالذات!! فما هو السبب الذي طرأ واستدعى أن يقرر الطبيب له حقنة ليلية من دون أن ينتظر حتى الصباح؟؟!!

وبعد بحث وتدقيق، وسؤال الطبيب المناوب الدكتور نوفل؛ تبين أن الحقنة كانت في طريقها إلى غرفة مريض آخر، ولكنها ضلت طريقها بقدرة قادر.. وتوجهت إلى غرفة منير.. لم يكنِ الدكتور نوفل ليقول الحقيقة ويعترف بهذا الخطأ لولا أنَّ الأم رَأت بعينيها كما رأى الأب أن في ملف منير ورقة تعليمات باسم مريض آخر، وفيها طلب حقنة خاصة بذلك المريض.. والممرض قرأ التعليمات في ملف منير، وتوجه حسب التعليمات لينفذ الأوامر كما هي!!

بدأ الدكتور نوفل يبرر هذا الخطأ بحجج واهية، وقال:

"لا أدري من وضع ورقة الطبيب التي تطلب من الممرض حقن المريض الآخر بتلك الحقنة في ملف منير بالخطأ!!".

نظراتُ الأم كانت حائرة ومندهشة، لم يكن همها هذا التبرير.. كانت قلقة جداً على ولدها المسكين وخائفة من مضاعفات سلبية:

"مستحيل! كيف تُعطونه حقنة في رقبته بهذه البساطة؟! وهل جسمه قادر على أن يتحمل مثل هذا الخطأ؟؟!!".

الدكتور نوفل أخذ الأمر ببساطة متناهية، وكأن الأمر مجرد دُعابة، أو هي مثل شربة ماء، شربها ابنها المسكين ماء زلالاً، ولن يتأثر بها:

"على أي حال، هي حقنةٌ غير مضرة".

"أريد على الأقل أن أعرف ما الذي كان في داخل هذه الحقنة، وماذا لو حدثت مضاعفات؟!!".

" لا تقلقي.. لا يوجد شيءٌ يدعو للقلق، الحقنة خاصة بمريض مصاب بداء السكري، ويُعاني غيبوبة مستمرة.. لكنها لا تضر الإنسان السليم".

إنسان سليم!!

منير إنسان سليم؟؟!!

لماذا إذن منير في المستشفى ولا يخرج منها؟؟!!..

كيف يكون الإنسان سليماً وهو في مثل حاله؟؟!!

يا لهذه الغرابة الغريبة..

كلام الدكتور نوفل يوحي للسامعين أن ما حدث شيءٌ طبيعي جداً ومتوقع، ولا ينقص من قيمة الأطباء شيئاً.. فيا تُرى لو كان ذلك الخطأ خطأ الممرض؛ هل كانوا سيسكتون ويبحثون عن المبررات كما فعل الدكتور نوفل وسائر الأطباء فيما بعد!! أم سيكون لهم موقف مختلف، خاصة مع اكتشاف الأم والأب لهذه الحقيقة المرة؟! الخطأ هنا خطأ طبيب وضع الورقة بنفسه في ملف منير ثم ذهب ونام مطمئن البال..

لذا على المريض وأسرته أن يتقبلوا ذلك بكل احترام وإذعان، وأن يفهموا أنه أمرٌ طبيعي ومعتاد، وليس عليهم أن يعترضوا طالما أنهم وافقوا على أن يكون مريضهم في هذه المستشفى.. وكأن موافقتهم خيار!!

"هل الحقنة هذه إذا كانت لا تضر بالإنسان السليم يعني أنها أمرٌ عادي يمكن أن نعطيها لشخص ليس بحاجة إليها؟؟؟!!! والله إن هذا لشيء عجيب.. كيف نقول إنها لا تؤثر.. خاصة إذا أعطيت لطفل مريض.. والأكثر خطورة أنه في حال صعبة مثل منير".

قال الأب ذلك باستغراب شديد معترضاً على قول الدكتور نوفل في عبارته الواضحة: "إنها لا تضر الإنسان السليم".. وأضاف الأب:

"هل منير الآن في وضع صحي سليم؟؟ وهل بإمكان جسمه الضعيف أن يتحمل كل هذه الأخطاء؟؟!!".

الدكتور نوفل أراد أن ينهي الحوار.. فمضى في طريقه متعذراً بانشغاله لكثرة المرضى، وهو يقول:

"أخبرتكم أن الأمر بسيط ولا داعي للقلق.. الأمر انتهى.. انتهى، لا توجد أية مضاعفات تُذكر، ولو كان هناك تأثير كان لا بد أن يظهر عليه في الساعات الماضية.. قولوا الحمد لله".

ثم اختفى!!

"الحمد لله".

قال الأب ذلك بكل خشوع وبصوت منخفض.. ثم تابع بصوت منخفض أكثر:

"لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسبنا الله ونعم الوكيل".

لم يستطع الأب أن يحتج أكثر من ذلك.. بلع الموسى كما يقولون وسكت.. لكنه قال لأم منير لاحقاً بعد فوات الأوان:

"لو كنت أدري أن هذا الخطأ سيتكرر كثيراً نتيجة الإهمال؛ ربما كنت انتفضت منذ البداية، وحملت ابني وأعدته إلى البيت معززاً مكرماً، فلا أعرضه لمثل هذا الإهمال المعيب الذي يعتبره بعض الأطباء أمراً عادياً، أو كنت نقلته إلى مستشفى آخر ما دام قادراً على الحركة بشكل شبه طبيعي"..

ولم ينفع احتجاج الأم ولا احتجاج الأب في منع تكرار الخطأ!! فقد تكرر في اليوم نفسه بشكل أشد استفزازاً، وتمَّ إعطاء هذا الغلام المهذب كيساً كبيراً في الوريد يحتوي على مادة سائلة لونها داكن.. وتبين لاحقاً أن الكيس يحتوي على مادة الحديد، وكان من المفترض أن يأخذها مريضٌ آخر مثل الحقنة السابقة..

أليس في ذلك استهتار بحياة الناس؛ المريض الذي يحتاج الحقنة! والآخر الذي يحتاج كيس الحديد! فضلاً عن المريض الضحية الذي أخذ العلاجين معاً وهو لا يحتاجهما!!!... ومن يدري؛ لعل هنالك أكياساً وحقناً أخرى ذهبت إلى منير وإلى غيره من المرضى وهي ليست لهم!!

وكان من الطبيعي أن يعترض الأب وأن تعترض الأم بعد ذلك بصوت

مسموع، لتكرار هذه الحال؛ وخشية من أن تتكرر الأخطاء مرة ثالثة ومن ثم رابعة وخامسة، وأن تكون مثل تلك الأخطاء الخطيرة التي تتداولها الصحف من حين لآخر، وتشكل خطراً فعلياً يهدد حياة ابنهما، طالما ليست هنالك محاسبة وليس هنالك وازعٌ ولا مانع.. فالأمر متاحٌ وسهلٌ، وما دامت الأمور بهذا الشكل فعليك أن تتوقع ما ليس متوقعاً.. ويا ليت الأمر اقتصر على ما حدث!! بل يا ليتهما قررا بعد هذين الخطأين وفي اليوم نفسه أن يُخرجا ابنهما من المستشفى.. وينقلاه إلى مكان آخر.. لأن الشكوى لم تكن تفيد.. كما أن الأخطاء الناجمة عن الإهمال والمواقف المعاندة تكررت كثيراً.. حتى مضى الحال بهذا الصبي إلى القبر.

وكنت – يضيف عامل التنظيفات في شهادته – قد قرأت يوماً مقالاً يُعلق على الأخطاء الطبية يقول: "أستغرب كيف يُسجن المهندس في حال سقوط مبناه مثلاً كونه المسؤول الاعتباري عن هذا المبنى، أو يُعفى القبطان من الخدمة إذا ترك سفينته عند الخطر، أو تُغلق بقالة وجدوا فيها علبة طعام فاسد بسبب سوء تخزين غير مسؤول عنه صاحب البقالة، فهو اشتراها بهذا الشكل ولم يكن يعلم ما في داخلها؛ ولا يُسجن طبيبٌ ثبت تقصيره في حق أحد المرضى، حتى لو لم يتسبب هذا التقصير في وفاته"..

ثم يتابع الكاتب قائلاً بكل أسى: "أظن أن النظام الطبي في عالمنا العربي يتعامل مع الطبيب وكأنه خارج إطار المساءلة والمسؤولية.. ونحن هنا لا نتحدث عن سبب واحد، فهناك مجموعة أسباب؛ منها ما يتعلق بكفاءة الطبيب، ومنها ما يتعلق بضميره المهني، وإنسانيته في التعامل مع هكذا حالات، كذلك الإجراءات الإدارية التي لا تقدر أهمية كل دقيقة من عمر المريض ورحلة العلاج، فكيف إذا كان هذا المرض معقداً أو لا يسهل تشخيصه؟".

وقرأتُ أيضاً – والكلام لعامل التنظيفات – كما أن الأطباء مسؤولون، فإن النظام الإداري في المستشفيات مسؤولٌ أيضاً، فعندما يغيب دور هذا النظام، أو يختزل بسلسلة إجراءات روتينية لا ترقى إلى اعتبار أن كل مريض أمانةٌ مسؤولٌ عنها النظام الطبي بأكمله؛ فلن يكون هناك تقدم في مستوى الطب، أو تراجع في مُعدل الوفيات الناتجة عن الأخطاء الطبية، ولعل التحقيق والمساءلة

هما العاملان الوحيدان اللذان يرفعان من مستوى المسؤولية لدى الأطباء، لتفادي هذه التجارب المؤلمة، بغض النظر عن أي مسائل أخرى، وعلى رأسها خشية الله ثم المسؤولية المهنية والضمير الإنساني.. وفي موازاة ذلك نرى في واقعنا أنه محظور عليك أن تحتج إلا بقدر محدود جداً، وإذا تجاوزت الحد بمستوى شفهي بسيط ستقع عليك غرامة كبيرة، وربما السجن بـ"جريمة" إهانة طبيب.. بغض النظر عما يحدث للمريض..

أما إذا تجرأت وقلت لأحد منهم: "أخطأت" أو "أهملت"، عندها سيظهر بعضهم على حقيقته، وتشهر الأظافر والأنياب المستترة خلف ابتسامات صفراء وستائر رقيقة واهية، وسرعان ما تتبدد المظاهر الكاذبة أمام أي مواجهة ولو بسيطة، ويتركونك من دون طبيب معظم الوقت، أو ربما كل الوقت، ويتخلون عنك عندما تكون في أمس الحاجة إليهم، ويرفضون التعامل معك إلا باستعلاء، وبأدنى قدر ممكن..

هم يعلمون أن القانون يحميهم في وجه أي "إساءة" تلحق بهم، بل ستدر الإساءة عليهم تعويضاً مالياً مجزياً يفرضه القانون نفسه.. كما أنهم في الأحوال الطبيعية قد يرفضون التواصل مع المريض وأهله خارج أوقات الدوام الرسمي، وربما أثناء الدوام، وإن كانت الحالة تستوجب ذلك، كما حدث مع منير في فترة لاحقة..

وكأنَّ أي اعتراض أو تشكيك أو مناقشة يُمثل أشكالاً متعددةً من الجرائم الكبرى التي يقترفها المريض وأحباؤه، والتي لا يمكن أن تغتفر، وعليهم أن يتحملوا وزر الخطأ – وإنْ كان مميتاً – بصمت وإجلال، لأن الصمت عن الخطأ فضيلة ورفضه جريمة.. لذا عليهم أن يتقبلوا عن طيب خاطر كل استفزاز أو احتقار، أو أي خطأ طبي ناتج عن إهمال، ذنبهم في ذلك أنهم ارتضوا اللجوء إلى مستشفى عمومي في بلد يتكلم أهله العربية.

وأذكر أيضاً – يضيف عامل التنظيفات – أن صديقاً لأبي منير يدعى صالحاً، كان يزور منير بانتظام يوماً بعد يوم، أخبره مرة قصة طريفةً حدثت معه يوم كان طالباً جامعياً في فرنسا.. يروي صالح أنه وفيما كان مع صديق له من الطلاب المصريين يستقلان حافلةً للنقل العام متجهين لأحد الأماكن؛ أغمي

على صديقه جراء نوبة سكر، فتم نقله إلى المستشفى على عجل حيث عولج بشكل سريع وعاد إلى حاله الطبيعية، فقد كانت إغماءة بسيطة عابرة، وبعد التأكد من سلامته سمحوا له بالمغادرة..

وكان المستشفى عبارة عن مركز جامعي يفترض أنَّه شبيه بالمَكان الذي "يعالج" فيه الغلام الصَّالح منير، فعرض عليه الأطباء البقاء لإجراء بعض التحاليل الفحوصات والأبحاث، باعتباره شاباً مصرياً يافعاً، و"من أحفاد الفراعنة"، كما كانوا يقولون له، فسرَّه ذلك، وخصوصاً لأنه سيجري فحوصات شاملة ومن دون أي نفقات.. وكانت سعادة الأطباء بموافقته أكثر من سعادته هو.. فكرموه وشكروه، وأبدوا له كل تقدير واحترام، وقضى في المستشفى عدة أيام، كان فيها كما قال صديقه صالح:

"في غاية الانبساط والانشراح والراحة، وكأنه في فندق فاخر أو منتجع من خمس نجوم".

قارن عامل التنظيفات بين الموقفين وتحسر، خاصة بعد أن أدرك الوالدان في تلك الفترة أن بقاء منير في هذا المكان خطأ جسيم، لكن لم تكن لديهما حيلة أخرى، لأن منير لم يعد بإمكانه التحرك والانتقال بحرية من مكانه، فقد أصبح جسمه هيكلاً عظمياً بلا شحم ولا لحم، وعملية نقله إلى أي مكان تتطلب تحضيرات خاصة.. كما أن تلك العملية تتطلب أموالاً كثيرةً، ولا يمكن لوالدين في مكانهما تحمل نفقاتها، خاصة بعد أن أنفقا كل ما يملكان خلال الفترة الماضية.. لكنهما؛ لم يفقدا الأمل، بل كان لديهما أملٌ كبيرٌ بأن يتمكن الأطباء من اكتشاف التشخيص الحقيقي للمرض..

وتسلح الوالدان في بداية المأساة بالصمت البالغ – باستثناء حالات محدودة – وكانت نقاشاتهما مع الأطباء قليلة جداً.. وامتد الصمت مدة واسعة إزاء كل هذه الأخطاء الجسيمة المروِّعة، وهي في الواقع ليست أخطاءً عادية يمكن أن يتفهمها الناس.. وماذا يفعل الغريق غير أن يتمسك "بقشة" إن لم يجد غيرها؟؟؟!!

وعندما طفح الكيل، وبلغت القلوب الحناجر.. قرر الوالدان استنكار ما يحدث، والاعتراض عما يشاهدانه من إعمال أسفرت عن تدهور صحة ولدهما

بشكل لا يوصف، فجوبه استنكارهما بحدَّة بالغة.. وتلا ذلك ازدياد تجاهل بعض الأطباء لهم، فيما ابتعد أطباءٌ آخرون بشكل كامل، وكأن الأمر مجرد مسألة عنفوان مركب، أو عزَّة نفس مفهومة بالخطأ، أو إهانة شخصية وإن كانت غير مقصودة، على الرغم من أنه لم يُقدم أحدٌ على الإساءة إليهم إساءةً مباشرة كأشخاص..

فإذا كانوا هم ينظرون للمريض كرقم، ويريدون منه ومن أهله قبول ذلك من دون مناقشة؛ فلماذا لا يقبلون هم أيضاً أن ينظر إليهم كرقم أيضاً!! وهل الأم والأب يشغلهما في هذا الوقت بالذات افتعال المشكلات؟؟؟!! أو يهمهما الآن الشخص أم الطبيب تحديداً!!! وفي النهاية؛ لماذا لا ينظرون إلى المريض من الناحية الإنسانية؟؟!!

والعقل يقول: حتى وإن كانت هناك إساءةٌ فعلية من ولي أمر المريض تجاه الطبيب؛ فإن على الطبيب أن يقوم بدوره الإنساني بغض النظر عن أي شيء آخر.. ويترك محاسبة الوالدين على خطئهما لوقت آخر، من دون أنْ ينتقم من المريض نفسه.. لكن ما حدث كان عكس ذلك!! كأنهم كانوا يريدون أنْ يقولوا لمن يعلم ولمن لا يعلم:

"إن من حق الطبيب على أهل المريض جميعاً، بل من الواجب عليهم أن يكونوا كالأصنام؛ عمياً وصماً وبكماً، لا يُبصرون شيئاً حتى لو كان بحجم الفيل، ولا يسمعون شيئاً حتى وإن كان كضربِ الطبول.. ولا ينبسون بكلمة، أو إشارة وإن كانت حركة عيْن اعتراضية واحدة.. وإذا تكلم الوالدان فليس مسموحاً لهما أن يناقشا أو يرفضا، تعريضاً أو تلميحاً، فقط يمكنهما أن يتكلما بالفضائل والمحاسن ولو اختلاقاً.. وإذا رأيا موقفاً أو سمعا حديثاً فليس عليهما أن يريا أو يسمعا غير "الجمال الرائع" فقط، ولو كان مصطنعاً على يد طبيب فنان ماهر"..

صورة الغاليوم

اقترح
د. آميرال إجراء
صورة خطرة دون
الاطلاع على ملف
منير

أصبح
التعامل جافاً
وكاد الاهتمام يصل
إلى درجة التجمد
شبه التام

أطباء
الباطنية وافقوا
على الصورة رغم
استهانتهم بها
وبأهميتها

تم حقنه
بكميات وفيرة
من الكورتيزون من
دون التوثق من صحة
التشخيص

يواصل عامل التنظيفات شهادته قائلاً:

أذكر جيداً أنه عندما كان منير في جناح الباطنية جاء الدكتور آميرال، وهو طبيب في قسم الجهاز الهضمي، وأجرى له فحصاً سريعاً، ثم اقترح إجراء هذه الصورة، من دون أن يُبدي كبير اهتمام.. لكن الأطباء المشرفين اعتبروا هذا الاقتراح لأول وهلة وكأنه الشيء المفقود أو الكنز الذي يبحثون عنه!! وتم تحديد موعد لها، ولكن متى؟؟؟!!! بعد نحو شهر كامل بسبب زحمة المواعيد!! وهي تُجرى في مستشفى آخر.. وقد أبدى أطباء الباطنية لاحقاً استهانةً بها وبأهميتها بالنسبة لحال منير، ورأوّا أنها لن تُقدم جديداً، ومع ذلك تمسكوا بها وكأنها ملاذهم الأخير.. كما أبدى الدكتور مسرور، وهو من أبرز الأطباء المشرفين على جناح الباطنية، استغرابه قائلاً:

"لماذا يريدون هذه الصورة ولا فائدة منها ولا ضرورة لها؟؟!!".

وكذلك قال الدكتور عبدالعظيم طبيب الغدد والهرمونات، خاصة أن الأخير اكتشف دون غيره من الأطباء بعد أن راجع ملف منير مراجعةً دقيقة أنه تم إجراء مثيل لهذه الصورة سابقاً، والتي لم أكن أعلم بخطورتها، وكانت هذه أول مرة أسمع بها، فيما كان على منير الانتظار نحو شهر كامل حتى يحين موعدها، وكأن المرض الذي يأكل جسده سينتظر هو أيضاً!!

وفي هذه الأثناء أصبح التعامل معه جافاً إجمالاً، وكاد الاهتمام به يصل إلى درجة التجمد شبه التام، لولا بعض المعاينات البسيطة.. ثم طرأت مشكلة جديدة بعد أن طرح الدكتور مسرور فكرة إخراج منير من المستشفى، فتردت حاله الصحية أكثر بعد وقف جميع المحاليل الوريدية فترة أسبوع تقريباً، والاستعاضة عنها بأدوية عن طريق الفم، وكانوا في حينها يجرون تجربة ليعرفوا ما إذا كان جسد منير الضعيف سوف يتقبل الأدوية غير الوريدية ويكتفي بها في حال خروجه من المستشفى.. علماً أنهم جميعاً كانوا على علم بأن أمعاء هذا الغلام المسكين لم تكن تمتص الغذاء ولا الدواء.

وسألت الأم الطبيبة المسؤولة في جناح الباطنية الدكتورة أماني التي وافقت الدكتور مسرور على رأيه:

"كيف ستخرجونه وهو في هذا الوضع، وما زال يراجع الطعام كما أن الإسهال متواصل؟!".

فأجابت بسؤال عن السؤال.. وبكل بساطة وسخرية:

"لو أبقيناه في المستشفى هل سيتوقف الإسهال؟!".

ولولا رفض طبيب الكلى الدكتور جاسر لاضطر منير إلى المغادرة، على الرغم مما كان يعانيه من مخاطر.. ويا ليته خرج!!! لأن مسلسل المخاطر التي مر بها في المستشفى كانت أشد ضرراً من مثيلاتها التي كان من المحتمل أنْ يمر بها خارج المستشفى..

وكان أبو منير في هذه الأثناء يسأل الأطباء بشكل متكرر عما إذا كان منير سيتحمل حقنة الإشعاع، وذلك بسبب صحته الواهنة.. لكنهم استبعدوا حدوث أي ضرر من ورائها، دون أن يحسبوا حساباً للضعف الذي يعانيه.. وبعد شهر تقريباً، وفي الموعد المحدد؛ نُقل منير في سيارة إسعاف إلى مركز التصوير الواقع في مكان بعيد عن المستشفى، وعلمت بعد عودته إلى غرفته مساء اليوم نفسه أنه وإثر حقنه بالإبرة التي تحتوي على مادة مشعة تم عزله في غرفة جانبية فترة من الوقت، وأنه أصيب بإنهاك شديد، لم يستطع معه حتى أن يتحكم بيديه ليرفع زجاجة الماء إلى فمه، ثم تراجعت صحته في الأيام التالية أكثر فأكثر، ولم تثبت الصورة أي شيء مفيد..

وبعدها مباشرة، وبعد أن تبين للجميع أن هذه الصورة لم تكن ضرورية ولا ملحة على الإطلاق، كما كانوا يعتقدون سراً وعلانية، وأنه تمت إضاعة شهر كامل من دون فائدة؛ تم حقنه بإبرة (أوكتريوتايد) الخاصة بالورم المشتبه به في البنكرياس، وهو ما سماه التحقيق الطبي لاحقاً بـ(نظير السوموستاتين)، ناكراً أنه تم حقن منير بهذا الدواء بمتابعة وإشراف طبيب الغدد الدكتور عبدالعظيم، لاحتمال وجود ورم قد يكون مسبباً لكل هذه المشكلات التي يعانيها أو لبعضها، فيما كان جسده يتلقى الدواء إثر الدواء على سبيل التجارب، أو عن طريق التشخيص الخاطئ، أو بسبب الإهمال.

وهذا الدواء الذي تقرر قبل صورة (الغاليوم) لم يكن ممكناً حقنه به قبل إجراء الصورة كما قال الأطباء، وهو هرمونٌ يُستخدم لتخفيف نوبات الإسهال المائي المسبب بورم سرطاني، على الرغم من استبعاد هذا المرض المخيف منذ البداية.. فقد كان الدكتور عبدالعظيم يقول إن منظر منير يوحي بأنه مصابٌ بالسرطان، لكن كل التحليلات لم تثبت وجود خلية سرطانية واحدة.. وكانت أم منير كلما سمعت بمثل هذا الكلام تحمد الله على أنه ليس سرطاناً، من دون أن تحسب حساباً لما يخفي القدر من إساءات البشر، مما هو أشد قسوة من السرطان نفسه.

ويضيف عامل التنظيفات: أذكر أن أم منير التقت صدفة الدكتور آميرال يوماً في أحد ممرات المستشفى، فاقتربت منه وسألته عن ابنها، وتبين أنه لا يعرف شيئاً عنه، ولم يكن يذكره، مع أنه هو الذي أمر له بنوع من التصوير الإشعاعي الخطير، على الرغم من حاله التي بات يعرفها كثير من العمال والممرضين والإداريين في المستشفى، وكان من المفترض على الأقل أن يتابع اقتراحه، إن لم يكن يرغب بمتابعة المريض.

وتم حقن منير بإبرة (أوكتريوتايد) التي كانت هي أيضاً على سبيل التجربة (وهو ما نفاه التحقيق الطبي كاذباً)، وكان جسده ما زال متأثراً بصورة الإشعاع النووي التي لم يكن لها برأي الأطباء أنفسهم أي فائدة تذكر، بل هي أكدت ما هو مؤكد فقط.

وبعد نحو شهر خف الإسهال قليلاً وأصبح أكثر تماسكاً، غير أن الأطباء لم يُعيروا ذلك أي اهتمام، ولم يبنوا على هذا التحسن، واعتبروا أن هذا العلاج "التجربة" لم يعط أي نتيجة إيجابية، وقاموا لاحقاً بتغييره بعد تغيير التشخيص، واتجهوا نحو مرض كرونز، الذي تم استبعاده سابقاً من جانبهم ومن جانب أطباء آخرين، جراء العديد من العينات التي أخذت من الأمعاء على فترات متقاربة، لكنهم فجأة تراجعوا عن رأيهم وقرروا أنه: "التشخيص الأكيد ولا شك في ذلك".. مع التشديد على جملة: "لا شك في ذلك".. على الرغم من أن كل ما سبق كان فشلاً ذريعاً وخطأ مريعاً.. وإساءةً للإنسانية بكل لغاتها..

وعلى الفور تم حقنه بكميات وفيرة من الكورتيزون من دون التوثق من صحة التشخيص، على الرغم من فشل كل التجارب والتشخيصات السابقة، كما أنهم لم يتحققوا من مدى تحمل المريض لهذا المقدار الذي تم تحديده من الكورتيزون، وإنني لأرى – والكلام لعامل التنظيفات نفسه – أنها كانت بالفعل "تجارب" فاشلة، وليست تشخيصات حقيقية قائمة على تحليلات علمية مؤكدة، كما كان يردد الأطباء أنفسهم، لأنهم طوال الوقت كانوا يقولون إنهم غير واثقين من تشخيصاتهم، وإن قالوا في المرة الأخيرة إنهم متأكدين "مئة بالمئة"، وتحديداً في تشخيص الكرونز، ثم تراجعوا بعد ذلك، من دون أن يبدوا أي أسف على ما اقترفوه من تدمير لما تبقى في جسده من قوة.

وإنني لأعتقد جازماً، و"مئة بالمئة"، و"لا شك في ذلك"، و"بثقة تامة"؛ أن بعض الإساءات الجسيمة يجب ألا تحتسب على أساس أنها إساءاتٌ فردية شخصيةٌ محدودة المساق، مكاناً وزماناً وأشخاصاً، بل قد تكون بالفعل إساءةً للإنسانية جمعاء، وبكل لغات الأرض..

أوليست المرأة التي حبست قطتها، وحرمتها من الطعام والشراب؛ على ذنب عظيم كونها ارتكبت جريمةً بحق البشرية، قبل أن ترتكب جريمة بحق معشر القطط؟!! فإذا كانت النار مثوى تلك المرأة، على الرغم من أن الإساءة محدودة، وليست بالزجر والضرب والتعذيب.. فكيف بمن يستهزئ بحياة إنسان.. ويتصرف بمصيره على سبيل التجارب؟؟!!

وأدى ذلك كله إلى تدهور حاله الصحية السيئة إلى حال أسوأ، فأصيب الجميع بالذهول وهم يرون نحول جسمه المخيف، مع تقرحات وكدمات سببها بعض الأطباء – نعم سببها بعض الأطباء بغير تقدير ولا رحمة بهذا الجسد الضعيف – إضافة إلى بروز عظام الصدر والكتفين وفقرات الظهر، وتمثل عظام الحوض للناظرين.. وكأن اللحم جافاه، والشحم غدر به..

وكانت هذه التفاصيل تحدث أمام مرأى الجميع من دون اكتراث حقيقي من بعض الأطباء الذين هجروه وكأنهم خاصموه، وذلك لسبب وحيد؛ وهو حرص أمه وأبيه على حياته، وكأن هذا الحرص ذنبٌ يُعاقب عليه (قانون ابن سينا) في الطب، أو (قسم أبقراط) الخاص بالأطباء وهو نص قديم جداً، عادة ما كان الأطباء يقسمون به قبل مزاولتهم المهنة، ولا يوجد الآن ما يُجبر الأطباء على هذا القسم، بما أن مهنة الطب في عصرنا هذا محددةٌ بنصوص قانونية..

ويتعهد الطبيب في (قسم أبقراط) بأن لا يعطي عقاراً مميتاً لأي إنسان، حتى لو سأله ذلك، وألا يعطي اقتراحاً بهذا الشأن، كما لا يعطي امرأة دواءً مجهضاً.. كما يتعهد بأن يحافظ على فنه، وأن يعمل لنفع المريض، وأن يظل بعيداً عن جميع أعمال الظلم المتعمد وجميع الإساءات، وأن يمتنع بحرص عن عدم الكلام في الأمور المخجلة، التي يراها أو يسمعها.

ثم يخلص أبقراط بعد كل التعهدات السابقة إلى القول: "فإذا ما وفيت بهذا القسم ولم أحد عنه، فيحق لي حينئذ أنْ أهنأ بالحياة وبالفن الذي شرفت بالاشتهار به بين

جميع الناس، وفي جميع الأوقات، وإذا ما خالفت القسم وأقسمت كذباً، فيجب أن يكون عكس هذا نصيبي وجزائي".

أما القسم الآخر الذي قد يعتمده اليوم البعض منهم، فهو يشبه فحوى ما يلي: "أقسم بالله العظيم أن أراقب الله في مهنتي، وأن أصون حياة الإنسان في كافة أدوارها، في كل الظروف والأحوال، باذلاً وسعي في استنقاذها من الموت والمرض والألم والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم، وأستر عوراتهم، وأكتم سرهم، وأن أكون على الدوام من وسائل رحمة الله، باذلاً رعايتي الطبية للقريب والبعيد، للصالح والطالح، وللصديق والعدو، وأن أثابر على طلب العلم، أسخره لنفع الإنسان لا لأذاه، وأن أوقر من علمني، وأعلم من يصغرني، وأكون أخاً لكل زميل في المهنة الطبية في نطاق البر والتقوى.. وأن تكون حياتي مصداق إيماني في سري وعلانيتي، نقياً مما يشينني أمام الله ورسوله والمؤمنين، والله على ما أقول شهيد".

لكنني في الحقيقة – يضيف العامل – لست أدري صيغة القسم الذي أقسمه هؤلاء الأطباء الذين كنت أصادفهم بالممرات لحكم عملي، أو حيث أحرص على التواجد في جوار غرفة الغلام الصالح منير.. وعلى العموم فإنَّ هذا الأمر لم يكن يعنيني في تلك الظروف الحرجة، كل ما كان يشغلني هو ذاك الفتى اليافع الصغير السن، فقد كان شاحب الوجه نحيلاً، لم يكد يُنهي صفه العاشر، وكان من المفترض أن يكون اليوم مع أقرانه يلهو ويمرح، ويحلم بالمستقبل، لكنه عوضاً عن ذلك يصارع المرض بإيمان وثبات وصبر لا يلين..

البلبل الغريد

عليك أن تحزن
لأن صمتك يمنعك
عن الغناء ونشر
البهجة

كان يجلس
وحده حزيناً
على السرير الذي
لم يعد يفارقه إلا
نادراً

بات
مقتنعاً بأن
الثوب الأبيض لا يليق
ببعض من يرتدون
البياض

انتظرت طويلاً..
لعل البشرى بنهاية
هذا الكابوس تأتي
أخيراً

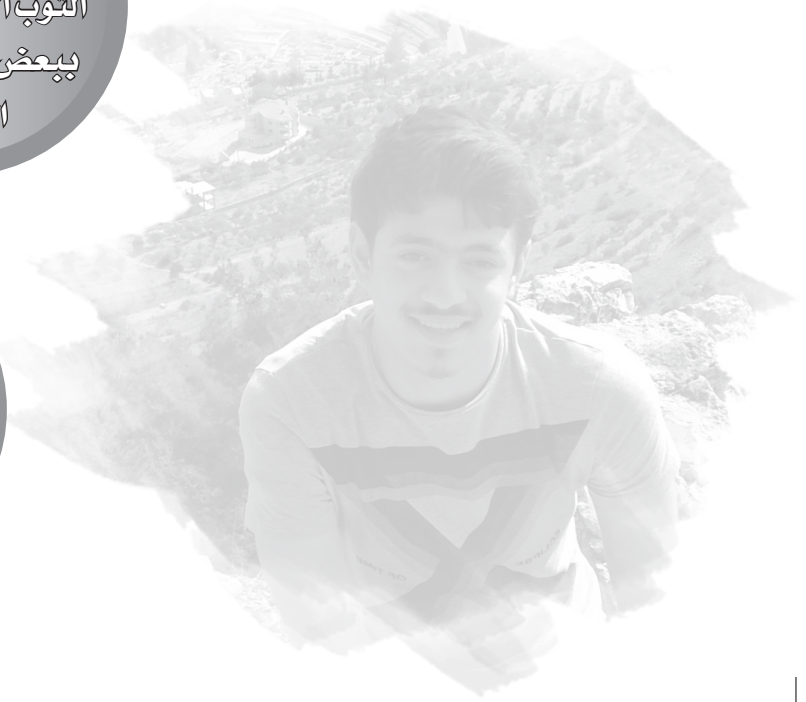

كان "رجلاً" بملامح طير سماوي، أو "ملاكاً" على هيئة بشر.. كلما سألوه كيف حالك يا منير؛ أجاب بصوت منهك حزين، مشحون بإيمان فطري صادق: "الحمد لله.. الحمد لله، أنا بخير.. أنا بخير".

ويقول العامل: أذكر – ولا أنسى – أنني تصادقت معه منذ الأيام الأولى لدخوله المستشفى، وكان يعاملني برقة عجيبة، ويشعرني بأنني أخٌ له، ربما لأننا من جيل واحد تقريباً، فأنا أكبر منه ببضع سنين.. أخبرته أنني وصلت في دراستي إلى صفه تقريباً، فقد كانت جدتي حريصة على تعليمي، لكنني اضطررت إلى ترك المدرسة لعدم قدرتها على الاستمرار في دفع مصاريفها، وعندما سنحت لي فرصة السفر للعمل، سافرت على الفور ولم يهمني نوع العمل.. حتى وإن كان في التنظيفات.. كنت أجلس معه أحياناً عندما يكون وحده.. في الأسابيع الأولى كان يتكلم ويضحك، وكان يقوم من سريره ويمشي، وكنا نصلي معاً.. وأحياناً كنا نلعب بالألعاب الإلكترونية.. ونشاهد برامج التلفاز..

وذات صباح مشرق وبديع من أيام الأسابيع الأخيرة من عمره القصير؛ دخل عامل التنظيفات إلى غرفته وكان يجلس وحده حزيناً على السرير الذي لم يعد يفارقه في الفترة الأخيرة إلا نادراً، وكانت أشعة الشمس تملأ جانباً من الغرفة، فقص عليه قصةً أحبَّها: وقف بلبلٌ غريدٌ صامتاً على طرف غصن أخضر قبيل الغروب؛ فسألته دودةٌ خضراء: "لماذا أنت صامت لا تغني؟".. فلم يجب على سؤالها.. فاقتربت الدودة أكثر وقالت: "حزينٌ أنت على غياب الشمس أيها الصديق الجميل؟!". هز البلبل رأسه.. فقالت: "عليك أن تحزن أكثر لسبب آخر.. لأن صمتك يمنعك عن الغناء ونشر البهجة في أنحاء الغابة"..

اقتربت الدودة أكثر فانحنى الغصن.. واهتز.. كاد البلبل يفقد توازنه.. حرك جناحاً وأمسك الغصن بطرف جناحه الآخر، وصار يتأرجح في الهواء.. ضحكت الدودة ثم قالت للبلبل بعد أن اصفر وجهه: "اِسعد يا صديقي بكل أوقات الحياة.. واسعد الجميع من حولك.. فغداً تشرق الشمس من جديد".

ابتسم منير عندما سمع القصة – ويضيف العامل – لست أدري ما إذا كانت القصة هي التي أثارت ابتسامته أم أنه كان يُجاملني.. المهم في الأمر أنه ابتسم.. كنت أريد أن أشعره بأن هناك من يقف معه في الشدائد ويشعر

بآلامه وأحزانه ويترقب شفاءه وينتظر أن يخرج سليماً معافى بعد أن فقد الثقة بمن يأتي ويذهب، فقد بات مقتنعاً بأن الثوب الأبيض لا يليق ببعض من يرتدون البياض..

وانتظرت طويلاً.. بل طويلاً جداً.. لعل البشرى بنهاية هذا الكابوس تأتي أخيراً! ولعل هناك من يأتي حاملاً الفرحة لهذا الغلام الذي أصيب بمرض غريب عجز الأطباء حياله – أو بالأحرى "تعاجزوا" – فلجأوا إلى التجارب والتشخيصات المتعددة التي ظهر فشلها لاحقاً.. وهو ما أدى إلى نحوله وتحوله إلى ما يشبه الجسد، فأضحى شبيهاً بحال أطفال المجاعات في البلاد التي تحدث فيها الحروب أو الكوارث المختلفة.. لكن هيهات هيهات ما بين الحلم والواقع، وما بين الأماني وتصاريف الزمان..

إن الإحساس بهذا الفتى الجميل الذي لم يكد يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، يجعل كل من يراه يتألم لما أصَابَه منْ مرض انعكس حزناً في قلبه، فيما رفع الأطباء لاحقاً "الرايات البيضاء" أمام هذه الحال، وبعضهم قال: "إن مرضه استثنائي عجز الطب عن فهم أسبابه وعلاجه".

لكنهم على الرغم من ذلك تجاهلوا حاله، بدلاً من البحث عن خفاياها، والتعمق فيها، وسؤال الأطباء الآخرين الأكثر علماً وخبرةً عنها.. وكأن على المريض المضطر أن يرضى بالطبيب أياً كان وكما هو، خاصة في حالة العجز التي أصابت هذا الفتى وجعلته مكبلاً في سريره، غير قادر على التحرك والانتقال إلى مكان آخر.. علماً أنه وفي البداية؛ كان الإسهال المتواصل سبب دخوله المستشفى، لكنه توفي بعد سبعة أشهر لأسباب أخرى، كما ورد في شهادة الوفاة. ومن أهم الأسباب التي ذكرتها تلك الشهادة: "هبوط حاد في الدورة الدموية ونزيف في الشرج".

ولم يأت أحدٌ في ذلك الوقت على ذكر سبب آخر مهم جداً، وهو البكتيريا.. تلك البكتيريا التي استوطنت جسده مدة أكثر من ثلاثة أسابيع، وربما شهراً كاملاً، بسبب أنبوب التغذية الرئيسي الموضوع في الرقبة الذي يسمونه سنترال لاين، والذي لم يتم نزعه ووضعه في مكان آخر، وهذا هو المعمول به في مثل هذه الحال، كما سمعت ذلك لاحقاً من طبيب في مستشفى آخر.. تذرعوا بعدم وجود شريان سليم مُعافى كما أعلن الأطباء، فاستحكمت البكتيريا القاتلة في جسده

النحيل دون أن يحاولوا مجرد محاولة واحدة، وتركوه يعاني آلام البكتيريا دون تدخل سريع ولا بطيء..

وتحول الدم إلى "عصير"، على حد قول طبيب الكلى.. وإني لأعتقد - بحسب علمي السطحي كعامل تنظيفات محدود المعرفة - أن ذلك التدهور الحاد الذي أودى بحياته كان بسبب البكتيريا الفتاكة وميوعة الدم المبالغ فيها معاً، فضلاً عن التشخيصات المتعددة الخاطئة، والإهمال المتكرر والمتعمد، إلى جانب سوء التعامل والتعالي البغيض غير المبرر.. خاصة أنَّ هؤلاء الأطباء شخصوا مرضه عدة مرات بشكل خاطئ، وشحنوا جسده بالأدوية المختلفة التي كانت تضره ولا تنفعه..

كما أنهم لم يبلغوا عن جرح كبير اكتشفه أبوه عندما كان يقوم بغسله وتكفينه قبل الصلاة عليه ودفنه.. والمدهش؛ أنَّ أحد الأطباء وهو أفضل الذين كانوا يتابعون مرض منير وأروعهم على الإطلاق، أحضر للأب، فيما كان ابنه تحت جهاز الإنعاش يودع الحياة والتجربة المرة التي عاشها، أحضر ورقةً تثبت اسم البكتيريا التي نهشت الدم، والتي لم يبذل الأطباء حيالها ما يلزم من جهد، فتركوه يصارعها بجسده المنهك حتى الموت..

لم يكن هم الأب المفجوع الآن وهو يجلس على بلاط غرفة العناية المركزة متلقياً مصيبة الموت معرفة اسم البكتيريا أو نوعها الفتاك، أو نوع الدواء الذي اختاره الأطباء للقضاء عليها - أو ربما عليه - على الرغم من أنهم لم يجففوا نبعها ومصدر وجودها وتكاثرها..

فهل تنفع المعرفة في مثل هذه الحال؟! بل ما فائدة إخبار الأب المفجوع بولده عند وداع روحه لحظة مغادرتها جسده بنوع البكتيريا القاتلة!!! ومع ذلك لم يرد ذكر هذه البكتيريا في شهادة الوفاة.. لكنهم عادوا واعترفوا في التحقيق الطبي بحدوث تسمم بكتيري.. لكن القاضي لم يعر اهتماماً لهذه المسألة.

وذلك الرجل الطيب؛ هو الطبيب الوحيد الذي جاء إلى العناية المركزة - حيث كان الطفل مسجى يودع الحياة - لكي يعزي والده، ويقف معه في تلك اللحظات المؤلمة، فيما امتنع الأطباء الآخرون عن تقديم واجب العزاء..

كانوا يريدون معاقبة الأب على ذنب وحيد اقترفه - وهو الذود بشراسة عن

حياة ابنه – بينما هم كانوا يفكرون بأنفسهم وحماية " الفريق".. وكان عدم تقديم العزاء بغلام صغير توفي وهو تحت رعايتهم – أو هكذا يُفترض – مدة سبعة أشهر متواصلة؛ شهادةً دامغة لا تدحض بأن الثوب الأبيض لا يليق بهم.

والأعجب من ذلك كله، أن قنصل السفارة الفرنسية الذي رحب بأبيه عند باب القنصلية لكي يتسلم منه مباشرة جواز السفر، متخطياً كل القوانين والتعقيدات الإدارية المعتادة بعد رفض المستشفى إعطاءه ما يثبت العجز عن التشخيص والعلاج، مراعاة منه لوضعه الصحي، وحتى من دون معرفة سابقة، لكي يساعده بشكل شخصي في الحصول على تأشيرة تمكنه من دخول دولته بحثاً عن علاج لابنه..

هذا القنصل نفسه اتصل بالأب بعد لحظات من وفاة ابنه، ليعزيه باسم السفير وباسمه وباسم أعضاء السفارة.. فيما أحجم مرتدو اللون الأبيض، مدلو السماعات المرفهة، عن ذلك، إلا طبيبين اثنين فقط حضرا للتعزية! وهما الدكتور عبدالعظيم وطبيب المناعة الدكتور محمد.. وتجاهل موته كل الأطباء الآخرين بلا استثناء.. وكأنه قطة وماتت.. مع علمهم – ربما – بما جرى للمرأة التي عذبت القطة..

ويذكر عامل التنظيفات هنا أنَّ أنبوب التغذية الذي سبب البكتيريا بقي حتى آخر لحظة من عمره القصير متصلاً برقبته، إضافة إلى حقن التمييع التي أمر الدكتور حمد باستمرارها بوصفه كبير الأطباء في مركز الجهاز الهضمي، على الرغم من أنه لم يدخل غرفة مريضه المسؤول عنه إلا مرة واحدة طوال وجوده تحت إشرافه في الوحدة الطبية، منذ نقله من جَناح الباطنية إلى مركز الجهاز الهضمي، وبقائه فيه مدة أربعة أشهر متتالية.. حتى الموت.

علماً أنَّ الأطباء المتابعين كانوا قد قرروا وقف حقن تمييع الدم اليومية لسبب لم يتم كشفه وبقي قيد الكتمان، فطلب كبير الأطباء الدكتور حمد إعادة حقنه بهذه الحقن من جديد، على الرغم من إبلاغه بوقفها من قبل الطبيب المسؤول نفسه الدكتور مرعي الذي لم يشرح له بدوره سبب هذا القرار، ولم يدافع عن قراره ولم يبرر رأيه بتاتاً، بل تلقى التعليمات بكل رحابة صدر، وكأنَّ الأمر ليس له علاقة به، ولا يعنيه من قريب أو بعيد، أو كأن القرار الذي من المفترض أنه اتخذ سابقاً بمعرفته وموافقته لا قيمة له..

فكيف يتخذ قراراً بهذا المستوى من الأهمية ثم يتراجع عنه من دون أن يتمسك به ويدافع عنه؟!! حتى أنه لم يناقشه مجرد مناقشة بسيطة لإقناعه، أو ربما للتبرير والشرح والتعليل.. والأغرب من ذلك أن كبير الأطباء نفسه لم يطلب من جانبه شرحاً يُبين له سبب إيقاف الحقن.. ولو حتى من باب الفضول!!!

وهذا الموقف الغريب شاهده عامل التنظيفات وهو يقف أمام باب غرفة منير، ولم يخبره به أحد من الناس، وعين الإنسان وسمعه دليلان أكيدان، لكنهما قد يكذبان فلا يوصلان الصورة الحقيقية كما هي!!

وأحياناً يُصبحان غير صالحين للتصديق.. ولا سيما في مثل هذا الموقف، وفي النهاية؛ لم يكن مصدقاً ما يراه ويسمعه..

فهل هذا الذي يحدث أمامه أمرٌ واقعي منطقي يقبله العقل؟

أم إنه في كابوس طويل؟ هو حتماً واقعٌ لا يصدق في الحقيقة..

ويضيف العامل: كنت أتابع بغضب المشاهد وهي تترى أمامي، وكنت أريد الصراخ، بل العويل.. إن كنتم لا تسمعون كلامي الذي لم أقله لكم؛ فلماذا لا تسمعون كلام هذه الأم المسكينة؟! لماذا لم تسارعوا إلى نزع الأنبوب الذي يُولد البكتيريا المفترسة الفتاكة التي تنهش جسده أو ما تبقى منه؟!!! وهذا أبسط ما يمكن القيام به منعاً لتفاقم الخطر..

ألا ترون هذه المصيبة التي تتكاثر يوماً بعد يوم بشكل هستيري؟!

كيف تضعون الدم النقي الطاهر الزكي في مكان فاسد ملغم بالجراثيم؟! هذه البكتيريا التي استباحت جسده الغض الطري بكل جرأة ووقاحة، غزت أعضاءه، وباتت تسرح وتسبح وتمرح في شرايينه، بحرية بالغة يحسدها عليها كثيرٌ من شعوب الأرض، ليس فقط في عصرنا الحالي، بل في كل العصور عبر التاريخ.. وكل ذلك بفضلكم أنتم أيها السادة المحترمون!

تريدون أن تعاقبوه وأن تعاقبوا أسرته وكل من يحبه على ما ترونه أنتم ذنباً اقترفته أمه وافتعله أبوه؟! ومنذ متى تعاقب الأم على خفقان قلبها وعطفها وحنانها؟! ومنذ متى يجلد الأب جراء عشقه لولده! ألم يكن الأجدى لذاك الطبيب الذي رفع عقيرته على أمه – بدلاً من عقاقيره – لأنها تسعى للإبقاء على حياة صغيرها، وتجهد وتجاهد لكي تؤمن له سفراً إلى مستشفى أكثر تطوراً وتقدماً – وإخلاصاً – بعد اتصال من

جهة رسمية عُليا، عرضت ذلك لكنها تراجعت بعد فترة بسبب الإيحاء لها أن مرضه ميؤوس منه؟! فمن أوحى لها بذلك.. ولماذا؟!

ألم يكن الأجدى لهذا الطبيب أن يضع نفسه مكان هذه الأم، ويضع ابنه مكان ابنها.. بدلاً من أن يسمعها كلاماً يندى له الجبين، ويتصرف مثل المصارعين على حلبة مصارعة مرتدياً الثوب الأبيض؟ لا أدري كيف سولت له نفسه أن يصرخ على أم مستعدة لتصارع الدنيا من أجل الدفاع عن حياة ابنها، بعد أن توعدها بموته، وهذا بالطبع يخالف قانون ابن سينا وقسم أبقراط، بل إذا شئت كل قوانين الإنسانية، أو ربما أيضاً "غير الإنسانية".

وإذا كانت الوصية بالنساء خيراً، وهن في حال اعتيادية طبيعية، فكيف وهن في مثل هذه الحال البائسة اليائسة؟؟؟!!

ألم يكن من الأوْلى له أن يحرص على الالتزام بواجبه السامي "الكبير"، وأن "يُقاتل" و"يُصارع" على حلبة الطب، والقيام بدوره الحقيقي..

أليس ذلك أفضل من الاستعلاء والتباهي غير المشروع بتاتاً، في مثل هذه الحال.. ولا في غيرها؟!

كأنه كان يريد صدَّ الأم عن التفكير والبحث عن مكان آخر، لكيلا يتم إنقاذ هذا الغلام المسكين، فيخرج للعيان فشله وتقصيره، بعدما أبى حتى حمّل سماعته الطبية ووضعها على صدره وظهره اللذين احتشدت عليهما الكدمات والضَرْبات التي سببها أطباء مبتدئون – ربما – لم يدركوا حاله الخاصة، فتعاملوا معه بشدة، حتى كان صوت صياحه المتألم يتردد في أنحاء المستشفى.

صَرخاتٌ واستغاثةٌ

لعل في صمت
الوالدين عن
الأخطاء المتكررة
دليلاً على المعاناة
الجسيمة

لو كنت مكانهما
لحطمت المستشفى
على رؤوس الجميع مهما
كانت النتائج

يروي عامل
التنظيفات أنه بعد
نحو نصف ساعة من
الصراخ خرج الطبيب
فاشلاً

قلب
الأم ينبض عشقاً
لأطفالها.. هكذا هي
الأم دائماً

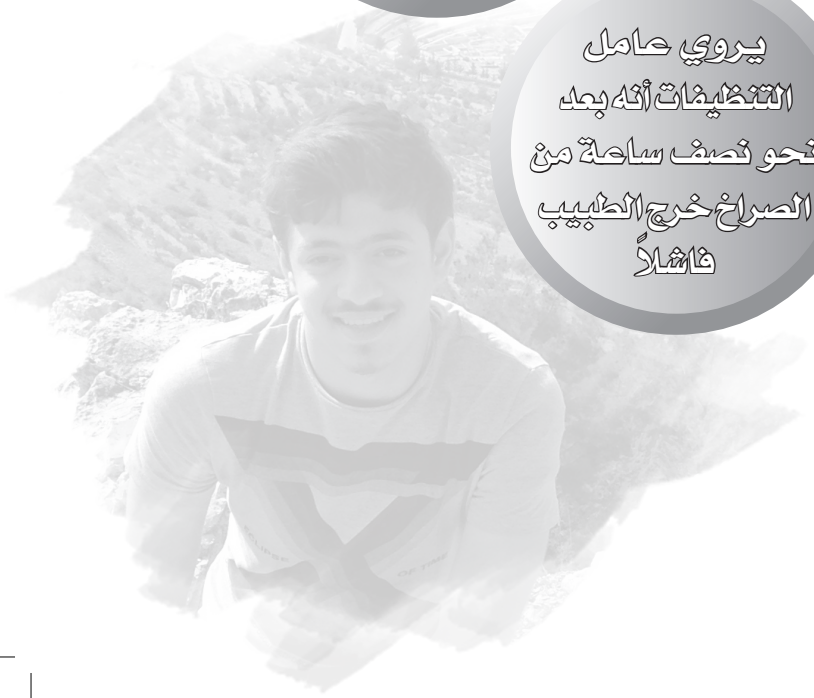

وشبيهٌ بما سبق ذكره؛ حضور طبيب من العناية المركزة إلى غرفته ليضع له أنبوب المحاليل بعدما عجز الممرضون اللطفاء عن ذلك بسبب جفاف الشرايين.. فأغلق الطبيب البابَ عليهما، وصار الغلام الصالح يصيح ويستغيث، والأب والأم في الخارج على مقربة من الباب يسمعان ويبكيان بلا حول ولا قوة.

لم يكن هذا الغلام يستحق أن ينالَ ما لقيه من مناكفة، وأن يلحق به كل هذا الألم المفتعل، لكن بعض الأطباء كما تأكدتُ بنفسي – على حد قول عامل التنظيفات – كانوا يتناقلون كلاماً عنه وعن أهله الحريصين على حياته، وأقصد طبعاً ما هو سلبي، على أساس أنهم مشاغبون، ومثيرون للمشكلات، ويتعاملون مع الأطباء بحدة.. علماً أن كل هذا الكلام مجردٌ من الحقيقة الكاملة، بل قد يكون في كثير منه كلاماً مختلقاً ليس له حظ من حقيقة، لا وجود لها إلا في خيال مختلقها، ربما لأمور نفسية خاصة به وحده، وكان يليق به أكثر لو بحث عن زميل متخصص في الطب النفسي، عوضاً عن رمي الناس بالتهم.

ولعل في صمت الوالدين والأقربين عن الأخطاء المتكررة التي حدثت في الفترة الأولى، ثم تتابعت لاحقاً حتى حانت لحظة الوفاة.. دليلاً على المعاناة الجسيمة والحِمْل الثقيل الذي ناء الوالدان بهما، حتى رأيت الوالد يبكي ولده بصمت، والأم تقف عند سرير موته تدعو الله بكل إيمان وقبول وصبر واحتساب، من دون أن يفقدا اتزانهما ولو للحظة واحدة، كما يحدث مع بعض الأمهات والآباء في مثل هذه الحال. خاصة أن الغلام الصالح الطيب كان ولدهما الأوَّل، ونشأ في أسرته الصغيرة، وتعهده الوالدان بأفضل ما يكون، وكان متفوقاً في دراسته، متميزاً بين أقرانه، بارعاً في هواياته الرياضية والفكرية.. ويستعد منذ فترة للبحث عن جامعة تستهويه، بل كان يبحث وينقب عن أفضل جامعات العالم.

ويروي عامل التنظيفات أنه بعد نحو نصف ساعة تقريباً من الصراخ خرج الطبيب "فاشلاً"، وبكل "براءة" قال إنه لم يتمكن من وضع الأنبوب، مبرراً ذلك بعدم وجود شريان واضح يغرز فيه إبرته، فباءت محاولاته بالفشل، إلا أنه لم يفشل بتحويل جسد الصبي إلى بقع سوداء وزرقاء وحمراء.. ثم غادر على الفور قبل أن يدخل أحدٌ الغرفة.. وكأنه كان ممن سمعوا سابقاً بالأخبار الملفقة بحق أسرة منير، وربما ظن أنه سوف يتلقى طعنات على الآثار المؤسفة التي تركها على جسد المريض، علماً أن الوالدين ظلا صامتين من صدمتهما إزاء ما رأيناه معاً.

أما أنا – والكلام لعامل التنظيفات نفسه – فقد كنت في هذا الموقف ضدهما تماماً، وضد صمتهما.. لو كنت مكانهما لحطمت المستشفى على رؤوس الجميع مهما كانت النتائج.. وكانت الفاجعة الحقيقية الكبرى عندما دخلت وراء الأم والأب والممرضين إلى غرفة منير بعد ذهاب الطبيب مباشرة، فشاهدنا جميعاً تلك الكدمات السوداء والزرقاء.. في كل أنحاء جسده.. وسجل ذلك الحدث مرحلةً أخرى من مراحل انهياره التام، بفضل ما فعله هذا الطبيب من دون أن يحاسبه أحد.

ومما يثير العجب؛ أنه وبعد هذه الحادثة مباشرة تم نقل الصبي الصغير إلى غرفة الأشعة ليقوم طبيب الأشعة بكشف شريان واضح، وخلال بضع دقائق أنهى الطبيب مهمته ببساطة، ووضع إبرة الأنبوب من دون أي عناء يُذكر، بشكل لا يُبرر ما حدث سابقاً، وأدى إلى سقوط الصبي في هذه المحنة الجديدة الإضافية "المختلقة"، المليئة بالكدمات "المفتعلة"، مما حطم معنوياته، وبات سبباً لكثير من الجراح والآلام التي استمرت معه حتى وفاته..

ويتساءل: ألم يجدر بهم أن ينقلوه أولاً إلى غرفة الأشعة، بدلاً من تعريضه لكل هذا الخطر وهذه الكدمات التي رافقته حتى الوفاة؟!!!!!!!!!!!!!

ثم يقول: لتتسع صدوركم – أيها السادة – ولتتواضعوا قليلاً.. أنصتوا بقلوبكم عسى ربي يرحمني ويرحمكم.. أتدعون أن الذي يأكل العصي مثل الذي يعدها؟! أليس المريض يا سادتي أسير فراشه، وعليكم أن تعاملوه كأحسن ما تكون المعاملة؟!

فإذا كانت معاملة أسير الحرب سليم البدن من الواجب أن تكون معاملة إنسانية، بل يستوجب الاحترام كمقاتل، على الرغم من أنه في نظر آسره عدو قاتلٌ مجرمٌ.. فكيف ونحن أمام هذا الغلام الصالح؟؟؟ لكن من يلتفت إلى كلام عامل تنظيفات "جاهل" مثلي، همه الأول تلك الأم الحزينة والولد الجريح؟! كلما رأيتها مرهقةً متعبة أحضرت لها كرسِياً لترتاح عليه قليلاً.. أما التعب فلا يستدعي بالضرورة أن يكون تعباً جسمانياً تقليدياً، فتعب النفس وتعب الروح يتغلبان في كثير من الأحيان على تعب الجوارح والأجساد.

كانت تجذب الكرسي إلى أقرب نقطة متاحة من السرير، وتجلس بتلقائية من دون انتظار، ومن دون أن تعبأ بي، وحتى من دون أن تتلفظ بكلمة "شكراً".. واضحٌ على

وجهها هلع الأم، وانشغالها بمشاعرها المشدودة نحو هذا الولد النبيل. كنت أتفهم مشاعرها ولا أحزن، فهي بالتأكيد ليست على يرام.

قلب الأم ينبض عشقاً لأطفالها...

هكذا هي الأم دائماً؛ تنسى نفسها، وتهمل كل شيء إذا ما أصيبت بجرح في كبد من أكبادها، وجراح الأكباد أشد إيلاماً من أي جراح تصيب الإنسان.. وكم من أم اشتعل رأسها شيباً من شدة حزنها على مُصاب ألمَّ بولد من أولادها.

إنَّ الحكاية التي بدأت عند باب المستشفى وغرفة الطوارئ في ليلة رأس السنة الميلادية، لم يكن أحدٌ يعرف أنها حكايةٌ ستطول كثيراً.. إنها حكايةٌ نسيجها صبرٌ وألم وتفاؤل، وختامها نهايةٌ حزينة مأساوية.. والحكايات غالباً ما تبقى في الذاكرة، وقد تتشوه في العقول المريضة، وتنقل على غير حقيقتها، لكنها أبداً تبقى في القلوب السليمة الصحيحة مثل النقش في الصخر.

ويحكي عامل التنظيفات في شهادته التي لم يقرأها القاضي: مما لا أنساه من أيام طفولتي الأولى؛ أنه كان عندنا جارة عجوز تسكن قريباً مكن بيتنا، وكانت تحبني كثيراً، وكانت تدلعني أكثر من جدتي، فقد كانت جدتي مشغولةً معظم الوقت مع مرضاها، ولا تتأخر عن مساعدة أحد منهم مهما كانت حاله، وفي أي وقت من نهار أو ليل، وإنْ كان الوقت متأخراً أو قبل مطلع الفجر..

وعرفتُ على يدي جارتنا – رحمها الله – معنى الدلع الزائد الذي افتقدته لوفاة أمي المبكرة، ولانشغال أبي في عمله، وجدتي مع مرضاها، ولعلها كانت ترأف بي وترحم يُتْمي وحُزني ووَحْدتي.. اكتشفت عند موتها – وأنا ما زلت طفلاً صغيراً – آلام الفقد، خاصة أنني لا أذكر أمي جيداً – رحمها الله – التي توفيت وأنا صغيرٌ جداً..

ورأيتُ عند موت جارتنا العجوز لحظات الوداع المؤلمة، من كل الناس الذين كانوا يحبونها، بعد أن فاجأها الموت سريعاً، دون سابق إنذار.. وكنتُ أعتقد – مخطئاً – أن الموتَ لا يأتي بغتةً، وإنما يُرسل إشارات تسبق خطواته.. فهي على الرغم من سنها المتقدمة؛ فإنها كانتْ تتمتعُ بصحة يحسدها عليها الشباب، لكن الموت لا يفرق بين الشباب والعجائز..

الموت هو الموت.. لا أبيض ولا أسود.. لا يميز بين غني أو فقير، ولا بين طويل أو قصير ولا سمين أو نحيل.. يأتي المواليد في المهد، كما يأتي الصبايا والشباب

في المجد.. وقد يتأخر حتى يبلغ الإنسان من الكِبر عتياً، أو قد يتركه حتى يبلغ مرحلةً مديدة من العمر، لا يعود بعدها يعلم من بعد علم شيئاً.. وقد تأثرت كثيراً عند موتها، فقد كان أول موت يُصادفني وجهاً لوجه، حتى كبرت قليلاً، ثم عاد ملكُ الموتِ ليُخرجَ روحَ أبي من الحياة فتسلك طريقها إلى الجنة بإذن اللّه، كما أخرج روحَ جارتنا.. وروح أمي من قبل.

كنت أعيش في قرية بعيدة، بيتي الصغير قريبٌ من الينبوع.. أسمع الخرير في كل أوقاتي.. مدرستي من النهر قريبة، وطريقي دائماً قرب الماء.. قريتي الصغيرة كأنها جزيرة.. الماء من حولها سوارٌ في معصم.. يخرج من كل حجر.. أشرب الماء كأنه دواء.. لكن الدواء طعمه مر.. أما دوائي فعذبٌ فرات.

وفي الحقيقة؛ عندما قررت السفر لم أكن أتوقع العمل في هذا المستشفى، وعلى الرغم من أنني لا أحب المستشفيات التي لا بد أن يأتي إليها ملاك الموت كثيراً، فإني كنت أمني النفسَ بِلقاء أطباء مثل هذا الأب وابنه الطبيبين في القصة، في الوقت الذي كنتُ أسعى فيه للهرب من ذكريات الموت والألم، فحاولت جاهداً أنْ لا أسمع ولا أرى..

لكنَّ الواقع كان أقوى من تلك المحاولات، فهو يدهش المبصر كما يدهش السامع.. وكنت أقضي الوقت في التنظيف، من دون أنْ أنظر إلى المرضى، مبتعداً عنهم قدر الإمكان، كي لا أسمعَ أنينَهم، ولا أرى دموعهم..

ولم أكن أعتقد – بعد أن جذبني حب هذا الفتى – أنني سأشهد من جديد آلام الموت سريعاً، وأنْ يحدث أمامي ما سيغير مسار حياتي، ويقلب كل أفكاري، ويعيدني إلى الوراء سنوات عديدة، بقلب إنسان آخر يرتدي ثوب الحزن المزمن، لا يحمل في جعبته إلا الذكريات المؤلمة.. وحكاية مرض طويل، بدأ في ليلة رأس السنة، ولم ينته إلا بعد سبعة أشهر بالتمام والكمال، عند المكان الأخير الذي يصل إليه جسد الإنسان في ختام حياته الدنيا، حين تنطلق روحه إلى خالقها لتبدأ رحلة حياة جديدة عليا، ملؤها الفرح والسعادة والحبور، بعد حياة عامرة بالإيمان..

فكيف إذا كانَ بطلُ الحكايةِ طِفلاً لم يكد يبلغ الحلم؟!!!

قلبُ الأم قلبُ أمة

في مقابل
إحساس الأم
الصادق لهجةٌ باردةٌ
في جو بارد

هل
هناك قلبٌ
أكثر ارتياعاً من قلب
أم مرهفة تخشى مرضاً
أضناها بعد أن أصاب
كبدها؟!

أُنظر إلى
قلب الأم الذي
يتفطر أمامك طبيبه
عوضاً عن أن تزيده
تقطيعاً

نبرةُ
صوت قلقة
خافتة حزينة..
لأم ملهوفة على
ولدها

عجباً لقلب
الأم! إن قلبها
كله خيرٌ

نبرةُ الحزنِ لم تنقطع.. والذكريات الحزينة كانت تعيدني من جديد إلى رأس السنة الميلادية.. إلى البداية.. كما رواها عامل التنظيفات نفسه:

"السلام عليكم يا دكتور".

نبرةُ صوت قلقة خافتة حزينة.. لأم ملهوفة على ولدها.. نبرةٌ حزينة رنانةٌ لم تنقطع؛ من البداية حتى النهاية.. وهل هناك قلبٌ أكثر ارتياعاً من قلب أم مرهفة، تخشى مرضاً أضناها بعد أن أصاب كبدها؟!

"وعليكم السلام.. خيرٌ إن شاء الله"..

في مقابل إحساس الأم الصادق لهجةٌ باردةٌ في جو بارد.. في مكان صاخب مليء بالضجيج.

"ابني يا دكتور يشعر بألم في بطنه، ولديه إسهال مستمر منذ مدة".

تواصل الأم حديثها بنبرة قلقة، تحاول أن تشرح لطبيب المعاينة الأولية حال ابنها.. لكنه انشغل عنها بهاتفه النقال، ثم يجيبها وكأنه رجل مباحث اكتشف للتو جريمة، يريد أن يلصقها بأي متهم محتمل: "ألمٌ في بطنه؟!"..

يرسم على شفتيه ابتسامة باهتة:

"لا تبدو عليه آثار الألم.. أكلما شعرتم بدوار خفيف أو بمغص بسيط تأتون إلى المستشفى؟!".

تبقى الأم صامته.. فيقول: "ألمٌ أركم هنا قبل أيام؟؟ هل يجدر بي أن أخبركم أن المستشفى ليس مكاناً لتمضية الوقت؟!".

"هل تقصد أننا نأتي لنهدر وقتك ووقتنا.. وأننا جئنا إلى هنا لكي نتسلى؟!!! ربما اختلطت عليك الأمور بيننا وبين غيرنا!!! يا أخي؛ الولد لا يستطيع الوقوف على قدميه بسهولة، ولا يمكنه المشي جيداً".

تغيرت نبرة الأم قليلاً.. لم تكن النبرة عالية، غير أنها كانت مشحونة بالتحسر على النفس بسبب هذا الاستقبال الجاف، فيما كان داخلها يتألم.. كان ألماً حقيقياً، لا مجرد تعاطف، بل هو تماهي أم مع آلام ولدها.. سبحان ربي، وكأنني أشعر بهذا القلب الرقيق يخفق، ليس في صدرها، بل في صدر ابنها!

عجباً لقلب الأم! إن قلبها كله خيرٌ.. إنّ فرح أطفالها نبض بفرح، وإن حزنوا نبض بحزن.. وإن بكوا نبض ببكاء.. يا لها من مخلوق ليس كسائر البشر.. ألم يقل الله

تعالى عنها: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ، أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. وقد ذكر الله تعالى الأم في وهن وفي تعب وحمل ورضاعة.. ولم يذكر للأب ما يماثل من أفضال، لكنه ألحقه بالأم.. سبحانه!! ألم يوصِ رسول الله ﷺ بالأم ثلاثاً، ثم أوصى من بعدها بالأب مرةً واحدة؟

فكر عامل التنظيفات بكل ذلك سريعاً، كوميضِ البرْق، فيما كان يقوم في هذه الأثناء بمهمته المكلف بها في غرفة طبيب المعاينة الأولية، وهي مرحلة أولى تسبق دخول المريض إلى غرفة الطوارئ.. وتحدد له الغرفة التالية التي يتوجه إليها.. ولما تغيرت نبرة الحديث ازداد اهتمام عامل التنظيفات بأمر هذا الصبي الذي كان يراقب بعينيه المجهدتين الحوار الدائر بين الأم والطبيب.

"ألم نركم هنا قبل أيام؟!".

يبدو الطبيب "مستهجناً" عودة الصبي، دون أن يعبر بصراحة تامة عما يفكر في نفسه.. اكتفى بالتلميح من دون التصريح.. لم يفصح عن السبب، ولماذا قرر حال الصبي من دون أن يتكرم بفحصه، أو حتى أن يضع سماعته على صدره، وكأنه استثقل رفعها من على كتفيه.

"نعم، صحيح.. ما شاء الله عليك يا دكتور، ذاكرتك قوية.. عرفتنا من بين كل المرضى.. واليوم أيضاً ما زال مريضاً، بل تفاقم مرضه أكثر من السابق.. وحاله تسوء يوماً بعد يوم".

تنَحنحَ طبيبُ الطوارئ العام.. رفع رأسَه.. ثم رمَى الأم بنظرات مشككة بما قالته.. التفتَ نحوَ ابنِها قبلَ أنْ يَختم ورقة الدخول إلى طبيب آخر، وألقاها على الطاولة أمام الأم، ببرود ودون مبالاة، ومعها الرقم المتسلسل، راسماً على ملامح وجهه عبارات مبهمة، تدل في آنٍ معاً على أنه غير مصدق لكلامها وأن الأمر لا يهمه.. المشهد كان مؤلماً، ربما أكثر من المرض نفسه..

ليسَ المطلوبُ من الطبيب أنْ يكونَ مرشداً سياحياً في مستشفى عمومي، ولا حتى في مستشفى استثماري.. أو أن يكون مرفهاً شخصياً.. بالنسبة لي - كعامل تنظيفات - على الرغم من أنه ليس عندي غير مكنسة التنظيف والعصا الطويلة وعملي المرهق، فإنني أحاول دائماً رسم الابتسامة على شفتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.. ألم نتعلم ونحفظ في المدرسة أن الابتسامة صدقة؟!

صحيحٌ أن جدتي لم تكنْ حاصلة على شهادة معتمدة في الطب، ولم تدرس في جامعة.. لكنها على الرغم من ذلك كله لم تقم يوماً بعلاج مريض بزيتها المضيء إلا وكانت الابتسامة تطفو من قلبها إلى شفتيها وعينيها وكل ملامحها..

كنت على الدوام أراها مبتسمة كطفل صغير سعيد، حتى وإن كانت مرهقةً متعبة متألمة.. ولاسيما عند مرض أبي!! قد لا يكون زيت جدتي في الحقيقة الدواء الذي يحتاجه المريض ليداوي مرضه، لكن ابتسامتها كانت تشفي بكل تأكيد، بما تحتويه من دعم نفسي وإحساس صادق مرهف.. كانت تقوم بعملها برضا وطيب نفس..

وعلى الرغم من أنها كانت الطبيبة الوحيدة في قريتي النائية، ولم يكن هناك من ينازعها وينافسها في عملها، فإنها لم تكن تحتاج لأي دعاية أو مجاملة، لكن الحقيقة تقولُ من دون أدنى شك؛ إن هذا الطبيب نفسه لو كان في مستشفى استثماري ما كان ليتكلم بنفس الطريقة التي تكلم بها مع هذه الأم.. ولن تكون نظراته "المستهزئة" و"اللامبالية".. هي نفس النظرات التي رمقها بها وهو يلقي الورقة على الطاولة؟! بل كان سيقف أمامها بكل احترام وتقدير، باحثاً عن مئة مرض ومرض.. ويعرض عليها خدمات العيادات الخاصة بكل تفاصيلها المملة، ما دامت البطاقة المصرفية عامرة بما لذ وطاب، مسرفاً بالثناء على الأم التي قامت بنقل ابنها "المسكين" إلى المستشفى بهذه السرعة..

وسوف يمتد المديح وصولاً إلى الأب أيضاً.. بل إلى الابن المريض نفسه، وحتى سائق سيارة الأجرة إن وجد!!! وسيرسم بعد ذلك الابتسامات العريضات حتى يصل بطرفي فمه إلى أقصى ما يمكن.. وقد يتراجع خطوة إلى الخلف مع اتساع ابتسامته، ويجزل في التعاطف والرأفة والتألم لحال الفتى.. وربما بما يفوق مشاعر الأم نفسها، وفوقها حال الأب..

ويضيف: لم أكن أحسب أن الطبيب بشرٌ مثل سائر الناس.. كنتُ أظن أن الأطباء من طينة مختلفة.. فكيف يستهزئ بقلب أم ومشاعر أب ومرض طفل؟! وكيف تتحول مهنته السامية إلى مجرد مهنة ووظيفة، يموت معها القلب، وتفتر الهمة.. فتنقلب المقاييس؟!

أردتُ أن أعترض وأنا أستمع إلى هذا الكلام.. أن أصيح به: تواضع يا سيدي.. اُنظر إلى قلب الأم الذي يتفطر أمامك.. طببه عوضاً عن أن تزيده تقطيعاً.. هدئ

من روعك يا سيدي، وقم بعملك ولا تتذمر ولا تتكبر.. فقد تدور الدوائر يوماً وتكون في مكانها.. أو في مكان هذا الفتى.. ويا أنتم.. أيكم المحصن من "هذا"؟!!!!!! بل أيكم ينجو من المرض.. وعذابات المرض.. وأوجاع المرض!!!

يحني الأب رأسه متفرساً في بلاط المستشفى.. تأمل شكله.. أطال النظر فيه وثبته عليه.. كأنه يريد أن يحصي عدد البلاط، ويدقق النظر في درجات ألوانه.. عجباً من هذا الزمان؛ شخصٌ مثله من المفترض أن يكون – بصفته الطبية – أكثر رأفة من ملائكة الرحمة كما يصفونهم.. فهو مسؤول عن أمراض البسطاء وأوجاعهم.. لكنه يصدر الأحكام المسبقة بغير جهد ولا تحقيق.. حقاً؛ إن الثوب الأبيض لا يليق به.

كان الأب في هذه الأثناء يبدو وكأنه يريدُ أنْ يَرفس هذا الرجل المتعالي بقدمه رفسة ثور هائج.. لكنه صبر، فليس باليد حيلة، ثم تمتم:

"الصبر.. الصبر مفتاح الفرج..".

"الحمد لله على كل حال.. الحمد لله.. نرجو من الله الآن أن نصل لطبيب الطوارئ المتخصص بسرعة.. أمامنا طابورٌ طويلٌ.. اِجلس يا حبيبي لترتاح.. لا ترهق نفسك بالوقوف الطويل منتظراً".

يستند منير على ساعد أبيه، يمشي الهُوَيْنى باتجاه أقرب كرسي يراه، حيث ينتظر عددٌ من المرضى..

ينظرون إلى تسلسل الأرقام وهي تتقلب على شاشة إلكترونية صغيرة أمامهم.. أعينهم مشدودة إليها، يرتقبون دورهم.. كم هو صعبٌ الانتظار في مثل هذا الوضع! وكم هو سيءٌ التنظيم المتحكم بآلام الناس! يقولون إن الأولوية لكبار السن والمعوقين.. لماذا لا تكون الأولوية أيضاً للموجعين المتألمين؟!!

أحدهم يعلو صوته بالصراخ.. شخصٌ في الداخل يعبر عن غضبه لأمر ما.. نسمع كلاماً غير مفهوم من دون أن نرى صاحبه..

الضجيج في قاعة الانتظار يختفي فجأةً، ويسود السكون في الأجواء.. الناس شغوفون بمشاكل الآخرين.. ينسون همومهم عندما تشغل نفوسهم بهموم الغير.. يفتح الأب جهاز الهاتف وكأنه في عالم آخر.. يتلو بعض آيات من القرآن الكريم بصوت منخفض..

استقبل رسالة تستفسر عن حالة منير، يكتب ويتمتم:

"الحمد لله.. الحمد لله.. الولد بخير لا تقلقوا.. نحن الآن ننتظر دورنا عند طبيب الطوارئ.. سنتصل بكم لاحقاً".

ينظر إلى الأم وبينهما منير:

"هل اتصلت بالبيت للاطمئنان على ليلى ومحمد؟"..

"سأتصل حالاً.. وإن شاء الله لن نتأخر..".

"أوصلناهما وتركناهما عند المصعد من دون أن نطمئن عليهما"..

يتوجه الأب بنظره إلى وجوه الناس.. أوجاعٌ كثيرةٌ.. يتنهد تنهيدةً عميقةً يهمس في نفسه:

"يا ترى لماذا يختار الله هؤلاء البسطاء ليصابوا بالمرض؟ ولماذا أساساً يكون المرض والوجع؟ الحمد لله، هذه حكمته، له الشكر على كل حال.. الحياة هناك أفضل، لا مرضى ولا أطباء ولا مستشفيات".

يسمعون صياحاً: "ابتعدوا.. ابتعدوا.. أفسحوا الطريق"..

ثم يدخل من الباب الواسع عددٌ من الرجال الأشداء مسرعين، يجرون سريراً متنقلاً عليه شابٌ يسيل الدم من كتفه، يبدو أنه في العشرينيات من عمره، ينقلونه مباشرة إلى طوارئ الجراحة.

"يا رب لطفك.. يا رب احفظنا".

تتردد الأصوات بالدعاء والرجاء.. تتبادل الأم مع الأب نظرات الحزن، وابتسامات الأسى الدامع بسخاء، فيما منير مشغولٌ عن الجميع بآلامه..

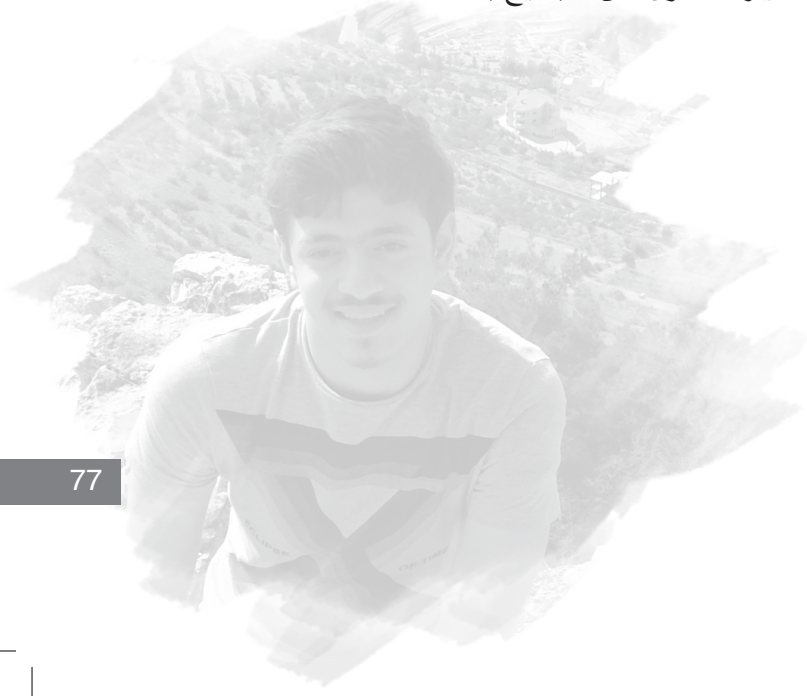

الاغتراب حالةٌ مأساوية

أصبح الألم
طبيعياً معتاداً
وربما بات تعاطف
بعضهم مع المرضى
شكلياً

يا لها
من تعقيدات.. من
طبيب إلى طبيب..
إلى آخر

مهنة
الطب دقيقة
وخطيرة والشرفاء
من أصحاب هذه المهنة
يراقبون الله في
عملهم

كثيرٌ من المرضى يجلسون فرادى.. متقاربين ومتباعدين.. ملامحهم مختلفة.. بعضهم من شرق آسيا.. وآخرون من شمال أفريقيا أو من وسطها، أو من الشرق الأوسط.. ومنهم من يختلط أمرهم على الناظر إليهم.. لوحدهم يتألمون.. يشد بعضهم بطنه من الألم.. وآخر يُمسك يده المتألمة بيده الأخرى السليمة.. وثالث.. ورابع.. وخامس.. حلقة مفرغة لا تنتهي.. حالاتٌ مرضية مختلفةٌ.. يجمعهم المرض والوحدة: لا أنيس ولا رفيق..

لا يوجد ما هو أصعب من أن تكون وحدك في بلد غريب.. وبخاصة عند الحاجة لقريب تربط بينك وبينه علاقة دم، فلا أخٌ يحمل همَّك، ولا أختٌ تُمسِك بيدك، ولا ابن عم يمسح دمعتك.. الاغتراب حالةٌ مأساوية قاسية، لا فرق إن ذهبت شرقاً أو غرباً، إلى بلد عربي أو أجنبي.. والغربة كما يقولون "كربة"، مهما تزيت بألبسة مزركشة، وتجملت بأصباغ ومساحيقَ ملونة.

"أنا أفضل دائماً بلادنا العربية، فكيفما اتجهنا نسمع نداء المؤذن ونشاهد منارات المساجد.. في الغرب المساجد قليلة، بل نادرة.. وعلينا قطع مسافات طويلة لنصل إلى أقرب مسجد.. هنا نسمع المؤذن في كل مكان توجهنا إليه".

كان الأب يردد ذلك.. ولم يحسب حساب المرض والعلاج:

"إذا لم يكن من الغربة بد، فإني أختار بلادي العربية من دون شك".

كانت أمامه فرصٌ أخرى.. لكنه "القدر المحتوم"، كما سمعته يقول لابنه.. يريد أن "يسليه" كي يمر الوقت بسرعة.

يقترب رقم منير.. عليه أولاً أن يدخل غرفةً جانبيةً ليجري فحص الحرارة والضغط والدم والسكر..

"تبدو الأمور تسير على أحسن ما يرام.. ها هي الأرقام تسير بشكل مُتسارع".

يقول الأب ذلك للأم معبراً عن إعجاب يخفي كثيراً من الريبة والرهبة.. أما الأم فلم تكن مطمئنة على الإطلاق.. تشعر أنها تتجه نحو موقف خطير ستندم عليه لاحقاً.. هو ابنها البكر، بينه وبين أخته نحو سنتين، وأما أخوه الصغير فأصغر منه بثماني سنوات..

"قال لي الدكتور مصطفى لا تُرسل ابنك للعلاج في الخارج.. هنا العلاج بالمجان، وقد أنفقت أموالاً كثيرة.. وقوله الأخير حق.. حتى إننا لم نعد نملك ما

يكفي للسفر.. أخبرني أن الفحوصات هنا جيدة.. فلماذا لا نُحاول خاصة أنني أثق بالدكتور مصطفى كثيراً".

هذا ما ردده الأب وكأنه يريدُ أنْ يُقنِع نفسه، مُستذكراً أمام الأم آخر سفرة لابنه إلى الخارج، وإنفاقه الكثير من المال، دون تحقيق أي نتيجة تذكر..

"لكن حالته لم تكن كما هي الآن.. كان يبدو طبيعياً إلى حد كبير".

الأم تعترض فيما كان منير في هذه الأثناء جالساً بصمت في مقعده منتظراً، إما منصتاً وإما متصنعاً للإنصات، لكن فكره منشغل باستعادة بعض من ذكرياته الجميلة.. بدا أنه ليس من النوع الذي يتكلم كثيراً، حتى وهو بصحة جيدة.. يظهر من ملامحه أنه مقلٌ بالكلام.. يتحدث كما يقولون بِـ"القطارة"، لكنه عندما يتحدث فإنه ينطق بما يؤشر إلى فطنته..

الأم: "والله يا أبو منير.. ابنك يفهم أكثر من هؤلاء الأطباء".

الأب يقفز من مكانه: "كل أم تقول عن ابنها مثل قولك.. هيا بسرعة.. لقد وصل رقمنا".

يقوم منير من مقعده بهدوء واحتراس بالغيْن، متوجهاً نحو غرفة طبيب الفحص الأولي..

الأم: "يا لها من تعقيدات.. من طبيب إلى طبيب إلى آخر.. الله يسهل أمرك يا ابني يا منير".

الأب يتلو قول الله تعالى: ﴿وإذا مَرضتُ فهوَ يَشفين﴾.

الأم: "صَدقَ اللّه العَظيم".

يدخلُ منير وحده غرفة الطبيب بحسب التعليمات على مدخل الغرفة.. الباب يظل مفتوحاً بشكل دائم..

"يبدو أن هذا الطبيب طيب القلب، فهو يتعامل مع منير بلطف بالغ.. أرجو أن ينتهي الأمر بسرعة".

"صبراً يا أم منير صبراً.. يقولون إن كل المخاوف تجلب الهم إلا الخوف من الله.. ومهنة الطب دقيقة وخطيرة، والشرفاء من أصحاب هذه المهنة يراقبون الله في عملهم.. والناس مختلفون.. هم يتعبون كثيراً.. الله يعطيهم العافية على ما يبذلون من جهد".

"صحيح.. الله يكون في عونهم".

دقائق قليلة ويخرج منير من غرفة الفحص الأولي ومعه النتيجة:

"يجب علينا الانتظار من جديد إلى حين الدخول إلى غرفة الطبيب المتخصص".

أشاحت الأم بنظرها عنه، تخفي عن ولدها بريق عينيها الحزينتين الدامعتين.. الأب يعلمها بعد أن نظرت إليه معاتبة أنه ليس بمقدوره الاعتراض:

"هذه هي الإجراءات المتبعة".

"قد يكون هناك قلة ممن لا يشعرون بحزن المريض وأوجاعه وقلة صبره.. هم معذورون، سيشعرون ويتعاطفون مع هذا أم مع ذاك!.. وكل من في هذا المكان الرحب الواسع حشدٌ من المرضى يتألمون ويئنون.. لا شك أنهم اعتادوا على هذا، فأصبح الألم عندهم أمراً طبيعياً معتاداً، وربما بات تعاطف بعضهم مع المرضى شكلياً".

الناس تشعر أن رفاهية الطبيب مرتبطة بكثرة المرضى – أو هكذا يظن بعضهم – وهناك من يقول ذلك ويخلط الجد بالهزل، لكن لا بد من الاعتراف والإقرار بأن صحة الكثير من الناس وحياتهم مرتبطةٌ – بعد إرادة الله تعالى – بجهد الطبيب الذي يبذله نحوهم.

"يا لهذا المرض!! لولا أنني أعلم أن المرض من الله لشتمته.. لكن علينا أن نقول الحمد لله في السراء والضراء.. وأن نتذكر كثيراً من الأحاديث النبوية التي تبشر بأن المرض يزكي النفس ويطهرها من المعاصي".

"ماذا تقول يا أبو منير!! عن أي معاص تتكلم؟!! ابنك لم يكد يبلغ الحلم بعد، وكانَ قمة في الأخلاق.. يبدو أنك خرفت".

"نعم.. لقد خرفت منذ أن قررت العيش في الغربة.. الغربة تبعد الإنسان عن كل الأشياء الجميلة والمحببة إلى النفس، تنزعك بداية من الأب والأم، وتبعدك عنهما.. ويأتي بعدهما كل الغوالي".

"لهذا السبب كنت كلما فكر منير بأنه سيسافر إلى الوطن عندما ينهي المدرسة ليكمل الدراسة، أفكر بأن أسافر معه واضعاً حداً للغربة"..

"كما أنني كنت أفكر بأن منير بعد سنوات قليلة عندما ينهي الجامعة سيفقد الإقامة في البلد التي نقيم فيها بعيداً عن الوطن، أو علينا أن نجد كفيلاً ينقل

عليه إقامته.. فيا لها من غربة سأورثه إياها.. بدلاً من أن أورثه وطناً يسعد فيه سأورثه غربة تبعده عن أهله وخلانه وتجعله أسير جواز السفر".

"أخيراً حان دورنا.. هيا بنا يا منير.. هيا ندخل إلى الطبيب بسرعة".

لم تكن الأم تدرك أن هذا الطبيب ليس هو الطبيب الأخير، فما أن قام بفحصه سريعاً حتى قال لها:

"للأسف.. جميع الأسرة في غرفة الطوارئ مشغولة، عليكم الانتظار فترةً من الوقت حتى يفرغ سرير، هناك قبلكم مرضى عدة ينتظرون، لا بد من الانتظار، أو تذهبون إلى البيت ثم تعودون في وقت آخر.. اليوم هناك حالاتٌ كثيرةٌ، ربما بسبب الاحتفال برأس السنة".

قال الطبيب ذلك وهو يضحك ممازحاً، وكأنها فرصةٌ للترفيه عن نفسه، خاصةً أنَّه يشعر بخفة ظل، وكان كمن يرقص على الجراح..

يضرب الأب بلاط الغرفة بحذائه كثور يحمل على ظهره قوارير من فخار.. فما الذي يستطيع أن يفعله غير ذلك؟! الانتظار لم يكن سبب الغضب المكتوم المغلف بابتسامة ووجه بشوش، لكنّ طريقة الكلام التي حرص عليها الطبيب.

"صبراً يا أم منير صبراً.. ما معنى أن نذهب ونعود من جديد بعد فترة؟ هل أتينا لنشاهد فيلماً سينمائياً لبطل مشهور، فوجدنا أن العرض قد بدأ والمقاعد كلها محجوزة، ما هذا الكلام!!! يريدنا أن نذهب ثم نعود عندما يبدأ العرض القادم! مهزلة".

يلتفت نحو ولده منير متظاهراً بالهدوء والرضا:

"بماذا تشعر الآن؟".

يبدي منير سعادةً واهية، وعلى شفتيه ترتسم ابتسامةٌ ساخرة، فهو كما يبدو من البداية أنه لم يكن راغباً بالمجيء إلى المستشفى:

"الحمد لله.. أنا في حال أفضل.. هيا إلى البيت".

ويقول عامل التنظيفات: مَنْ مِنَ الناس يحب المرض ويهوى المستشفيات؟! من ناحيتي أتمنى أن يشفى الناس جميعاً، وأن تصبح المستشفيات خاوية على عروشها لا مريض ولا طبيب، فتكسد مهنة الطب، عندها لن نرى طبيباً يدلي على كتفيه سماعته الطبية متبختراً متباهياً، ولن نسمعه حينما يفشل في علاج مريض – مخطئاً

بالتشخيص أو مهملاً بالمتابعة – يقول معللًا فشله: "لم يستجب للعلاج". كنتُ أتمنى أن أتعثر يوماً بطبيب يعترف بخطئه.. أن يقول أخطأت فسامحني أيها المريض الذي أسأت إليك وأنت في مرضك! أن يعترف بإهماله عندما يهمل.. أن يعترف بشهوته للمال وللشهرة.. لكن ما هذه الأمنيات السخيفة!!!!

المريض في سجل الطبيب المتعالي شيء لا قيمة له.. مجرد مريض يدفع فاتورة العلاج.. وحتى وإنْ كان العلاج بلا "علاج".. بل وحتى وإن كان العلاج مسبباً لمضاعفات، أو حتى مؤدياً إلى "الموت".. وقد سمعتُ يوماً طبيباً متقدماً في السن يتحدث عن تجاربه قائلاً:

"هل تظن أن الأطباء يعرفون حقيقة ما يجري داخل جسم المريض، فكم من مرضى عاينتهم، وأعطيتهم دواء ثم شفوا لوحدهم، لا أظن أن الدواء هو الذي شفاهم، وما أدراني أساساً ما الذي في داخلهم، المريض يقول لي بطني يوجعني فأعطيه دواءً فيشفى، ويكون قد شفي وحده وليس بسبب الدواء"..

وما أكثر أمثاله.. باعد الله بيننا وبينهم.. حتى عند إجراء الفحص والأشعة من بينهم من ليس عنده جلدٌ لكي يقرأ تفاصيل ما كتب من نتائج، وغالباً لا يطلع على النتيجة بنفسه، بل يطلب سماعها باختصار من غيره.. وكثيراً ما كنت أسمع النتائج بشكل خاطئ.. الله يرحمنا ويبعدنا عن المرض وعن الأطباء.. وخاصةً عندما نرى بعضهم يتفاخرون ويتعالون.. ولطالما تذكرت شعراً جميلاً فيه حكمٌ جليلة يقول:

يا مَنْ تباعدَ عن مَكارم خلقه
ليسَ التفاخرُ بالعلومِ الزاخِرة
مَنْ لمْ يهذب علمه أخلاقه
لمْ ينتفِعْ بعلومِه في الآخِرة

أما أمنية منير الأخيرة فلم تتحقق.. ويا ليتها تحققت.. ربما لو تحققت لكانت الريح سارت كما تشتهي السفن.. لكن الرياح قد تهب في مسيرتها كما تشتهي هي لا كما يشتهي الربان..

وانتظر الأبوان طويلاً.. ومعهما انتظر صغيرهما.. والمنتظر يشعر بأن الوقت يمر ببطء شديد للغاية مثل بطء السلحفاة.. لم يكن لديهما خيار آخر.. لم يخرجا من المستشفى في الحال بل بعد شهور.. ولم يكن المصير كما تمنى منير، إذ خرج بعد سبعة أشهر كاملة نحو مكان لم يكن في حُسبانه، ولم يكن يتمناه، أقله في فترة قريبة مقبلة.. فقد حمل الأب والأم ابنهما إلى مثوى جسده الأخير..

كنت في تلك اللحظات – والكلام لعامل التنظيفات – أراقبهم وأنا أنظف أرض غرفة الطوارئ وأتمنى أن لا ينتظروا.. أنا أعرفهم منذ مدة قصيرة.. والإنسان عندما يصبح موظفاً تقليدياً، في العقل والمنطق والتجربة، تتغير أمورٌ كثيرةٌ في نفسه، وخاصة عندما يركز نظره واهتمامه نحو ناحية واحدة فقط، وهذا كلامٌ لا يقتصر على الطبيب وحده فقط؛ بل على كل موظف غير أمين، حيث يصبح عمله مجرد عمل يريد أن يؤديه وينهيه بأي شكل من الأشكال، ولو كان بغير إتقان، يكون في ظاهره السلامة وفي باطنه العذاب، ناسياً أو متناسياً، أو ربما جاهلاً الحديث الشريف: "إن اللّه يحب إذا عملَ أحدُكم عَملاً أنْ يتقنَه".

وفي تلك اللحظات المؤلمات وددت أن أصرخ بأعلى صوتي:

"لا تدعا ابنكما هنا.. جحيمُ البيت ولا جنة المستشفى"...

لكن هذا لم يحدث، وحبذا لو فعلت، لربما توقف الزمن ولم تستمر هذه المأساة في نزيفها، ولم تبلغ ذروتها، ولم تسجل تفاصيلها المفجعة.. ويا ليتني فعلت.. لكانَ أفضل لي مليون مرة منْ أن أصبحَ شاهداً وراوياً لهذه الحكاية، لتكون هي أيضاً من حكايات الزمن الغريبة التي لا تصدق بسهولة.

الغلامُ الصغيرُ في جَناحِ المسنين

عندما
يدخل الطبيب
المشرف يأتي خلفه
صغار الأطباء في
استعراض يومي

ابتسامتها
المنعشة يملأها
الحب والأمل على
الرغم من كل
الصعاب

الطبيب ترك
الولد وخلع ثوبه
الأبيض ووضعه على
كتفه ومضى

علل الأجساد
قد تُعالج أما علل
النفوس فما الذي
يعالجها

يتابع عامل التنظيفات شهادته الطويلة قائلاً: الغلام الصالح منير كان بشوشاً على الرغم مما كان يبدو عليه من ألم.. كنت أتنقل قريباً من سريره بدءاً من غرفة الطوارئ إلى جناح الباطنية ثم الجهاز الهضمي.. ومن غرفته إلى العناية المركزة، ثم من العناية المركزة إلى غرفته، مرات عدة، حتى طال الوقت.. وتفاقم المرض!

وكنت في كل مرة وفي كل مكان ألحق بهذه الأسرة المنكوبة أحضر للأم كرسياً لترتاح قليلاً.. وهي في كل مرة لا تبدو على ما يرام.. هكذا هي الأم دائماً..

أذكر جدتي الغالية يوم كان أبي مريضاً، لم يكن عندنا سوى قليل من الزيت لتفرك به جسده المنهك، كان يتألم بشدة ولا تخرج من فمه الآهات.. الابتسامة لا متفارق محياها في كل حال وحين، لم تكن الابتسامة صفراء مثل بعض الابتسامات المصطنعة التي رأيتها على وجه بعض من يرتدي الثوب الأبيض.. كانت ابتسامتها منعشة، يملأها الحب والأمل، على الرغم من كل الصعاب.

هذه جدةٌ تُقاس بالذهب.. والطب الأنجع هو طب للقلوب قبل أن يكون طباً للأبدان.. فكم من طبيب يُداوي الناس وهو عليل.. والعلة قد لا تكمن في الأجساد بل في النفوس، وعلل الأجساد قد تُعالج، أما النفوس إذا أصابتها العلل فما الذي يعالجها إذا تقادم المرض واستشرس، حتى تتمكن العلة من النفس وتستولي عليها.. لم يكن أبي عجوزاً، كان شاباً لم يتجاوز الأربعين من عمره، لكنه مرض فجأة، وليس عندنا طبيبٌ حقيقي ولا دواءٌ مثل العقاقير التي يستخدمونها.

فإذا كان الطبيب المرفه يعرض بضاعته المنقوصة على أبوَيْن جريحَيْن ليبدو أمامهما بمظهر الطبيب البارع، فإنه كان من ورائهما يطلب العون من طلابه المتدربين، ويدعوهم للتفكير في حل لم يعرفه أو ربما لم يجد وقتاً للبحث فيه، فماذا سيفعل مع عامل نظافة مثلي، بلا أب له ولا أم.. ولا من يحزنون؟؟؟!!

ومن البداية إلى النهاية هزمني منظر الأبوَيْن المكلومَيْن.. ولدٌ في ربيع العمر، مستلق أمامهما على سرير أبيض، والأطباء يمرون به وكأنه قطعةٌ من هذا السرير.. لعل ما أراه حُلم أو خيال.. أو ربما أسطورة من أساطير الزمان البعيد، ترويها الأجيال جيلاً بعد جيل.. أو قد تكون حالاً استثنائية نادرة، تجري في كل آن وحين، غير أنها اليوم تجري أمامي، وفي هذا المكان بالتحديد.

لحقت بالأسرة المهمومة إلى غرفة الطوارئ، ثم في كل الأمكنة التي يرتادونها في المستشفى.. كان وجه هذا الفتى الطيب الشاحب يزيدني اهتماماً ورغبةً بأن أكون معه، وكان قلب الأم والأب الملهوفيْن على ولدهما جاذباً دعاني لملاحقتهم بكل شغف.. وكانت تلك أول مرة أدخل فيها الغرفة الكئيبة، علماً أن كل غرف المستشفيات كئيبة، وجررت من ورائي مكنستي طويلة العصا.. وكم تمنيت أن تتحول إلى مكنسة الساحرة في القصة الخيالية، وأن تكون مكنسة للخير لا للشر، علماً أن المكانس لا تصنع إلا للخير.. أوَليست التنظيفات شيئاً أساسياً للدنيا والدين؟ وهل يمكن وصف شعب يكره التنظيفات بالمتحضر، لأن الرقي والتنظيفات وجهان لعملة واحدة؟!

ومنذ باشرت عملي في المستشفى لم أكلف بتنظيف أرض غرفة الطوارئ الواسعة، لذا استغرب بعض زملائي أنني موجودٌ معهم هنا، فهذه المنطقة من مسؤوليتهم.. فلم أبال كثيراً بتعجبهم ولم أهتم بأن أشرح لهم، كان منظر الغلام الصغير هو الأمر الأول المقلق بالنسبة لي، من دون أن أدري ما السبب الذي جعل قلبي جزعاً عليه، وكأنه قطعة من هذا القلب..

صحيحٌ أنني أتعاطف كثيراً مع كل المرضى، صغاراً وكباراً، لكن هذا الفتى تملك قلبي كما لم يتملكه مريضٌ من قبل، ربما لشكله الذي يذكرني بابن عمي عماد، الذي كان شعره طويلاً مثل شعره، ومشيته مثل مشيته.. وقد توفي هو أيضاً بعد وفاة أبي بفترة وجيزة.. وحكايتي مع عماد حكاية عمر وطفولة سعيدة، حيث كنا نقضي معظم الوقت معاً في بيت جدتي، وفي البساتين التي تحيط بالبيت..

كنا صغاراً نعشق الطبيعة والحياة.. وعلى الرغم من كل ما كنا نعيشه من صعاب، فإننا كنا نحلم بكثير من الأشياء الجميلة في الكون.. نرسم الأحلام على الرمال، مثل كل الأطفال الصغار.. لم نكن نحسب حساب الدهر وتقلبات الزمن.. "هي الدنيا" كما قال الشاعر عنها:

هي الدنيا تقولُ بملءِ فِيها
حذارِ حذارِ منْ بَطشي وَفتكي
فلا يغرركم حُسنُ ابتسامي
فقولي مُضحكٌ والفعلُ مُبكي

كانَ الوقت يمضي سريعاً، حتى نسيت أمرَ دوامي الذي انتهى، وبالتأكيد فقد ذهبت الحافلة التي تقل العمال إلى مقر السكن.. فمن المستحيل أن تنتظرني كل هذا الوقت، لا يهم.. ليست مشكلة، المهم أنْ أطمئن على هذا الولد الصغير الطيب.

يا سبحان اللّه!! الطبيب ترك الولد وخلع ثوبه الأبيض ووضعه على كتفه ومضى، لقد انتهت نوبته، نَظر إلى سَاعته وغادر دون انتظار، وأنا لم أستطع المغادرة.. لم تكن لديه رغبة بأن يلقي نظرةً عليه قبل أن يذهب، ولم يُطمئن كلاً من الأم ولا الأب، ولا حتى ابنهما المسكين.. هكذا بكل بساطة.. سلم "العُهْدَة" لطبيب آخر ومضى مهرولاً.. ربما ليلحق بحفلة من حفلات ليلة رأس السنة.. أو ربما لمشاهدة ما يعرضه التلفاز بالمناسبة..

وهذا الأمرُ تكرر كثيراً خلال الشهور التي قضاها على سرير المرض.. فعندما ينتهي الدوام ترى الأطباء مثل "فص ملح وذاب"، كما في الأمثال الشعبية.. تراهم في الصباح في كل مكان، أما بعد الظهر وفي نهاية الأسبوع فيختفون تماماً.. وفي أيام الأعياد فهم لا يأتون إلا نادراً، لذا على المرض أنْ يأخذَ إجازة أسبوعية، وأن يلتزم بالهُدوء في الأعياد الرسمية دائماً..

وعندما يدخل الطبيب المشرف يأتي خلفه صغار الأطباء في استعراض يومي.. بعضهم لا ينصت لما يقال، فيكونون حلقات للحديث وتبادل الضحكات، فيما الهواتف النقالة لا تفارق أيديهم، ويكون الحضور شكلياً في بعض الأحيان.. والأكثر وجعاً من هذا ما يحصل عند مجيء طلاب الطب الناشئين، الذين يحضرون ليزيدوا من وجع المريض.. فيطرحون عليه أسئلة سخيفة.. مثل: ماذا بك؟؟ لماذا أنت هنا؟! ما سبب الإسهال؟؟ ماذا قال لك الطبيب؟!!!!!!... من دون أن يتعبوا أنفسهم بفتح الملف، وقراءته بتمعن وبالتفصيل..

ومن المشاهد التي تؤلم أيضاً؛ عندما يأتي الطبيب ويلتف طلابه حول المريض - كما كان بعضهم يفعل مع منير - فيسأل الطبيب المعلم طلابه بعض الأسئلة وكأنهم في امتحان.. ما يعني ذلك؟ ما اسم هذه البقعة على اليد؟ ماذا تعني هذه العلامة في الوجه؟ لماذا يحدث هذا؟؟؟ ويواصل الطبيب "المُعلم" أسئلته حتى يشعر المريض بضيق في صدره، وأنه مجرد أداة للتعلم لا غير.. وفي هذا من الألم الكبير ما لا يدركه إلا الذين ذاقوه.. وجربوه.. أو رأوه مثلي.. فليس السماع كالعيان.

وعندما تكررت أخطاؤهم ابتعدوا ولم يعودوا مع طلابهم.. كنتُ من حسن ظني أعتقد أنهم يأتون إليه حرصاً على حياته، ولإجراء البحوث العلمية التي تنقذه مما هو فيه، ولم أحسب أنهم مجرد طلاب في "حلقة للتعليم" كما تبين لي لاحقاً، وقد سمعتُ أحد هؤلاء المدرسين يقول لطالب معه: "كل مريض في حياتك المهنية والدراسية فصلٌ جديدٌ في كتاب الطب".

على العموم.. وبالعودة إلى غرفة الطوارئ حيث بدأت الحكاية؛ فإن أطباء الطوارئ، أو كما خيل لي – وقد أكون مخطئاً – ليسوا من الأطباء ذوي الشأن الكبير والعلم الواسع، أو من العلماء المهرة المحترفين ذوي الخبرات الطويلة.. فمعظمهم في مقتبل العمر، ويبدون من المتخرجين حديثاً، وربما بعضهم ما زال تحت التمرين..

وقد يكون من الإنصاف القول إن الواقع قد لا يستدعي وجود أطباء اختصاصيين في غرفة الطوارئ بشكل دائم، وهم في الحقيقة يطلبون أطباء أكثر خبرة وتخصصاً عند الحاجة إليهم.. لكنهم بطبيعة الحال لا يأتون بسرعة لانشغالهم بحالات أخرى، فكيف إذا كنا في نهاية العام! وكثيرٌ من الناس يعتبرون هذا اليوم يوماً لا مثيل له طوال عام كامل، وينتظرونه من عام إلى عام.

وبالفعل؛ كان يوماً لا مثيل له..

شعرت بأن هذا الولد لا يحتاج إلى طبيب الطوارئ وحده، بل يحتاج لأكثر من طبيب متخصص، فإذا كنت أنا الحامل لمكنسة التنظيف اكتشفت هذا من دون شهادة بالطب؛ فكيف بالطبيب الحاذق، أو حتى مجرد طبيب تحت التمرين؟! فهل يمكن أن يرى أحدٌ هذه الحال ولا يتوقع أنها تتطلب عناية خاصة؟! لا سيما أنه غلامٌ صغيرٌ لم يكد يبلغ الحُلم بعد..

انتظر الغلام الصغير زمناً طويلاً.. وأنا انتظرت معه.. كان قلقاً متوتراً على الرغم مما يبدو عليه من سكون وهدوء، وكنت أنا أيضاً مثله، قلقاً متوتراً.. وبعد فترة دخل شاب وسيمٌ أنيق، يرتدي ثوباً أبيض مزنراً، وعلى كتفيه تتدلى سماعته، كانت سماعة متميزة، ليست مثل تلك التي أراها عادة على أكتاف كثير من الأطباء..

وبعد أن تصفح سريعاً نتائج ما أجري للغلام من فحوصات مخبرية، قال لطبيب يافع يقف بالقرب منه: "الأفضل أن نحجزَ الصبي في المستشفى.. وقد يحتاج لدخول فوري"..

وفيما كانَ الطبيب اليافع يسجل ذلك مضى الطبيب الشاب الأنيق.. فلحق به الأب مستفسراً، فقال له: "لا تقلق.. سنجري له كامل الفحوصات الإضافية الضرورية.. لكننا سننقله بعد قليل إلى قسم الباطنية فور تجهيز سرير له"..

قسم الباطنية!!! لقد سمعت بهذا الاسم من قبل.. يا للهول.. طفلٌ بهذه السن تضعونه في قسم الباطنية!!!!!!!!!!!!! أعرف هذا القسم تمام المعرفة.. وأرى ذلك خطأ جسيماً بحق الطفولة.. العالم كله يقول إنه ما زال طفلاً وأنتم تضعونه مع المسنين المرضى في قسم واحد وفي غرفة واحدة، ومنهم من مضى عليه وقتٌ طويل وهو في غيبوبة.. وكل يوم تقريباً تسجل هناك حالة وفاة، وأحياناً أكثر.. كما أن المكان مكتظٌ بالمرضى، وكثيرٌ منهم عاجزون عن الحركة، ولا بد من تنظيفهم وهم على أسرتهم من حين لآخر، وإني لأشعر أن الرجل الناضج صحيحُ البدن لو مكث في مثل هذا الجناح لأيام قليلة سيمرض، فكيف بغلام صغير يافع!!!!!!!!!!!!!!

ألم يكن الأجدى أن يكون مكانه الأنسب في جناح قريب من جناح الأطفال يتلاءم مع عمره ووضعه الصحي؟!! وإن كنتم لا ترونه طفلاً، فلماذا لا تضعونه - مثلاً - في جناح مع أولاد في مثل سنه مراعاةً لوضعه النفسي؟!! أم أنكم ترون أن الحالة النفسية ليست ذات أهمية، على الرغم من أنني أسمع ذلك منكم في كل الأجنحة.. وكما أنشأتم جناحاً للأطفال.. ليكن هناك جناح آخر للمراهقين والفتيان؟!!! كم عجيبٌ أمركم!!!!!!!!!!! تتحدثون عن أهمية الطفولة والناشئة؛ ومع ذلك تضعون الفتيان اليافعين مع المسنين والعجزة، وفاقدي الوعي، ومنهم من يئستم من بقائهم على قيد الحياة!!

شددتُ عصاي إلى صدري، أمسكت بها بكلتا يدي النحيلتيْن.. لا لأتوكأ عليها، بل كنت أشعر بخوف زائف، من أنها ستطير وتهرب مني ومن هذا الواقع المخجل. كنتُ أريد أن أفرغ شحنة الغضب المشتعلة في صدري، التي انتابتني فجأة، وأنا أرى هذه الأسرة الصغيرة تمضي بإرادتها إلى حيث لا تعلم؛ من مأساة مقبلة.. كنتُ أريد أنْ أصرخَ بأعلى صوتي كاشفاً لهم الحقيقة، أن أفيدَهم بواقع المكان الذي يقصدونه.. لكن ما قيمة كلام عامل نظافة مثلي يرتدي ثوباً ملوناً مضحك الشكل، إزاء رجل أنيق طويل عريض في زيه الأبيض النظيف الناصع، وعلى كتفيه تتدلى سماعة الطبيب الواثق بنفسه، بكل فخر..

وبعد انتظار طويل؛ جاء من يبلغ الأم الجريحة والأب الولهان على ولده الواهن من

طول الانتظار؛ أن السرير أمسى جاهزاً في قسم الباطنية، وأن الفتى المكلوم سينقل خلال فترة وجيزة.. و"كلم اللسان أشد وطأة على الإنسان من كلم السنان".

هم يقولون إنه "طفل"، ومع ذلك يضعونه في سرير بين عشرات الراشدين وكبار السن من العجزة.. أليس فيكم قلبٌ عطوف؟!! شعرت بضيق في صدري.. ضربت الأرض بالمكنسة، فتردد صدى الضربة في أنحاء المكان.. تلفت نحوي من كان على مسافة قريبة مني، إلا منير وأبويه.. كان ألمهما أكبر من أن يشغلهما صوت مكنسة تصفع الأرض بقشها الأحن على البلاط الأصم من كثير من الناس على بعضهم..

في الواقع كنت أريد أن أضرب بالعصا نفسي، وأن أضرب المرض حتى يستسلم ويرفع راياته البيضاء، فيعتزل الناس جميعاً، وأن أجلد كل الظروف قاسية القلب.. لكنها إرادة الله، ومن غير الله يرحم.. ولعلي صادفت كثيراً من الأشياء الغريبة في الفترة القليلة الماضية منذ وصولي للعمل في الشركة المسندة إليها مهمة الحفاظ على نظافة المستشفى، صرت أشعر يوماً بعد يوم بمزيد من الدهشة والاستغراب من أفعال وأقوال بعض البشر، فهم يقولون شيئاً ويفعلون ضده.. يرتدون ثوباً ناصع البياض ويخفون سواداً بحجم الكون..

وبالتأكيد سيقول من لم يجرب إن في هذا الكلام ظلماً لكثير من الناس، فليس من الصواب أن نشمل الجميع ونضعهم في سلة واحدة، وأن نجزم بالحكم ونعممه، وإن تكررت حادثة ما، فلا يصح أن تكون الأحكام مطلقة على السواد الأعظم لفئة أو لشريحة من المجتمع.. كنتُ أتمنى أن أملك مكبراً للبصر والبصيرة؛ يجسد الواقع المحسوس والملموس وغيره بالتفاصيل الدقيقة، فيظهر على هيئته الصحيحة، التي قد تكون على نقيض ما يظهره البعض.. وكم كنتُ أتمنى أنْ أملك نظارةً كاشفة لما وراء الصورة المشاهدة بالعين المجردة، بإمكانها أن ترى الأشياء على حقيقتها ومن دون مساحيق تجميل..

بل إني لأتمنى أن أمتلك مصنعاً لمثل هذه النظارات "السحرية"، فأصنع منها الملايين، ومثلها من العدسات اللاصقة، لتتوفر هذه النظارات والعدسات بكميات كبيرة، حتى يمتلكها الناس جميعاً بلا استثناء، عندها لن يبقى فاسدٌ في الكون.. وقديماً قالوا: "لو كانت الذنوب تفوح لما جلس أحدٌ إلى أحد"، فكيف إذا ما كانت الذنوب "فائحة ومرئية" في آن معاً؟!! لكنني بالتأكيد مخطئ.. وحتى هذه النظارات سيتم تقليدها، وصناعة

النظارات المزيفة المقلدة المغشوشة، ستقود حتماً إلى رؤية غير دقيقة تشوه الحقائق وتزييفها من جديد.. فتزداد المشكلات عمقاً ويزداد الفساد فساداً.

ويضيف عامل التنظيفات في شهادته: شعرتُ فجأةً بأن أحداً يجذبني من ثوبي من الخلف، استدرتُ فوجدتُ المسؤول عن العمال أمثالي، يَرمقني بنظرة قاسية، معترضاً على وجودي في هذا المكان.. لعل أحد زملائي "الطيبين" وشى بي، فحضر يدفعه – كما يتوهم الناظر – حرصه على العمل، وقد يظن البعض أنه أكثر حرصاً من غيره من ذوي الرداء الأبيض، أو ربما دفعه فضوله لمعرفة سبب وجودي ها هنا على الرغم من انتهاء دوامي.

لم أكن أبالي كثيراً بمضي الوقت، فغداً عطلتي الأسبوعية التي تتصادف مع عطلة رأس السنة الميلادية، ويمكنني قضاء الليل بكامله هنا.. غير أنني اضطررت للخروج من غرفة الطوارئ خشية ما قد يلحقني من ضرر من المسؤول الذي تصرف معي وكأنه "ضبطني" متلبساً بجريمة لا تغتفر..

"كيف تقوم بتنظيف مكان ليس من مسؤوليتك؟".

"أحاول المساعدة"..

"العامل يهمل المطلوب منه أحياناً، فكيف يتطوع للقيام بعمل غير مطلوب منه، وخاصة بعد انتهاء دوام عمله؟".

اضطررتُ إلى مغادرة غرفة الطوارئ لأن النقاش لن يفيد.. تركت المَكانَ كما تركت الفتى الصغير لمصيره.. كنت قلقاً عليه، أريد البقاء معه، على الرغم من أنه ليس بيدي حيلة، أردت مرافقته إلى سريره الذي سينقل إليه.. لعلي أساعده ولو بشيء يسير يرضيه ويواسيه.. خرجت من المستشفى مرغماً، توجهت نحو الشارع الرئيسي أنتظر عند موقف الحافلة العمومية، وكان البرد شديداً.. ثم بدأت الأفكار تتدافع في رأسي.. حتى قبل أن تقع الأحداث المؤلمة المتتالية.

يتذكر عامل التنظيفات محاضرةً كان قد شاهدها في اليوتيوب للدكتور إبراهيم الفقي رحمه الله، يقول فيها: "إن هناك فرقاً بين الطبيب العادي، والجيد، والممتاز، والرائع".. وهو بذلك يفرق بين أربعة أنواع من الأطباء.. أخرجت الهاتف من جيبي وفتحت اليوتيوب، بعد أنْ دخلت الحافلة وجلست في مقعد قرب النافذة..

يقول العامل: بحثت عن الفيديو الخاص بالدكتور الفقي، وفي ذهني يتردد كلامه

كأنني أسمعه منه مباشرة:

"الطبيب العادي يبني على ما يقول له المريض، ويعطيه حبة دواء من دون أن يقوم بأي تحليلات، وهو لا يعرف عنه شيئاً، ثم يطلب من المريض التالي أن يدخل من دون أي اهتمام.. وأما الطبيب الجيد فيجري أشعةً وتحليلات ليطمئن على المريض، أما الطبيب الممتاز فيسأل المريض عن نشاطاته وحياته وينظم له أموره، فلا يكتفي بما يصفه له من علاج.. أما الطبيب الرائع – وهو الطبيب النادر طبعاً – فيستمع للمريض، ويتواصل معه ويتابع حاله، فيشعر المريض وكأن طبيبه يتألم عندما يتألم، ويبكي حين يبكي.. فالمريض لا يأتي إلى الطبيب إلا لأنه خائفٌ من مجهول ما، وليس عنده معرفة بالمرض الذي أصابه، فإذا كان لدى الطبيب قدرات وأخفاها ولم يعطها له، فإن الله سبحانه سيُحاسبه عليها".

ثم يقول الفقي:

"في كندا – مثلاً – إذا أعطى الطبيب مريضاً حبة دواء من دون فحص وأشعة، وحدث للمريض أمرٌ مضر؛ تسحب منه الرخصة.. وهناك عدد كبير من المرضى ماتوا لأنهم ذهبوا إلى عيادات الأطباء.. ذنبهم الوحيد أنهم صدقوهم، ثم ماتوا بسبب التشخيص الخاطئ.. وفي تكساس الأمريكية أجروا استبياناً خاصاً بالمرضى في مستشفيات عدة، وكانت أولى الأولويات التي طلبها هؤلاء المرضى العناية الشخصية، وثانياً العناية الطبية، وثالثاً العناية الغذائية، أما المال فقد كان في أسفل الأولويات، لأن المال طاقة سفلية تشد الإنسان للأسفل، بينما الطاقة العليا هي الطاقة الروحانية، والمرض ينمي هذه الطاقة، فلا يعود المريض يطلب المال، ولا يعود للمال هيبة ولا أهمية بالنسبة إليه".

أما أنا – والكلام لعامل التنظيفات – فقد بت أعتقد بأن تصديق طبيب واحد "عادي" شيء من الجنون، أو في أحسن حال؛ قلة عقل.. ولعل عصا مكنسة التنظيف ستكون أذكى مني إذا صدقت طبيباً واحداً "عادياً" لا يحترم مريضه، بل جل احترامه للمال "ذي الهيبة" الذي يحققه.. لكن من أين نأتي بالطبيب "الرائع" الذي تحدث عنه الفقي؟؟؟؟!!!! ولهذا نرى المرضى مستعدين لبذل الغالي والنفيس بحثاً عن مثل هذا الطبيب من أجل الشفاء، وقد يصدقون من ينصحهم بأمر ما، وقد يكون نصحهم صواباً وقد يكون خطأ.. وقد يذهب بعض ضعاف العقول إلى المشعوذين.. ويبقى الأمل مشرقاً دائماً في قلوب الطيبين.

مشكلاتٌ مُتتاليَة

تمثلت الكارثة الفعلية في مشهد قيام الدكتور مختار بسحب أنبوب التغذية خلسة

بعضهم كان يسأل الأم والأب عن نتائج الفحوصات من دون الاطلاع على الأوراق

أنكر الأطباء المسؤولية وحملوا الممرضة خطأهم الواضح

المشكلات التي صَادفت منير في المستشفى بدأت منذ اللحظة الأولى.. إذ وُضِع في البداية في غرفة واحدة مع مريض طاعن في السن في جناح الباطنية، بغض النظر عما يقوله القانون، باعتبار أنه ما زال طفلاً..

وضع منير في غرفة واحدة مع شيخ عاجز، غير مدرك لما يجري من حوله، مصاب بغيبوبة شبه دائمة، وكان منير يضطر للخروج من الغرفة مرات عدة في اليوم الواحد، ويمكث فترة من الوقت في الممر بين الغرف، فراراً من الرائحة الكريهة التي كانت تفوح بالمكان كلما قام الممرضون بتغيير "حفاض" الرجل المسكين..

وفي الأيام الأولى قرَّر الأطباء إجراء منظار سُفلي وعُلوي بحثاً عن سبب الإسهال المتواصل، وكان هذا أول منظار خلال وجوده في قسم الباطنية، وكانت صحته جيدة، ولما كان الأمر يتطلب الامتناع عن الطعام لساعات محددة قبل إجراء المنظار فقد منع الأطباء عنه الطعام، وأعطي عن طريق الفم سائلاً طبياً لتنظيف الأمعاء..

وفي اليوم التالي تم إجراء بعض الفحوص الروتينية قبل القيام بالمنظار، فوجدَ الأطباءُ أن سيولة الدم مرتفعة، لذا قرروا تأجيل المنظار لليوم الثالث وإعطاءه كيساً من الدم على أن يبقى منير بلا طعام.. وجاء اليوم الثالث فأدخل منير إلى غرفة المناظير، وأُجري له المنظار العُلوي، لكن الطبيبَ لم يتمكن من إجراء المنظار السفلي بوضوح.. والسبب هو عدم إعطائه سائلاً لتنظيف الأمعاء..

احتج الطبيب على ذلك، فقالوا له إن الخطأ من التمريض، وألقي اللوم على الممرضين.. لكن الممرضة المسؤولة أفادت بأنها لم تكن على علم بأنه يجب أن يأخذ الدواء مرة ثانية، لأن الطبيب لم يبلغها.. وقالت إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها من دون طلب من الطبيب..

لم يعترف الأطباء بتقصيرهم، وحملوا الممرضة كامل المسؤولية.. علماً أن الممرضين لا يُقدمون على أي عمل مثل ذلك من دون طلب الأطباء.. وعلى الرغم من هذا الخطأ الجسيم لم يتم التحقيق في الموضوع.. ومضى يوم آخر ومنير من دون طعام، وظل يعيش على السوائل البسيطة والمحاليل حتى اليوم الرابع، ما أدى إلى إضعافه وإرهاقه وزيادة هزاله..

ويتابع عامل التنظيفات شهادته: كنت أتساءل بيني وبين نفسي: كيف يترك هذا الفتى الصغير وهو على هذه الحال من المرض أربعة أيام متتالية من دون طعام؟

ولماذا لم يتم فحص السيولة قبل ذلك وفي الوقت المناسب؟ ولماذا لم يتم إعطاؤه الدواء اللازم؟! وكنت أخلص في مثل كل مرة إلى نتيجة واحدة: إن كل هذا يثبت الإهمال والاستخفاف بحياته منذ الأيام الأولى.

وقلت سابقاً إن الدكتور مسرور، وهو أحد كبار الأطباء في جناح الباطنية، طلب في الأيام الأولى إخراجه من المستشفى، كما طالبت زميلته الدكتورة أماني هي أيضاً بإخراجه قائلة: "لو أبقيناه في المستشفى هل سيتوقف الإسهال؟!".. على الرغم من حالته المتدهورة واستمرار الإسهال والتقيؤ، لكن طبيب الكلى رفض.. شعرتُ في نفسي أن في ذلك كثيراً من الاستهتار والاستخفاف بحياته..

وقرر الأطباء إجراء تجربة قبل إخراجه من المستشفى، وبناءً على ذلك تم وقف الأدوية الوريدية والأملاح أيام عدة بطلب من استشاريي الباطنية، وذلك بعد مضي نحو شهر من دخوله المستشفى بحجة أن فحص الدم يدل على تحسنه.. وكان هدفهم التمهيد لخروجه من المستشفى ليصبح مريض عيادات خارجية.. وبعد خمسة أيام من ترك منير وخضوعه للتجربة من دون أدوية ومحاليل وريدية والاكتفاء بالأدوية عن طريق الفم، على الرغم من أن الجميع يعرف أن الإسهال والتقيؤ متواصلان، وأن أمعاء منير لا تمتص الغذاء ولا الدواء؛ تراجعت صحة منير بشكل كبير.

وجاءت الدكتورة أماني برفقة الدكتور ساجد بعد اختفائهما لعدة أيام، وعندما رأى الأخير وهو المشرف الرئيسي في قسم الباطنية حالة الضعف التي تفاقمت؛ قرر إعطاءه تغذية وريدية، وهنا بدأ منير وضعاً جديداً من الآلام تبين مدى التساهل والاستخفاف بحياته، فلم تنجح التجربة في إنقاذه، بل زادت من معاناته.. فقد كان كل شيء على سبيل التجربة؟؟!! وكنت ألاحظ في تلك الفترة ومن ثم في الفترات اللاحقة عدم وجود تنسيق جدي بين الأطباء.. وكان بعضهم يسأل الأم والأب عما يحدث مع الطبيب الآخر، ويستفسرون عن آراء الأطباء الآخرين، حتى أن بعضهم كان يسأل الأم والأب عن نتائج الفحوصات من دون الاطلاع على الأوراق وأحياناً يسأل الطبيب الذي معه..

وكان معظم الأطباء يدخلون غرفة منير – ربما – من دون قراءة نتائج الفحوصات، لأنهم غالباً ما كانوا يسألون عنها خلال وجودهم قرب سريره.. يستمعون إلى النتائج، ثم يعطون قرارات سريعة فورية من دون بحث وتمحيص كما تقتضي كل الحالات

المرضية ولو كانت بسيطة، فكيف ونحن أمام حال منير الدقيقة.. وهنا قرر الدكتور ساجد وعلى الفور البدء بالتغذية الوريدية، وتم إجراء عملية في غرفة العمليات من أجل وضع أنبوب في منطقة الصدر في وريد رئيسي كبير.. وبدأ منير بالتغذية الوريدية.. وبدأت أسرته تشعر بالتفاؤل من احتمال تعويض جسمه ما فقده من وزن وصحة..

وبعد فترة وجيزة، وخلال التغذية الوريدية، حدثت مشكلةٌ أخرى، إذ ارتفعت حموضة الدم لمدة خمسة أيام متواصلة، ولم يلتفت الأطباء إليها ولم تتم معالجتها.. وفي اليوم الثالث بدأ منير يشعر بصعوبة في التنفس، واستمر الأمر ثلاثة أيام.. وكان الأب يخبر الأطباء بذلك كل صباح، لكنهم كانوا يتعذرون من دون توضيح الأسباب، ويقولون إنه في حال جيدة، لكنهم في اليوم الخامس قرروا إجراء فحص خاص بغازات الدم، فتبينوا وجود غازات ناتجة عن حموضة الدم.. فأين كان أطباء الكلى والباطنية من هذا الأمر؟؟؟!!! ولماذا لم يقوموا بمناقشة هذا التطور الخطير حتى جاء طبيب الكلى الدكتور جاسر وقال:

"هناك (خربطة) في تعديل الأملاح بيننا وبين اختصاصي إعداد محلول التغذية الوريدية".

ألم يكن من الواجب اكتشاف هذا الأمر من أول يوم، وليس من بعد خمسة أيام، خاصة أنه كاد يؤدي إلى مرحلة خطرة، توصل المريض إلى غسل الكلى.. ونتيجة لذلك أصيب منير بحال صعبة جداً وصعوبة بالتنفس.. وبعد أن تفاقمت الأمور طلب الدكتور ساجد وقف التغذية الوريدية فوراً بسبب الارتفاع المتواصل في حموضة الدم، وتبين الجميع عدم التنسيق بين أطباء الكلى والتغذية الوريدية، وهذا ما أكده طبيب الكلى الدكتور جاسر..

وهنا حصلت مشكلة أخرى، لا تؤكد فقط مدى الإهمال، بل تبين كذلك مستوى البعض في الاستهتار بحياة المرضى.. فبدلاً من نزع أنبوب التغذية الوريدية في الحال؛ لم يتم ذلك من الصباح حتى المساء، على الرغم من حال منير شديدة الصعوبة وعدم تمكنه من التنفس بشكل جيد.. والسبب بكل بساطة يكمن في خطأ الطبيب المسؤول؛ إذ وضعت الملاحظة في بداية ملف منير بدلاً من نهايته، كما هو معتمد عندهم بحسب تبرير قسم التمريض، حيث ينفذ الممرض الطلب الموضوع في نهاية الملف وليس في بدايته..

وبسبب هذا الخطأ، لم ينفذ الممرضون الطلب، لأنهم لا ينظرون عادة إلى بداية الملف، فبقيت التغذية طوال اليوم رغم ضررها، ولم يدرك الأب ولا الأم سبب تأخير سحب الأنبوب، وكاد يؤدي ذلك إلى أخطار أخرى كما قالت لهما لاحقاً الطبيبة المسؤولة في العناية المركزة التي نقل إليها منير على عجل..

وكانت الكارثة الفعلية تتمثل في مشهد قيام الدكتور مختار بسحب أنبوب التغذية "خلسة"، بعد مواجهة بينه وبين طبيب الكلى الدكتور جاسر.. وحدث ذلك في مساء اليوم نفسه، حينَ حضر الطبيبان جاسر ومختار في حدود الساعة السابعة مساءً معاً، بعد مواجهة الأم لهما أسفل مبنى قسم الباطنية، فأسرع الدكتور مختار ليسبق الدكتور جاسر إلى الغرفة، وقام بمحاولة وقف انسياب التغذية عبر الأنبوب "خلسة"، لكن الدكتور جاسر لحق به بسرعة فشاهد بنفسه "ما لا يليق" أبداً بطبيب أدى القسم.. وعندما التفت الدكتور مختار قال للدكتور جاسر: "انُظر.. التغذية الوريدية متوقفة"..

لكن طبيب الكلى الذي ذهبت الأم لإحضاره بنفسها خوفاً على منير بعد تلكؤ أطباء الباطنية ولم يقوموا بطلبه؛ شاهد بنفسه ما فعله الدكتور مختار، فقال له بكل حزم وشدة: "أنت أوقفتها الآن"..

وكان طبيبُ الباطنية الدكتور مختار يريد إخفاء هذا الأمر بشكل سريع جداً.. وهنا يتذكر عامل التنظيفات أنه وقبل وقوع هذه الحادثة بسويعات معدودات تم نقل منير وعلى غفلة من الأب والأم إلى العناية المركزة بسبب خطورة الأمر، لكن لم يتم سحب التغذية المركزية، وهناك تم اكتشاف مشكلة أخرى، فقد كانت الطبيبة المسؤولة مستعدة لوضعه على آلة غسيل الكلى كما طلبوا منها، لكنها رأت أن حالته لا تستدعي ذلك..

وعاد منير إلى غرفته، على أن ينقل فوراً إلى العناية المركزة عند الضرورة.. لكن الممرضين تركوا التغذية الوريدية بشكل خاطئ كما هي بسبب وضع الورقة في بداية ملف منير وليس في نهايته.. وفي هذا أدلة كبيرة على الإهمال الذي لا يمكن توصيفه تحت بند الأخطاء الطبية.. أما ما فعله الدكتور مختار فليس خطأ طبياً، ولا يصنف على أنه إهمالٌ على الإطلاق!!! فله تسمياتٌ أخرى.. إلا أن لجنة التحقيق الطبية لم تذكر ذلك لاحقاً من قريب أو بعيد في تقريرها المقدم إلى القاضي، ولم تثبت هذه الواقعة الخطيرة وغضت النظر عن شهادة الشهود.

تَشخيصُ كرونز

أحسن طبيب كرونز في البلاد ولا يستشيرون أحداً غيره!

رفع أطباء الباطنية أيديهم وتركوا منير يواجه هذا التشخيص الجديد

المستشفيات مكان يسبب الحزن والكآبة والمشرحة أكثر الأماكن حزناً

على الأمهات والآباء أن يكونوا مثل الأصنام إزاء الأخطاء الطبية المتكررة

ومضت أيام وأيام.. وبعد نحو ثلاثة أشهر من دخوله المستشفى أعلن الأطباء فجأةً أنهم شخصوا مرض منير على أنه كرونز، وهو مرضٌ التهابي يصيب الأنبوب الهضمي، ويعد من الأمراض النادرة، ولا يعرف له سببٌ محددٌ حتى الآن، علماً أن الفحوصات السابقة استبعدت إصابته بهذا المرض.

طلبت أم منير منهم أن يستشيروا اختصاصيين من خارج المستشفى للتأكد من التشخيص، قبل بدء حقنه بإبر الكورتيزون التي حددها الأطباء كعلاج، وذلك نظراً للتشخيصات السابقة الخاطئة، حتى لا يأخذ دواءً يضره ولا يفيده، نظراً لحاله الصحية التي لا تحتمل المزيد من الأخطاء.. لكن كبير أطباء الجهاز الهضمي الدكتور حمد، وهو الطبيب المسؤول عن هذا التشخيص؛ رفض.. ومن معه من الأطباء قالوا: "إنه أحسن طبيب كرونز في البلاد، فكيف نستشير أحداً غيره؟؟!!".. علماً أن هذا الطبيب كان يرفض أبسط الأشياء؛ وهو الرد على الاتصال به في حال الطوارئ القصوى.

وفي هذه الأثناء، رفع أطباء الباطنية أيديهم، ولم يعد هناك اهتمامٌ جدي، وتركوا منير يواجه هذا التشخيص الجديد، على الرغم من عدم اقتناعهم به، كما بدا ذلك واضحاً من تصرفاتهم، فضلاً عن قولهم لاحقاً بعد تدهور صحته أكثر نتيجة جرعات الكورتيزون العالية إنهم كانوا مقتنعين بأنَّ: "كمية الكورتيزون كبيرة ولا تتناسب مع حالته على الإطلاق" لكنهم "لا يتدخلون بشغل غيرهم".. حسب تعبيرهم وهم يقصدون الدكتور حمد..

وكأنها كانت فرصة سانحة لهم للتخلص من "مريض مزعج هو وأهله"، فقد كانوا – كما يبدو – ينتظرون بفارغ الصبر خروجه من جناح الباطنية، ليذهب إلى مركز الجهاز الهضمي، أو إلى أي مكان آخر.. ولو كان القبر!! وعندما قرر الأطباء أنه كرونز؛ ذهبت الأم إلى الدكتور ساجد كبير أطباء الباطنية لتحادثه على انفراد، فسألته: "كيف تبين لكم أنه كرونز، مع أن منير أجرى ثلاثة مناظير من قبل ولم يظهر ذلك، ومنها في مستشفى آخر خارج البلاد، قبل دخوله هذه المستشفى؟!!!".

هز الطبيب رأسه، ثم استند على الحائط من خلفه، ووضع يده على جبينه، بعد أن حاول التملص منها، ثم قال لها وكأنه اكتشف الذرة بعد بحث وتدقيق:

"إن ابنك سبق أن أخذ الكورتيزون، وهذه المادة تمسح معالم المرض، فلا تظهر بعد ذلك آثار المرض في العينات التي تم أخذها من الأمعاء"..

لكن الأم الحريصة على حياة ابنها مثل كل أم جريحة والتي وقعت في تلك التجارب الفاشلة؛ لم تقتنع بهذا التحليل، فذهبتْ بعدَ ذلكَ مباشرة إلى مبنى الجهاز الهضمي، وقامت بالبحث عن كبير الأطباء الدكتور حمد، وعندما وجدته وتمكنت من الحديث معه؛ طرحت عليه السؤال نفسه، وقالت له دونَ أنْ تخبره من أين جاءت بهذه المعلومات: "هل يوجد أي احتمال بأنْ يكون الكورتيزون مسح معالم المرض؟".

هنا حدثت صدمة جديدةٌ وغريبة فعلاً، وهي أغرب من كل ما مضى من جانب كبير الأطباء، إذ استهزأ الدكتور حمد بكلام الدكتور ساجد، معتقداً أنه كلامها، وقال بابتسامة ساخرة: "لا يمكن ذلك، لأن الكرونز لا يكون في كل الأمعاء، ويكتشف بحسب العينة التي يتم أخذها، وهذا معناه أن العينات السابقة لم تؤخذ من المكان الذي يوجد فيه الكرونز".

ويعلق عامل التنظيفات على هذا المشهد قائلاً: عندما سمعت هذه القصة والأم ترويها للأب اشتطتُ غضباً، كنتُ أريد أن أعلنها ثورةً على هؤلاء الأطباء؛ وليسمع العالم كيف ينقض الواحد منهم كلام الآخر، وكأنهم يتحدثون عن قطة أو حتى عن جماد.. كيف يستهزئون ويلقون الاحتمالات على عواهنها؟ وكيف لا يُحاور الطبيب المسؤول الطبيب المسؤول الآخر، وكأن هذه الروح البشرية لا قيمة لها؟! عجباً، عجباً.. إنه لأمر معيبٌ حقاً، فهم حتى صباح اليوم نفسه كانوا يقولون إنهم يلتقون بشكل مستمر لمناقشة أوضاع منير، فكيف غابت هذه المسألة المهمة عن أحاديثهم!! هذا إنْ صدق قولهم إنهم كانوا يناقشون الموضوع في حوارات دائمة.. إنها مأساة حقيقية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع!

وتم حقن منير بإبر الكورتيزون (مئة ملغ ٤ مرات في اليوم)، غير أن جسده الضعيف لم يتحمل هذه الكمية كما توقع أطباء الباطنية، لكنهم تركوه لمصيره.. يريدون معاقبة والده لحرصه على ولده.. وبعد يومين تقريباً من حقن الكورتيزون أصيب منير بحال تشنج رهيبة تشبه الصرع، ولم يعد يستطيع التنفس بعد أن عض لسانه الذي أصبح لونه أسود قاتماً، فتم إسعافه في الحال بحقن مهدئة،

ثم نقل على عجل إلى العناية المركزة، وكان هذا الانتقال للمرة الثانية.. ومكث هذه المرة نحو عشرة أيام..

ويضيف العامل: لا يمكنني وصف ما جرى أمامي وتكرر أكثر من مرة من حالة الصرع المخيفة.. لم يكن هنالك أطباءٌ ليقوموا بإسعافه.. ولولا وصول طبيب الغدد الدكتور عبدالعظيم بعد قيام الأم بالاتصال به مباشرة، حيث صدف وجوده قريباً من الجناح فجاء على عجل، علماً أنه ليس من الأطباء المعنيين به مباشرة في قسم الباطنية.. ومع ذلك، أسرع بنفسه وبكل طاقته، وصار يركض نحو قسم الأطفال لإحضار مهدئ خاص لمن هم في مثل سنه لكي يسيطر على حال الصرع التي انتابت منير فجأة.. قبل أن ينقلوه مجدداً إلى العناية المركزة.

وبعد أيام عاد إلى غرفته من العناية المركزة وكان جسده محتقناً بالسوائل، وأصبح (كيس الخصيتين) أكبر من حجم كرة المضرب، ولم يعد يستطيع من بعدها الوقوف على قدميه، واستمر عاجزاً عن الوقوف منذ خروجه من العناية المركزة وحتى موته بعد أشهر عدة.. وعلى الرغم من كل ذلك؛ فإن كبير الأطباء الذي قالوا عنه إنه أفضل طبيب كرونز في تخصصه، لم يقم بمتابعته ولا زيارته في العناية المركزة، ولا في غرفته بعد عودته إليها، وكأنه أكبر من أنْ يزورَ مريضاً يُعتبر مسؤولاً عنه في مستشفى حكومي، لكنه لو كان في مستشفى خاص فمن المؤكد أن تصرفه سيكون مغايراً تماماً.. وخرج منير من العناية المركزة بعد نحو عشرة أيام منهكاً، ومن بعدها تابع حقن الكورتيزون، لكنْ بنسبة أقل (50 ملغ 3 ثم 4 مرات يومياً)، وهي نحو نصف الكمية السابقة.

ويذكر عامل التنظيفات أنه عندما تردت صحته بعد حقن الكورتيزون وجاءته حالة تشنج تشبه الصرع أعطي دواءً مهدئاً، عندها جاءت الدكتورة نبيهة ومعها الدكتور ساجد وهما كبيرا استشاريي الباطنية فقالا: "إن جرعة الكورتيزون كانت كبيرة".

فقالت لهما الأم: "لماذا إذن لا تقترحا على الدكتور حمد تحديد جرعة أقل؟!".

"نحن لا نتدخل في قرارات الدكتور حمد"..

ويعلق عامل التنظيفات على ذلك بالقول: "أليس ذلك غريباً جداً!! وهما يعلمان أن منير كان حتى ذلك الوقت تحت إشراف أطباء الباطنية".

ومن الأشياء الغريبة والمؤلمة والمدهشة معاً؛ أنه وبعد عودته من العناية المركزة خرجت من فمه بضع قطرات من الدم مختلطة بلعابه، فلم تكتمل فرحته بالعودة إلى غرفته.. ومن يصدق أن فتى يافعاً مثله كانت كل فرحته تكمن في أن يخرج من العناية المركزة ويعود إلى غرفته في أحد أجنحة المستشفى ليقضي أوقاته بين والديه، فراراً من ذلك المكان الموحش الذي كان يبكيه كلما مر ذكره أمامه..

المستشفيات بشكل عام مكان يسبب الحزن والكآبة، ولعل أكثر الأماكن حزناً فيها: "المشرحة"، حيث تسكن الأجساد بغير أرواحها قبيل نقلها إلى مقرها الأخير، ومن بعدها مباشرة العناية المركزة، وربما تكون الأخيرة أشد الأمكنة كآبة من أي مكان آخر، لما تحتويه من أناس لا يستطيعون الحراك.. وقد يقبل ذلك من مرضى غائبين عن الوعي لأنهم لا يدركون أين هم، أما المريض الواعي المدرك فيرى هذا المكان وكأنَّه كارثة الكوارث، والمكان الذي يصيبه بالكمد، حيث تستقر جموع المرضى العاجزين أمام سمعه وبصره، ومنهم من يموت فيغطونه بالأكفان ويربطونه بإحكام..

وفي الحقيقة، فإن هذا المكان هو من أكثر الأمكنة التي تثير ألماً متصاعداً في النفس، لم أدخله قبل الآن، ربما بسبب قصر الفترة التي عملت خلالها في المستشفى، لكنني دخلته بإرادتي وأنا أتبع هذا الفتى المسكين، في رحلة العذاب ما بين الألم والتشخيصات الخاطئة، والقهر، والاستهتار بحياته.. كأنه كائن طفيلي لا قيمة له، ويستحق العقاب بسبب ما يبذله والداه من جهد ومال وماء وجه للإبقاء عليه بينهما حياً يرزق، سعيداً سليماً معافى من المرض..

ربما من الأجدى على الأمهات والآباء أن يكونوا مثل الأصنام - صامتين خانعين - إزاء ما يَرونَه يحدثُ أمام أعينهم من أخطاء متكررة.. فالويلُ لهم إن ناقشوا أو تذمروا أو تحدثوا عن الأطباء أمام أحد، فسيكون مصير مريضهم الإهمال، والوجه العبوس، والمجافاة، وتركه من حين لآخر بلا طبيب ولا متابعة حقيقية - وربما - امتلأ جسده بالكدمات السوداء والزرقاء والحمراء.. فلا يحظى بأي اهتمام أو مبالاة.. كما حدث فعلاً..

وأذكر أنهم وبعد خروج قطرات الدم من فمه، قاموا وعلى الفور ومن دون التحقق منها أعادوه إلى العناية المركزة، دون التأكد من سبب هذا الدم.. ومكث في

العناية المركزة – التي لم يكن بحاجة إليها – من يوم الأربعاء إلى يوم الأحد، لأنه في نهاية الأسبوع – أي يومي الجمعة والسبت – لا يداوم الأطباءُ المتخصصون، الذين بإمكانهم أن يقرروا بقاءه فيها أو خروجه منها!!! وقالت طبيبة في العناية المركزة يليق بها اللون الأبيض: "لم تكن هناك ضرورةٌ تستدعي عودته إلينا، لأن قطرات الدم خرجت بسبب أنبوب الأوكسجين الذي أدى إلى جروح بسيطة في مجرى الهواء".

وهل هناك بعد هذا ما هو أدل على مدى الاستخفاف بحياته وبحالته النفسية؟! ولعل هذه الحادثة الصادمة تستدعي قصة طريفة من التراث العربي، باعتبار أن (شر البلية ما يضحك).. وتروي القصة أن جحا زار صديقاً له فوجده مريضاً يتألم من معدته والطبيب إلى جانبه.. وبعد أنْ قامَ الطبيبُ بمعاينةِ المَريض قالَ لجحا: "الأمر بسيط، لكن عليه أن يخفف طعامه ليوم أو يومَيْن، ويمتنع عن أكل الكعك".. ثم خرج الطبيب، فأسرع جحا خلفه يسأله متعجباً: "لكن كيف عرفت ذلك وبسرعة؟!!". فقال الطبيب: "المسألة سهلة، عندما علمت أنه يعاني آلاماً في معدته نظرت في فمه وتحت السرير فرأيت بقايا كعك متناثرة"..

وبعد أيام ذهب جحا لزيارة صديق آخر فوجد أباه مريضاً.. فدخل جحا غرفة الأب ونظر في فمه ثم تحت السرير حيث كان الأب يضع أحذيته.. فقال جحا لصديقه بصوت منخفض: "الأمر بسيط.. لقد تعلمنا في الكتب أن أكل الأحذية عادة سيئة ومضرة بالصحة.. لذا أنصحكَ بأنْ تبعدَ الأحذية من تحت سرير أبيك". فدُهش الصديق ووقع على الأرض مغشياً عليه.

مئةٌ بالمِئة أمْ صفرٌ بالمِئة؟!

استمعت حتى النهاية إلى كلامه المكرر الذي باتت تحفظه عن ظهر قلب

لا يريد الاعتراف بخطئه وبما فعله بحق هذا الفتى المسكين

خشيت من اتهام الذين أوصلوا ابنها إلى الحافة وتركوه يسقط لكيلا تزداد المعاناة

لم يهتم الدكتور جلال بحسرة الأم وخاطرها المكسور ولا بقلبها الجريح

استمر منير يعاني بصمت بالغ وصبر فريد وهو يتحمل إبر الكورتيزون لنحو شهر كامل، والتقت الأم مصادفة بكبير الأطباء الدكتور حمد في بهو مركز الجهاز الهضمي فلحقت به، لكنه تجاهلها في محاولة منه لعدم التحدث معها مثل كل مرة.. لكنها أصرت هذه المرة على الحديث معه، وبادرته بكلام واضح مختصر وبسؤال بين مباشر:

"لا يوجد تحسن يا دكتور! هل سنستمر في هذا العلاج زمناً طويلاً من دون فائدة على الرغم مما رأيناه من أضرار كثيرة؟ جسده أصبح ضعيفاً جداً والأطباء يقولون إن الكورتيزون لم يؤد إلى أي نتيجة".

"منذ عشرين سنة وأنا أعمل في الطب وما رأيت كرونزاً مثل هذا"..

قال لها ذلك مبدياً استغراباً مصطنعاً، مبرراً ما فعل بهذا الغلام الصالح ليبعد عن نفسه أي مسؤولية، ويحمل المريض مسؤولية مرضه كأنها شهادة طبية!!! كان يحاول أن يؤكد أنه ما زال مقتنعاً حتى هذه اللحظة أن ما أصاب منير هو بسبب الكرونز، كي لا يعترف بخطئه وبما فعله بحق هذا الفتى المسكين.. ثم قال والأم بين الصدمة والحيرة والانفجار المبطن بابتسامة الجراح:

"سأرسل إليك الدكتور جلال فلديه خبرةٌ في هذا المجال".

يا لهذه المأساة! من طبيب.. إلى طبيب.. إلى طبيب.. الكل يرمي الكرة في ملعب الآخر. عدنا إلى نقطة البداية، وإلى التجربة الأولى في غرفة الطوارئ.. ولم تمض ساعاتٌ طويلة على ذلك اللقاء حتى حضر الدكتور جلال وقال للأم إن ابنها لم يتحسن على الكورتيزون على الرغم من مرور أسابيع عدة.. كأن الأم لم تلاحظ ذلك وتجهل حال ابنها.

كانت مكسورة الخاطر والجناح، اضطرت أن تنصت إليه حتى النهاية، استمعت إلى كلامه المكرر الذي باتت تحفظه عن ظهر قلب أكثر من الطبيب نفسه من كثرة قراءتها ومتابعتها وتسجيلها لنتائج العينات والفحوصات والأدوية التي كانت تضرب جسده "خبط عشواء".. لم يهتم الدكتور جلال بحسرة الأم، ولا بخاطرها المكسور، ولا بقلبها المقهور المتألم.. بل قال لها بكل "براءة" وكأنه اكتشف ما لم يكتشفه الأوائل: "لماذا إذن لا نعرض العينة على طبيب آخر؟".

يا سبحان ربي!!! أنتم من رفضتم ذلك بحزم وبشدة منقطعة النظير منذ البداية،

وقررتم بشكل عاجل ومن دون ترو ومن دون التأكد من فاعلية الإبرة الخاصة بالهرمون، على الرغم من مظاهر التحسن التي ظهرت في الفترة الأخيرة على منير قبيل بدء حقن الكورتيزون..

قررتم فجأةً ومن دون وجه حق البدء بهذه الحقن، وكأنكم أنتم وحدَكم أصحاب الحق الأول والأخير بأنْ تَفعلوا بجسده ما تشاؤون ومتى تشاؤون؟؟؟!!! حتى دون التأكد مما أنتم مقبلون عليه من مصيبة لا توازيها مصيبة، رغم أنكم قلتم في البداية إنكم متأكدون "مئة في المئة"، ثم يظهر بعد ذلك أنكم كنتم غير متأكدين!! بل حتى غير مرجحين.. بل أنكرتم لاحقاً موافقتكم، واعتبرتم أن الأمر مجرد تجربة..

ومنكم من تنصل من ذلك الرأي، وكأنه يرى من يكلمه بلا ذاكرة تحفظ، ولا أذن تسمع ما قلتم وتقولون! وكان كل همكم أن تحصلوا على توقيع والد منير أو أمه عند إجراء تجربة ما، لتحملوهما المسؤولية التي أنتم مخطئون فيها، وهما – للأسف – مثل الغريق الذي يتمسك بقشة!!! فماذا أنتم فاعلون؟؟!!!! وماذا تتوقعون أنْ يقولا وأنتم تطلبون منهما التوقيع على أوراق متتالية تضمن ألا مسؤولية عليكم، وأن المسؤولية الكاملة على الوالدين إذا ما وقعت مصيبة ما.. وإنكم لا تتحملون نتائج ما أنتم مقدمون عليه، من أخطار تتوقعونها؟!!

لا شك أن الأم فكرت بكل هذا وهي تستمع إلى الدكتور جلال، لكنها لم تنبس بأي كلمة جارحة ولا حتى خارجة عن حدود اللياقة.. كان الأمل يحدوها، ولا يزال يسيطر على كيانها.. فهي تخشى أن تتهم هؤلاء الذين أوصلوا ابنها إلى الحافة وتركوه يسقط.. لكيلا تزداد المعاناة.. إلا أن البياض ثوبٌ لا يليق بهم.

واقترح الدكتور جلال اسم الدكتور مأمون!!! وبعد ثلاثة أو أربعة أيام جاء الدكتور المعتصم بالله والدكتور ملاك وآخرون، أخبروا الأم أن الدكتور مأمون "جزم" أنه كرونز، لكنه اختلف مع متخصص آخر وهو الدكتور سركيس على حدة هذا الكرونز، وهم يريدون رأياً ثالثاً من أجل تحديد خطة جديدة للعلاج.. وهنا سألتهم الأم وفي نفس اللقاء ولأكثر من مرة:

"هل أنتم متأكدون أنه كرونز؟"..

تريد أن تتأكد من أنهم لا يشكون ولو للحظة واحدة بأنه مرض السرطان

المرعب.. فأجابها الدكتور ملاك: "نعم".. وكررها بكل تأكيد: "نعم.. نعم"..

قالها بحزم وثقة.. بطريقة تثبت في عقل السامع ولبه أنه واثق "جداً جداً" من كلامه!!!.. لكن! وبسحر ساحر وعمل عامل انقلب الدكتور ملاك على هذه "النعم" فجأةً، دون سابق إنذار!!! بل لم يكتف بذلك، فقد أنكر مقولته هذه بعد فترة وجيزة جداً، ليست شهوراً ولا أسابيع.. ولا حتى أياماً.. بل سويعات معدودات، ولم يتورع عن القول وبكل ثقة، و"مئة بالمئة"، وخلال أقل من نصف يوم، إنه كان يشك في هذا الاحتمال منذ البداية، ويعتقد أن ما أصاب منير ليس له علاقة بِـ(الكرونز) من قريب أو بعيد..

يا سبحان الله!!! يقول إنه استغرب منذ البداية كيف قالوا إنه كرونز!!! أي طبيب يليق به الثوب الأبيض يرضى بأن ينقلب 180 درجةً من دون سابق إنذار، من النقيض إلى النقيض، وبهذا الشكل السريع جداً.. وخلال سويعات معدودات؟؟؟!!! فكيف نثق بعد اليوم بمثل هذا البياض المزيف للحقائق.. المنكر للوقائع؟؟!! وما حدث بين هذا الموقف الأخير وما قبله وما يليه كان أشد ثقلاً من جبل على قلب بشر!!!

ففي صباح اليوم التالي للقاء الأم مع الدكتور المعتصم بالله والدكتور ملاك ومن معهما من أطباء، التقت الأم الدكتور حمد كبير الأطباء من جديد في بهو المركز، فقال لها إن الدكتور مأمون طبيب المختبر يؤكد أن المرض ليس كرونزاً، وطلب منها أخذ كل العينات لطبيبة مختبر أخرى متخصصة وتدعى الدكتورة فاطمة، وهي تعمل في مستشفى آخر..

وهنا أصيبت الأم بصدمة أخرى بالغة.. وحيرة ما بعدها حيرة.. يوم أمس بالتحديد، وليس قبله، قال لها مساعدو الدكتور حمد وبكل ثقة و"أمانة" ونقلاً عن الدكتور مأمون نفسه وليس مأموناً آخر: "إنه كرونز مئة بالمئة"، لكنهم مختلفون بدرجته، واليوم يقول رئيسهم المسؤول بكل بساطة إنه ليس كرونزاً..

ذكرته الأم بأنها يوم ظهور نتيجة فحص العينة وقالوا إنها كرونز، قامت وأحضرت له نتيجة عينة سابقة، وأشارت إلى النتيجة بإصبعها، وهذه النتيجة تنفي وجود أي دليل على أنه كرونز، لتقطع الشك باليقين.. لكنه استهزأ بحركة في يده، مصراً على رأيه.. على الرغم من أنه تمتم في نفس اللقاء إن الكرونز لا

يفعل بالمريض مثل حالة منير.. ومع ذلك تابع خطوات الكرونز..

يبدو فعلاً أن كلام الليل يمحوه النهار..

وتابع يقول بانشراح مبالغ فيه وهدوء نفس يحسد عليه: "نحن نشك بوجود نوع من نقص المناعة لديه".

ها نحن عدنا للشك بعد اليقين.. وللاحتمالات بعد الـ"مئة بالمئة".. أين كبرياء أحسن طبيب كرونز في البلاد؟؟؟؟!!!!.. يبدو أنه نسي عدم رغبته بأن يستشير أبو منير أحداً غيره باعتبار أنه طبيبٌ لامع؟! وها هو الآن ينكر وبكل "فخر"، وينقض كل أفعاله وأقواله السابقة بانشراح مريب، وكأن المريض الذي أمامه قطةٌ عرجاء أو نعجة جرباء!!!

ربما الحق معك يا سيدي.. ألستَ طبيباً "ماهراً" ومن حقك قول ما تشاء بغير حساب ولا من يحاسبون؟! بإمكانك يا سيدي أن تختم كل وصفة طبية بختم يقول: "طبيبٌ وأفتخر.. وخزى الله العيون". أما أنا فأقول لك نيابة عن كل عمال التنظيف: "يا سيدي لا تفتخر كثيراً.. فأنا أفتخر أكثر منك بمكنستي هذه، لأنني صادقٌ معها وبها، وهي تليق بي أكثر من لياقة ثوبك الأبيض بك.. أأنت الآن تطرح احتمال المناعة وتطلب أخذ العينة لطبيب آخر؟! شيءٌ عجيبٌ حقاً"..

كان العامل يتكلم مع نفسه وكأنه يخاطبه ويقول: "يا دكتور.. ألم يكن لديك وقت كاف طوال الشهور الماضية لكي تطلع وتدرك أن فحص المناعة أجري سابقاً؟؟؟ كيف؟! وأنت الطبيب الأول والأوحد، وبلا شبيه أو نظير في البلاد، باعتقادك وباعتقاد من يجاري أحلامك.. ألستَ أنت دكتور المئة بالمئة، ومن صرَخ على الأم وعرقل سفر ابنها المريض إلى الخارج يوم كان بإمكانه أن يسافر، وسخر منها لأنها تريد تسفيره للعلاج، لأنه يظن - ربما - إذا لم يعالجه هو؛ فلن يعرف أحد غيره ما هو العلاج.. كيف تغفل على الرغم من كل هذا عن نتيجة فحص سابق بهذه الأهمية التي تراها الآن؟؟ وقد طلبها من قبلك طبيبٌ شاب ليس بمدير ولا برئيس مركز ولا بكبير للأطباء؟! ألا تدري أنه تم إجراء فحص المناعة في البداية، عندما طلبه الدكتور المعتصم بالله من العينة التي أخذت من الأمعاء في المنظار الأول"..

ولعل هذا يشير "مئة بالمئة" إلى أن كبير الأطباء الدكتور حمد لم يكن يقرأ

تفاصيل الملف، ويأخذ القرارات جزافاً، ودليل هذا أمره باستئناف حقن ميوعة الدم لاحقاً.. ما هذه المفارقات الغريبة والمدهشة؟؟؟؟!!!!

كأن ما نراه ونسمعه ليس أكثر من مسرحية ركيكة البناء ضعيفة الإنتاج للغاية، لا يعرف المخرج ضبط إيقاع الممثلين فيها ولا تنظيم حركاتهم، ولا يعرف كاتب النص أن يطور المشاهد، ويحبك الأحداث بطريقة فنية ماهرة، ولا ينجح في ترتيبها الزمني والمنطقي المترابط بإحكام، بشكل يقنع معه الممثلين في فصولها قبل أن يقنع المشاهدين لها والمستمعين إليها بأن ما يجري على خشبة المسرح يمكن أن يجري في ردهات المستشفى وغرفه.

وقال الدكتور حمد: "يجب أن يجتمع طبيب المناعة الدكتور محمد وطبيب الغدد الدكتور عبدالعظيم مع الدكتور جلال لبحث موضوع منير"..

كان كما يبدو يحاول التنصل مرةً أخرى من الموضوع، فسألته الأم برجاء وتوسل: "بما أنك أنت كبير الأطباء هنا؛ نرجوك أن تستعجل الأمر، فحالة منير شديدة الحرج".

فقال لها بكل هدوء وبرود: "عندما يجد الشباب وقتاً فسوف يجتمعون بكل تأكيد".

وهكذا بعد نحو شهر اعترف الدكتور حمد بأنه لم يكن كرونزاً، وطلب الذهاب بالعينات إلى طبيب آخر بعد أن كان رافضاً ذلك، علماً أنه هو نفسه كان في البداية مستبعداً أنه كرونز، لكنه فجأة قرر ذلك بعد أخذ عينة من الأمعاء، وأكد ذلك بـ"مئة بالمئة".. أما اجتماع "الشباب" فعلى راحتهم، لأن الأمر لا يستحق العناء.

حسَاسيةُ القمْح

حاولوا التنصل مما أقدموا عليه من تشخيصات خاطئة

الأمراض النادرة التي تتطلب منهم وقتاً وتمحيصاً وتركيزاً.. ليست بأمر مهم

عن أي حساسية تحدثت الدكتورة سعاد وهي في مكانها البعيد تسكن برجها العاجي؟!

كيف يا ترى تغيرت آراؤهم بين ليلة وضحاها؟!

جاء الدكتور ملاك بعدما تبينوا خطأهم بأن مرض منير ليس كرونزاً، وقال لأمه إنه استغرب منذ البداية كيف قالوا إنه كرونز، ومثله أيضاً الدكتور جاسم، وهناك غيرهما أيضاً ممن قالوا لاحقاً إنهم كانوا يشكون بأن مرض منير ليس كرونزاً.. وكلهم حاولوا التنصل مما أقدموا عليه في هذا التشخيص بالذات.. ولعل ذلك أمرٌ غريبٌ حقاً، وربما قد يكون أغرب من كل ما مضى من أحداث.. كيف يا ترى تغيرت آراؤهم بين ليلة وضحاها؟!

لم أفهم كيف تبدلت قرارتهم وتوصياتهم والـ"مئة في المئة" خاصتهم في غضون ساعات؟! ولماذا لم يجتمعوا للنقاش وطرح هذه الآراء قبل تعريضه لإجراء الكورتيزون على الرغم من ضعف جسده وتكرار التشخصيات الخاطئة؟ ألم يكن الأولى لهم أن يطرحوا هذا الموضوع للبحث والدراسة، أم أنهم مشغولون بأمور أخرى، وليست الأمراض النادرة التي تتطلب منهم وقتاً وتمحيصاً وتركيزاً.. بأمر مهم لكي يخصصوا له جزءاً من أوقاتهم "الثمينة"؟! أم أنهم فقط يتباهون عند السفر لمستشفيات خارجية بأنهم يجرون أبحاثاً مهمة؟؟

ألم يكن الأولى لهم أن يجروا أبحاثاً على مريض يموت بين أيديهم؟ بدلاً من أن يتركوه يصارع المرض، وفوق المرض تشخيصاتهم الخاطئة؟ عجباً منهم وألف عجب!!! كما أنهم لم يكتفوا بالصمت، وحبذا لو فعلوا، بل أكدوا ما لم يتم التأكد منه..

وبعد ذلك قرر الدكتور جلال أن المرض سببه حساسية القمح، وذلك بسبب ارتفاع نتائج فحص معين أجري في السابق في قسم الباطنية، لكن أطباء الباطنية في ذلك الوقت وعند صدور نتيجة الفحص استبعدوا ذلك، قائلين: "إن هذا الارتفاع المحدود لا يعني الإصابة بحساسية القمح"..

لكن الدكتور مرعي والدكتور جلال أصرا – كلاً على حدة – على أن: "ما يحدث لمنير سببه كله حساسية القمح"..

وعند مواجهتهما برأي أطباء الباطنية قالا في وقت منفصل أيضاً: "إن حسابات أطباء الجهاز الهضمي تختلف عن حسابات قسم الباطنية".

علماً أن هذا الفحص مضى عليه نحو أربعة أشهر.. وكما يبدو فإن حسابات كل طبيب تبنى على حسابات تختلف، وإن كان المريض لم يختلف..

ونقل أحد الأطباء عن الدكتورة سعاد – التي قالوا إنها أستاذة كبيرةٌ في كلية الطب

وطبيبةٌ ماهرةٌ جداً لكنها لم تدخل يوماً إلى غرفة منير – القول بأنها شخصت مرضه على أنه حساسية القمح، ولم تجد الدكتورة سعاد حلاً سوى أنْ تلقي باللائمة على منير لأنه لم يستجبْ للعلاج.. علماً أن منير لم يخضع لأي علاج خاص بحساسية القمح، باستثناء الامتناع عن الطعام العادي، والاقتصار على المواد الخالية من القمح، ما زاده نحافةً وتضرراً.. فعن أي حساسية تحدثت الدكتورة سعاد وهي في مكانها البعيد، تسكن برجها العاجي؟! وما هي طرق التشخيص والعلاج الغريبة العجيبة المتبعة في هذا المستشفى الذي لا طبيب فيه يعاين المريض ولا علاج يصيب؟؟؟!!

وكان الدكتور جاسم أكد فيما سبق جازماً، وأيضاً "مئة في المئة" أن منير ليس مصاباً بحساسية القمح.

كلها تجاربٌ في تجارب، نتاج أوراق وأقلام وقيل وقال.. كما قال يوماً ممرض يليق به اللون الأبيض وهو يبوح بألم قريباً من غرفة منير.. وبالتالي يستمر مسلسل الأخطاء المتتالية كنتيجة حتمية لكل هذا الاستهتار بحياة الناس، والإهمال المستشري مثل السرطان.. وإنني لأعتقد "جازماً" وبكل ثقة وأمانة و"مئة بالمئة" أن هؤلاء الذين يخطئون بحق المرضى ولا يقومون بالدور المنتظر منهم؛ هم الوباء الحقيقي، بل هم أخطر بكثير من المرض نفسه.. ويشكلون عبئاً جسيماً، فهم يعاونون المرض على الفتك بالمريض..

والسؤال المهم؛ أين كان أطباء الجهاز الهضمي منذ ذلك التاريخ، ولم يناقشوا هذا الأمر مع أطباء الباطنية؟! كما أنهم لم يشكلوا لجنة إلا في الأسابيع الأخيرة التي سبقت وفاته.. كما أنَّها استبعدت من عضويتها الدكتور عبدالعظيم والدكتور جلال، على الرغم من أنهما كانا أبرز المتابعين لحال منير..

ولا أدري حقيقة كيف اجتمعت هذه اللجنة التي علمنا أنها اجتمعت على "الواقف"، كما قال أحد الأطباء بأن الاجتماع كان "على الواقف".. ولا أدري إن كان هذا الوصف على سبيل المجاز أم الحقيقة؟! أو ربما على سبيل "المزاح"؟! أم هل كان يقصد أنه تم سلق الاجتماع "سلقاً"، أم أنه كان اجتماعاً شكلياً عابراً، ليقال إنهم اجتمعوا "سداً للذرائع"؟! أو بالأحرى سداً للأفواه! أو تم في سياق لقاء عادي، خاصة أن الدكتور حمد قال سابقاً:

"عندما يجد الشباب وقتاً فسوف يجتمعون بكل تأكيد".

وكأن حال منير ليست بهذه الأهمية البالغة ولا الخطورة الشديدة، وما دام هو في مستشفى حكومي فعليه أن ينتظر فراغ "الشباب" من أعمالهم الخاصة، لأن وظيفتهم لا تلزمهم بشيء مثل هذا، فحياته التي انتهت سريعاً كما هو مقدر لها في اللوح المحفوظ؛ ليست جديرةً بلقاء سريع، يناسب المستوى الذي يليق بهم!!!.. فلا شيءٌ يستوجب اللقاء فوراً.. بل على "الراحة" و"المزاج الرائق"، والظروف المناسبة لكل واحد منهم.. فهم عندما يجدون وقتاً غير مخصوص لهذه الحال على الرغم من خطورتها لكي يجتمعوا فيه.. فسوف يجتمعون.

طبعاً باستثناء طبيب واحد مع أنه كان مستعداً ومتأهباً في كل لحظة، وهو الدكتور عبدالعظيم.. فهو الطبيب الذي وضع نفسه في خدمة منير في الصباح وفي المساء، وفي الليل وعند الفجر، وفي كل الأوقات.. حتى في الوقت المخصص لعائلته في العطل والسفر والأعياد. فكان هو الطبيب "الطبيب" الذي يليق به الثوب الأبيض بكل استحقاق وجدارة، مع قبلة على الرأس.

ويقول عامل التنظيفات في شهادته التي لم يطلع عليها القاضي:

"كم كنت أتمنى أن أكون مثل هذا الطبيب الإنسان، وأن أعود إلى قريتي لأدرس من جديد، أجد وأتعب من أجل حياة الآخرين.. بابتسامة صادقة.. كابتسامته التي تشبه ابتسامة جدتي ذات القلب الكبير، التي كانت تداوي الناس بزيتها اللماع، وبقلبها المفعم بالإحساس الصادق والمشاعر المرهفة، استبعدوه كما استبعدوا معه الدكتور جلال، وربما أشياء أخرى لا ندري عنها كانت لها قيمة".

ومن يومها لم يعد الدكتور جلال يأتي إلى غرفة منير، ولم يعد يسأل عنه، فيما أبدى الدكتور عبدالعظيم امتعاضه الشديد وانزعاجه البالغ وتحفظه الواضح، لكنه وبرجاء من الأم والأب عاود المجيء، وصار يأتي تطوعاً من تلقاء نفسه، حرصاً منه على حياة منير أولاً، غير عابئ بما كانوا يقولون له، فكأنهم يرون في حرصه وتفانيه، ما يقلل من مستوى "الاستعلاء" الذي أرادوه للطبيب على المريض.. فهل المريض وهو في وضعه يفكر أو يتقبل مجرد التفكير بأن هناك من يستعلي عليه؟! وهل يمكن للإنسان الواعي الطبيعي أن يدوس على مشاعر مريض ويستخف به وبمرضه.. وكأن من يفعل ذلك بمنأى عن المرض والداء، والموت الحتمي الأكيد؟؟!

وكانت توصيات الاجتماع غريبة للغاية، وكل ما توصل إليه هذا الاجتماع السريع

و"على الواقف" قرار بسيط؛ فعندما وجد "الشباب" وقتاً قرروا وبالإجماع: أخذ عينة من النخاع العظمي للبحث، عن شيء مفقود لا يدرون ما هو تماماً! ويا ليته ما كان الاجتماع ولم تكن العينة؛ فقد أخذوها من منير وهو في وعيه الكامل، على الرغم من حاله شديدة الصعوبة، والتي "تصعب على الكافر" كما يقولون.. ولا أحد يدري ما هو السبب الذي دعاهم لعدم تخديره ولو موضعياً!! فهل كان هناك أسباب طبية معينة تستلزم ذلك، ودون أن يشرحوا إن كان هذا صحيحاً أم خطأ! فقد كان صراخه المرير يهز القلوب الطيبة الرحيمة..

الممرضات والممرضين بكوا بكل ألم، حتى أن إحدى الممرضات لم تقوَ على التحمل، فخرجت من الغرفة التي كانت مسرحاً لأخذ العينة، وهي تجهش بالبكاء بقلب أم نازف.. سجلت نفسها في لائحة الشرف، في قائمة الأسماء التي يليق الثوب الأبيض بأصحابها.. والغريب العجيب أنهم لم يخضعوه للتخدير الشامل، ولا حتى الموضعي.. نقروا عظم حوضه في لحمه الحي وهو يقظ واع.. كما "ينقر" نقار الخشب جذع شجرة خضراء في قلب الغابة، فيحفر بها عميقاً دون هوادة..

ويضيف العامل: قضيت فترةً طويلة بعدها أتخيل هذا المشهد الرهيب وأعيد تفاصيله.. أتألم من مجرد التفكير بما حدث من شدة الهول الذي يؤكده صياح هذا الغلام الصغير، العظيم في صبره وفي تحمله، وفي موته بعد ذلك.. وعلى الرغم من كل ما عاناه بسبب هذه العينة؛ فإن العملية برمتها كانت "من دون فائدة" و"غير ضرورية"، بحسب قول بعضهم، قبل القرار وبعده، وقبل العملية وبعدها.. ومن ذلك قول الدكتور جلال قبل عملية "نخر" العظم: "ليس لها فائدة"..

وليس ذلك فقط، بل حتى تقرير لجنة التحقيق المقدم للمحكمة أفاد بأن هذه العملية لم يكن لها أهمية، وأجروها رغم "ضآلة" الاحتمالات المتوقعة منها.. ولم تكن كلمة "ضآلة" محطة مهمة ترشد القاضي إلى خطورة ما أقدموا عليه من عملية أضرت بالطفل وزادت من آلامه وجروحاته دون فائدة ترجى، وكأن أي احتمال ولو ضئيل للغاية مبرر لتعذيب طفل بعملية لا ضرورة لها، وحتى دون تخديره وتركه تحت رحمة المبضع.

ثم طلبت اللجنة الطبية في اجتماعها "الواقفي" نفسه أو بعده، لا أدري تحديداً إجراء بعض الفحوصات الخاصة بالمعادن، وجاء الطبيب المشرف اليومي وهو الدكتور

خليل ليقول: "اللجنة طلبت إجراء هذه الفحوصات".. لكني لم أكن مقتنعاً مثل أمه وأبيه – كما لم يكن الدكتور خليل مقتنعاً – بهذه الفحوصات الغريبة التي لم يفكر بها أحد إلا عند اجتماع اللجنة.. مع أنني لم أصدق أساساً بأن اللجنة اجتمعت حقاً وتباحثت، لكنهما ظلا صامتين على أمل.. لأنَّ حياة ابنهما ما تزال معلقة بين أيديهم..

والمدهش أن الدكتور خليل نفسه لم يكن مقتنعاً بفحص المعادن كما قال ذلك فيما بعد، لكنه لم يصرح في حينه بل لمَّح إلى أن الفحص لن يأتي بجديد.. وهذا سر "الطبيب المدهش" الذي يفعل ما لا يرى فائدة فيما يفعل.. وكان التالي أدهى وأمرَّ! فبعد يومين بالتحديد سألت الأم الدكتور خليل:

"ماذا ستفعل اللجنة يا دكتور؟"..

فأجاب الأم المحتارة وفي عينيه شك يؤكد عدم اقتناعه بما يقول:

"اللجنة تنتظر نتيجة فحوصات المعادن؟"،

"أنت قلت سابقاً إن فحوصات المعادن ليس لها فائدة، وأنها لن تأتي بجديد، والآن كل شيء متوقفٌ بانتظار النتيجة؟".

فقال لها الدكتور خليل هامساً بصوت منخفض خائف من أن يسمعه أحد: "يا ابنتي انسي هذا الكلام الذي قلته.. انسي".. ويقصد قوله: "إن نتيجة فحوصات المعادن لن تقدم ولن تؤخر"..

فهو يريدها بكل صفاء سريرة وطهارة نفس أن تنسى كلامه وتحليلاته.. ولعله "نسي" أيضاً أن الله يسمع ويرى، ويسجل كل كلمة، وكل موقف، وكل نقطة دم سالت من جسد منير من دون وجه حق.. وكل وجع توجعه بسببهم من دون فائدة.. ولمجرد تجارب واهمة، ونتيجة اجتماع "على الواقف"..

الدكتور المشخصُ عنْ بُعد

قبل وفاة منير بنحو أسبوعين أو ثلاثة ظهر فجأة الدكتور صابر – يضيف عامل التنظيفات – ولم نكن قد رأيناه قبل ذلك، على الرغم من أننا كنا نسمع باسمه كل يوم تقريباً، وعندما تسأل أم منير عنه يقولون لها: "إنه يتابع عن بعد".. ويعد الدكتور صابر من كبار الأطباء في مركز الجهاز الهضمي، لكنه كما يبدو مشغولٌ على الدوام، وليس لديه وقت "فراغ" كبير يتيح له زيارة المرضى في غرفهم، علماً أنه من المفترض أنه من الأطباء المعنيين ومن ذوي الأهمية الكبرى في المركز.. ومع أن المريض الدائم الوحيد في المركز طوال شهور عديدة كان منير فقط، ونادراً ما كنا نجد مرضى غيره في الجناح حيث كانت غرفته، لم نتشرف برؤية الدكتور صابر على الإطلاق.

وعلى الرغم من أن منير كان المريض الوحيد تقريباً الموجود بصفة دائمة في غرفة مفردة في جناح الرجال بالمركز، فيما تبقى معظم الغرف الأخرى – مفردة وثنائية – خاليةً من المرضى أغلب أيام الأسبوع، وأحياناً لأيام عدة يكون منير المريض الوحيد في الجناح؛ فإنه لم يسبق له الحظ بأن يحظى بشرف استقبال الدكتور صابر قبل اليوم منذ شهور خلت، علماً أنه لم يحضر من تلقاء نفسه، بل بعد حديث مسهب لوالدي منير مع الدكتور خليل.

وكان الممرضون والممرضات يضيقون ذرعاً من تكبر بعض الأطباء، لكن الأب والأم لم يكونا مشغولين بتحليل شخصية كل طبيب بقدر انشغالهما بوضع حد لهذه المأساة التي يعيشانها مع ولدهما النبيل منير.. وفي ذلك اليوم ناقش الأب والأم موضوع الدكتور صابر مع الدكتور خليل، وتساءلا عن طريقة تدخله في التشخيصات، وحدثه عن الأخطاء المتكررة، والأدوية غير الصحيحة، مشيرين إلى مشاركته في الاجتماع الخاص بمنير، ومع ذلك لا يقوم بزيارته وفحصه مرة واحدة.. علماً أن الدكتور صابر يكتب دائماً على صفحته في موقع التواصل الاجتماعي (تويتر) أن رؤية المريض من الضرورات الأساسية التي يتطلبها التشخيص، وذلك للاطلاع على حاله وتطورات مرضه عن قرب.

وامتد الحوار حول التشخيصات الخاطئة التي أصبحت عادةً متكررة بشكل لافت.. وكان الأب والأم يقولان إن ذلك ناتج عن عدم الاطلاع المباشر على المريض.. فمنذ متى يُعاين الطبيب ويحلل ويستنتج ويقرر من دون رؤية المريض، ولا حتى مرةً واحدة في غضون أشهر عديدة؟!

والدكتور صابر لديه عيادة خاصة بعيداً عن المستشفى الحكومي، يستقبل مرضاه الخصوصيين بابتسامات عريضات، ومن كلماته المأثورة: "عند الضرورة لا بد من مراجعة

الطبيب للمعاينة المباشرة".. وهو يقصد طبعاً المعاينة في تلك العيادة الخاصة، بينما كان يضن على منير بنظرة شفقة، لأنه نزيلٌ في مستشفى حكومي.. فيما هو يهاجم دائماً على تويتر من يسميهم بتجار الطب.. ويردد على صفحات التواصل الاجتماعي إن: "من أسرار الجمال كثرة الابتسام".. ومع ذلك، فإنه عندما دخل غرفة منير بدا شديد التجهم والغضب، دخل الغرفة مقطب الجبين، عاقد الحاجبين، واضعاً يديه خلف ظهره، يمشي واثق الخطى عالي الرأس، يلامس بأنفه سقف الغرفة.. يبحث عمن تجرأ وتحدث عنه وعن أسلوبه في التعامل مع المرضى.

وكأنه ليس من حق المريض الفقير المقيم في المستشفى الحكومي، ولا من حق أهله، ولا معارفه، ولا أحبائه، ولا الدنيا بأجمعها.. أن يتكلموا ويستفسروا.. ولا حتى أن يروا بأم العين الطبيب الذي يشخص المرض.. يكفي أن يروه عبر تويتر، أو أن يسمعوا باسمه فقط، فهذا وحده كاف تماماً بحق المريض المسكين، وربما هذا سرٌ من أسرار الحياة الإنسانية في المستشفيات الحكومية!

والمثير للشفقة حتى الثمالة أن من نلتقي بهم من الممرضات والممرضين ومن مختلف الجنسيات كانوا يشكون من عبوسه الدائم في وجوههم وارتفاع صوته عليهم، بينما هو يقول في المقابل على صفحته في تويتر:

"الصوت الهادئ أقوى من الصراخ.. والتهذيب يهزم الوقاحة.. والتواضع يحطم الغرور".

الكلام صادق.. أما الأفعال فلا تنطبق.. والذي لا يعجبه فإن باب المستشفى مفتوحٌ على مصراعيه!

ومن كلامه المأثور أيضاً وأيضاً وصحيحٌ "مئة بالمئة":

"الأخلاق هي التخصص الوحيد الذي لا يُدرس في الجامعات!".

ومن أغرب ما قرأناه تغريدة الدكتور صابر نفسه:

"من الصعب علي أن أنصح المريض من دون معاينة"..

لكنه مع ذلك – وبكل أسف – صرح بلسان نفسه، واعتقدنا لوهلة أننا مخطئون، فلعله شخصٌ آخر يحمل نفس الاسم، ولديه الجسم.. لكنه ليس هو، لأن الكلمات كانت مغايرةً تماماً لأفعال قائلها، فهو قال شيئاً آخر في مكان آخر وبكل "جرأة"، فيما استحى البعض من زملائه من أن يصرحوا قولاً وعلناً من دون أن يكتموا تصريحاتهم فعلاً؛ كان يقرر ويشخص حال منير دون معاينة، لأنه عندما يقول ذلك على تويتر يقصد المعاينة في

عيادته الخاصة دون العامة، وفي المستشفى الاستثماري وليس في المستشفى الحكومي.

لأن الخاص فيه عصرٌ لجيوب المرضى، لكن لا بد من بذل أقصى الجهد ولو بالتمثيل، أما العمومي ففيه عصر لجيوب الحكومة، والأخيرة مضمونةٌ، وستدفع في كل الأحوال، فلماذا التعب ووجع الرأس؟ والأفضل توفير الجهد للرزق الآخر غير المضمون إلا بالمعاينة المباشرة.. وهكذا ينمو الدخل ويزداد "الرزق" وتتضاعف الثروة.. بغض النظر عن المريض والعلاج والإنسانية جمعاء.. وقد يكون الشعار كما في الأمثال الشعبية: "الدين ممنوع، والعتب مرفوع، والرزق على الله"..

أما فيما يتعلق بـ"الحكومي" فقد قال الدكتور صابر بكل "أدب":

"نحن مستشفى حكومي"..

وفي هذا تصريحٌ جريءٌ يبلغ حداً بعيداً، لأنه يقول بذلك شكلاً ومضموناً وفعلاً: إن شعار "الإنسانية" لا بد وأن يسقط عند مدخل المستشفى الرسمي العام!!! وهذا الكلام لا يقتصر على مكان محدد، بل يمكن أن يتمدد هذا التصريح "الكارثي" لتعم نظريته كثيراً من المستشفيات القريبة والبعيدة حول العالم، إلا من رحم ربي من الأطباء العموميين.

وما دام الأمر كذلك؛ لماذا لم يقل هذا الكلام منذ البداية للأسرة المنكوبة بكل أبيض لا يليق بكم؟؟؟ لو أخبرهم الحقيقة في اللحظة الأولى، قبل التجريب والتدريب والترهيب، والسعي لحماية "التيم" – كما قال – عوضاً عن حماية المريض، كان وفر عليهم المعاناة والتعب، أو بالأحرى "الموت"، وربما أفلح في عصر جيوبهم مقابل عصر فكره، ولم يكونوا ليعترضوا، لأن الضمائر الإنسانية عند بعض من يرتدي الثوب الأبيض في سبات عميق، لا تصحو أبدانها ولا "تصفو" أجواؤها إلا عند ارتفاع الحسابات وسماع رنين الدراهم وصرير القلم على دفتر الشيكات.

إن تصرفات الإنسان يجب أن تكون واحدة، لأنَّ الأخلاق لا تخضع للبورصة، ولا تتذبذب مع تغير المكان أو الزمان أو أحوال الطقس، سواء أكان الإنسان (الإنسان) في عمل حكومي يتقاضى عليه راتباً مقطوعاً من دون أن يحاسبه أحدٌ، أو كان في عمل خاص يحرص على إرضاء الزبائن.. والمؤكد تماماً: أن من يفرق في عمله بين من يتعامل معهم قياساً على ما يحققه من مردود مادي، فإنه يخفق في كسب رضا الخالق ويفلح في كسب سخط المخلوقين، وإن كان حرصه على إرضاء زبائنه أثمر في عصر ما تخفي الجيوب، فإنه نجح في المقابل في كشف ما يستره من عيوب.

وعندما جاء الدكتور صابر بعد اعتراض الأم والأب على عدم حضوره طوال هذه الفترة أمام الدكتور خليل، وبدلاً من قيامه بالدور الذي يجب أن يضطلع به الطبيب مع المريض، قال للأم والأب كلاماً خطيراً: "إن منير مقيم في مكان خطأ.. فهو يجب أن يكون في جناح الباطنية وليس في جناح الجهاز الهضمي".

ثم قال موجهاً كلامه إلى الأب: "إذا كنت تريد نشر هذا الكلام.. فانشره"..

في إشارة منه إلى أن إذاعة ذلك على الملأ أمرٌ لا يهمه على الإطلاق، وليس عنده أي تحفظ من نشر هذا الكلام الخطير، في الصحافة وفي الإذاعة.. أو في رواية.. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا هذا الكلام خطير؟؟؟!! أما الجواب فيكمن في السؤالين التاليين:

أولاً: لماذا إذن تم نقل منير من الباطنية، بعد نحو ثلاثة شهور من إقامة مستمرة فيها، إلى مركز الجهاز الهضمي وهو لا يحتاج إلى ذلك النقل؟؟؟

ثانياً: إذا كان مكانه المناسب هناك – وفي وهذا خلل كبير – كيف يضعون مريضاً في مكان غير مناسب لمرضه طوال هذه المدة؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!

ولهذا قال عامل التنظيفات في شهادته إنه يعتقد أنَّ الدكتور حمد وفريقه بعدما ظنوا أن مرضه كرونز؛ أرادوا قطف "ثمرة الانتصار" على المرض، كما توهموا، وعندما اكتشف الدكتور حمد خطأه التشخيصي، بعد إعطائه كمية كبيرة من الكورتيزون لا تتناسب مع وضعه الصحي؛ طلب إعادة منير مرة أخرى إلى الباطنية، خاصة إنه قال أمام مدير المستشفى خلال تلك الفترة:

"إن خطئي الوحيد هو أنني نقلت منير من قسم الباطنية".

وهذا يعني أمراً مهماً جداً وخطيراً، تدل عليه الوقائع وهو: أن الدكتور حمد بعد أن تبين خطأ تشخيصه، وبعد تردي حالة منير من الإبر التي أمر بها، طلب إعادة منير إلى قسم الباطنية، لكن أطباء الباطنية رفضوا ذلك، ولم يقبلوا إعادته إلى هناك تحت أي اعتبار، على الرغم من رأي الدكتور صابر ومن معه من الأطباء بأن مكانه الأنسب هو قسم الباطنية.

وهذه المواقف – من هنا أو من هناك – تبين بكل وضوح لا يرقى إلى أدنى شك؛ أن أطباء الجانبين – ذوي العلاقة طبعاً – أرادوا التخلص من منير، وكأنه أصبح بالنسبة لهم هماً كبيراً، ويبدو أن أطباء الباطنية انشرحت صدورهم بعد التخلص منه فكيف يعيدونه

مجدداً إليهم؟! حتى وإن كانت حالته تستوجب ذلك؟! وفي ذلك قمة في كلمة لا يمكن التعبير عنها بسهولة..

وهكذا قرر الدكتور حمد أن يدع منير لمصيره المحتوم، بحيث لم يدخل غرفته مرة واحدة، كما فعل أطباء الباطنية الأمر نفسه، فلم يأتوا لكي يطمئنوا عليه بعدما انتقل إلى مركز الجهاز الهضمي، وحتى الطبيب الذي تابعه نحو ثلاثة أشهر لم يتكرم بالسؤال عنه ولا مرة واحدة ولو عن طريق الهاتف، وهو الدكتور ساجد الطبيب نفسه الذي قال لأبي منير سابقاً:

"نحن لا نتعاطف مع المريض"..

وهو نفسه أيضاً الذي قال عند باب غرفة منير للأطباء بصوت منخفض معتقداً أننا لم نكن نسمعه:

"يا جماعة.. شغلوا رؤوسكم، فلو حدثت له أي مشكلة فسوف تحل علينا كلنا داهية"..

وهو يعني بذلك أنه يخشى على "داهيته" ولا يهمه ما يحصل من "دواه" للمريض.. ومن جانبه كان الدكتور خليل يردد دائماً: "منير بحاجة لتغذية وريدية، لكن الأمر يتطلب مناقشةً مع الفريق".

وفي كل مرة يقول: "الفريق يخاف من تكرار حاله السابقة التي أدت إلى ارتفاع الحموضة"..

علماً أن ارتفاع الحموضة كان سببه عدم تعاون أطباء التغذية الوريدية مع أطباء الكلى، وهذا بتصريح سابق من الدكتور جاسر طبيب الكلى.

وفي يوم انخفضت درجة حرارة منير كما انخفض ضغطه، فأصابهم قلقٌ.. وهذا القلق لم يكن على مصير المريض، بل كان القلق "على أنفسهم" لخطورة الوضع - وهذا ما تبيناه بوضوح عند وفاته - فقرروا فجأةً مده بالتغذية الوريدية بعدما فقد كل قدراته الظاهرة والباطنة.

وهنا عاد الدكتور صابر في زيارة كانت الثانية له والأخيرة، ليس بهدف الاطمئنان على حال منير وإنقاذه مما هو فيه، بل كان هدف الزيارة الضغط على الوالدين للموافقة على نقله إلى العناية المركزة بهدف حماية فريقه كما قال حرفياً هو بنفسه: "أريد حماية الـ Team".. دون أي اعتبار لحماية منير والحفاظ على حياته. ولست أفهم؛ هل حماية "التيم" في المستشفيات أضحت أهم من حماية المريض؟؟؟!!!

وكما قال عامل التنظيفات سابقاً: فإن هذا الكلام القديم الجديد شيءٌ عجيبٌ غريب..

وفوق ذلك فريد .. علماً أن منير كان وقتها في كامل وعيه، وأصروا على نقله، واتهموا أمه وأباه بأنهما "يرفضان نقله إلى المكان الذي يجب أن يكون فيه"، حسبما كانوا يشيعون، وكأنه أصبح هماً ثقيلاً على قلوبهم ويجب التخلص منه بأي طريقة كانت..

وارتدت الحسرة عليهم، عندما جاءت المفاجأة التي هزمتهم وهزأت بهم جميعاً، لأن الدكتور صابر لم يكن ليتخذ هذا القرار المفاجئ من دون موافقة كبير الأطباء وتحديداً الدكتور حمد.. وكانت المفاجأة غير السارة لهم أن طبيب العناية المركزة الذي أتوا به لكي يساندهم في مسعاهم ويدعم مبتغاهم، كان لسوء حظهم من الأطباء النخبة الذين يليق بهم الثوب الأبيض..

فبعد أن أجرى الطبيب "المنقذ" فحصاً شاملاً لمنير؛ رفض كل مزاعمهم، وقال بكل ثقة وإيمان واحترام واقتناع: "إن حال منير لا تستوجب نقله إلى العناية المركزة".. عندها سقطت كل أقنعتهم ومزاعمهم، وتعرت محاولاتهم الهادفة للتخلص منه، بحجج واهية لأنهم يريدون "حماية الفريق"، بغض النظر عن مصلحة المريض الذي يستحق عناية حقيقية كاملة وليس عناية مركزة لا تناسب حاله، غير أن هذه العناية للأسف لا تتوفر لأمثاله بسهولة، إلا من رحم ربي..

ويستعيد عامل التنظيفات موقفاً مشابهاً مع الدكتور دحدوح، مدير المنطقة الصحية والمسؤول الأعلى على المستشفى، وذلك عندما تدخل شخصياً من أجل نقل منير إلى العناية المركزة، لكن الطبيب المسؤول في العناية المركزة رفض ذلك، لأن الرداء الأبيض يليق به أيضاً.. لكن الدكتور دحدوح أنكر ما قاله الطبيب، زاعماً أن أبا منير هو من رفض نقل ابنه إلى العناية المركزة.. وكرر موقفه على حسابه في (تويتر) بالرغم من أن والد منير سبق وفعل، لكن منير هذه المرة في حال صحية جيدة، لا تتطلب نقله إلى مكان يسبب له جرحاً غائراً في نفسه، وبشهادة الطبيب المسؤول الذي أرسله الدكتور دحدوح.. لكنها تستوجب عناية حقيقية يحتاجها المرض نفسه، لا أن يلقى وحده في العناية المركزة ليتخلص "الفريق" منه، ليفعلوا به ما يريدون بعيداً عن اطلاع الوالدين على ما يجري لولدهما.. حيث يمكن أن يتيبس جسده دون مبالاة منهم، كما حدث مع ساقه التي تيبست تماماً في المرة الماضية، وبقيت متيبسة حتى وفاته، جراء تخديره وإهماله وتركه دون تحريك أعضائه.

وكان منير في هذا الوقت يبكي متحسراً على نفسه، فقالت الأم للدكتور صابر برجاء

واستعطاف، وكأنه لا يعلم هذه الجملة التي تقولها أم خائفة على ولدها: "إنه طفلٌ وعلينا مراعاة نفسيته".

فقال الدكتور صابر على مسمع من منير باستهزاء ظاهر للعيان: "أم منيـــــــــر!!!"..

ومط كلمة منير مطاً طويـــــــلاً. ثم قال متابعاً كلامه: "أنا قبل يومين كنت حزيناً ولم يحدث لي شيء".

وهنا قال منير لأبيه وهو مستمر في البكاء والدموع تتساقط من عينيه: "يا أبي.. سفرني.. أريد أن أسافر بعيداً عن هذه المستشفى"..

فلم ينتظر الدكتور صابر رد أبي منير، فاستبقه إلى القول بأسلوب ساخر أكثر من السابق: "كيف يسفرك وأنت على هذه الحال يا منيـــــــــــر!!!"..

ومط الكلام من جديد، من دون مراعاة لمشاعر هذا الغلام الصالح النبيل، ومن دون احترام لجرحه النازف الغائر، ولاقتراب ساعته التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، كما كان يبدو جلياً!

وفي اليوم نفسه طرحت الأم موضوع الفيتامين (دي) على الدكتور خليل والدكتور صابر معاً، لأنَّه وقبل يومين أخبرها الدكتور خليل أن هذا الفيتامين منخفض جداً، ومن الضروري أن يأخذ منير حقنةً منه، فسأل الدكتور صابر الدكتور خليل عن مستوى هذا الفيتامين لدى منير، فأجابه بأنها (سبعة ونصف)..

فقال الدكتور صابر ساخراً: "أنا معي 9 وأقف أمامكم".. عندها تدخلت طبيبةٌ حضرت مرات قليلة من باب الفضول - ربما - ثم ما لبثت أن اختفت فجأة كما ظهرت فجأة.. وقالت: "معظم السكان هنا لديهم نقصٌ في فيتامين (دي)".. وهي تقصد أن الأمر ليس بذي أهمية.. وبعد نحو ساعة أو ساعتين، حضر الدكتور عبدالعظيم فأخبرته الأم بما حدث، فقال لها: "إن هذا الكلام لا ينطبق على حال منير، لأن نقص الفيتامين عنده سيؤدي إلى تضرر سائر الجسم من خلال تضرر الفيتامينات الأخرى".

وطلب على الفور حقنه بإبرة الفيتامين (دي)، ولم يغادر غرفة منير رغم تأخر الوقت حتى يتأكد بنفسه أنه أخذها من دون أن تحدث له مضاعفات بسبب الحال الحرجة التي يمر بها، والتي تتطلب عناية خاصة، لم يكن يحرص عليها أشد الحرص أحد أكثر من الدكتور عبدالعظيم.

السنترال لاين

خرج الطبيب من الغرفة بعد أن رسم على جسد منير كدمات متفرقة لا تحصى

لم يكن لقاء عطوفاً مع إنسان يعرف ما معنى الألم بل مع مقاتل محترف

أطباء العناية لا يأتون إلا بعد ساعات غالباً لانشغالهم الشديد

الاتصال بالطبيب المسؤول كان ممنوعاً وتحت أي ظرف كان

في أحد الأيام انسدت إبرة السنترال لاين، ولم يتمكن الممرضون في الجناح من إيجاد وريد واضح المعالم يضعون فيه أنبوب التغذية والمحاليل نظراً لجفاف شرايين جسمه، فطلبوا طبيباً من العناية المركزة..

وكان أطباء العناية لا يأتون إلا بعد ساعات غالباً لانشغالهم الشديد مع كثرة المرضى وقلة عددهم، لكن الطبيب حضر هذه المرة سريعاً بسبب ارتفاع البوتاسيوم لخطورته على الجسم برمته، علماً أنه في بعض الأحيان تكون عينة الدم خاطئة لسحبها من مكان إبرة (البوتاسيوم)، باعتبار أن منير كان يحقن بالبوتاسيوم عن طريق الوريد كما كان يتناوله عن طريق الفم مرات عدة يومياً بسبب انخفاضه بالدم.

وكان من الضروري أن يبقى البوتاسيوم عند درجة معينة لكيلا تحدث أعراض جانبية كثيرة، وتعتبر الآثار الجانبية للأدوية من أهم أسباب فرط البوتاسيوم في الدم كما يقول الأطباء.. بينما يكون من أسباب انخفاض البوتاسيوم عدم امتصاص الجسم للطعام والغذاء وكذلك للأدوية التي تؤخذ عن طريق الفم.

وزيادة نسبة البوتاسيوم في الدم، أخطر بكثير، وأشد تأثيراً على جسم الإنسان من نقص البوتاسيوم، خاصة أنها تفتقد لعوارض وإشارات خاصة تساعد المريض على تدارك الأمر وبدء العلاج.. وتكمن الخطورة في تسبب هذا الارتفاع بخلل وظيفي في عمل الأجهزة العصبية، كما تسبب اضطراباً في دقات القلب، ما قد يؤدي إلى نتائج خطيرة على رأسها السكتة القلبية..

وعلى الرغم من كل هذه الأخطار فإنه لم يسمح لأبيه وأمه بالاتصال بكبير الأطباء عن طريق العاملين بالمركز، لأن الممرضين كانوا يقولون لهما دائماً إن الاتصال به غير مسموح على الإطلاق، وتحت أي ظرف كان..

وعندما حضر طبيب العناية، وهذا الطبيب بطبيعة الحال لا يعرف حال منير ولا سجله الطبي، وليس عنده وقتٌ ليطلع على ملفه ومعرفة حاله، لكنه من دون أن يكلف نفسه حتى "عناء" الاستفسار – إنْ كان للاستفسار معاناة – من والد منير ووالدته أو من الممرضين عن ماهية مرضه، طلب منهما على الفور مغادرة الغرفة، ومكث معه نحو نصف ساعة، وكان منير يصرخ خلالها، وصراخه يتردد في أنحاء الجناح..

وبعد نحو نصف ساعة خرج الطبيب من الغرفة بعد أن رسم على جسد منير كدمات متفرقة لا تحصى، دون أن يتمكن من وضع إبرة السنترال لاين في شريان محدد، وقبل أن يغادر على وجه السرعة، ودون أن يشرح للأبوين المكلومين ماذا جرى في الداخل؛ تكلم الطبيب كلمتين قصيرتين وسريعتين، وكأنه مقتنع بأن كلامه من ذهب، وأن خير الكلام ما قل ودل.

وقال بطرف لسانه:

"الأفضل وضع إبرة السنترال لاين عن طريق قسم الأشعة"..

أليس في هذا ما يجعل الإنسان يبدع في أحزانه، وقد رأى ما رآه من جسد مضمخ بالكدمات الزرقاء والسوداء، وكأن هذا الغلام النبيل الصالح المرفه خرج من حلبة مصارعة، ولم يكن لقاء عطوفاً مع إنسان يعرف ما معنى الألم، بل مع مقاتل محترف، كل همه صب الضربات المتتاليات على خصمه، وإلحاق الهزيمة به، وإسقاطه أرضاً لتحقيق الفوز بالضربة القاضية.

وتوقع عامل التنظيفات أن ينتفض الأب وأن تنتفض الأم.. ظن أنهما بعد أن رأيا هذا المشهد المروع سيطلبان وعلى الفور تشكيل لجنة موسعة للتحقيق في هذا الحادث المؤسف.. وكل ما جرى في السابق من أحداث مشتبه بها.. لكن هذا كله لم يحدث.. بل تجرع الأب والأم العلقم مثل العادة.. من أجل هذا الغلام الشريف النبيل.

فماذا بإمكانهما أن يفعلا غير تبادل الحديث بعيداً عن هؤلاء الأطباء.. ووضع صور هذه الكدمات على وسائط التواصل الاجتماعي لكي يتابع الناس تفاصيل ما كان يحدث لمنير؟؟!! لكن هذا التصرف كان يزيد من غضب الأطباء بدلاً من أن يكون حافزاً لهم على إنقاذ هذا الغلام من معاناته.

ومع كل الذي حدث، ما زال لدى الأم والأب أملٌ بأن يشرق يومٌ يأتي فيه من يخبرهما بأن الأطباء أفلحوا في كشف ما في ولدهما من ضر، بعدما عجزوا عن تشخيصه، إلا أنهم رفضوا مع ذلك منحه ما يثبت عجزهم عن التشخيص والعلاج.. وهل يكون العلاج من غير تشخيص إلا تجربة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة؟! وكأن الإنسان بنظرهم مجرد لعبةً صغيرة رخيصة..

وكلما طلب الوالدان شهادةً أو إفادةً تثبت عجزهم عن إنهاء معاناة الفتى

المسكين تأتي الشهادة لتقول: "أدخل المريض إلى المستشفى بتاريخ 31 ديسمبر 2014، ولا يزال إلى الآن في المستشفى للتشخيص والعلاج اللازم".. وها هم اليوم أضافوا إلى ذلك ما ألحقوا به من كدمات ومشكلات متتالية.. بحجة واهية قالها الدكتور صابر من قبل: "هذا مستشفى حكومي"..

وكأن على المريض في المستشفى الحكومي أن يقرأ على نفسه الفاتحة، بل كل سور وآيات الكتب السماوية قبل دخوله المستشفى، لأن من بين الأطباء من يفضل أن يدخل المريض المستشفى الاستثماري لكي يرفع من رصيده البنكي، وهذا الطبيب هو نفسه لن يتغير مضموناً وإن تغير شكلاً.. سواء في الحكومي أو في الاستثماري.. الضمير واحد.. والقلب واحدٌ.. والنفس الأمارة بالسوء واحدة..

علماً أن للوظيفة الحكومية مزايا كثيرة قد تكون أفضل من غيرها في بعض الأحيان، ولذلك فهم يسعون بكل جهد للوصول إليها، وبعد ذلك يقصر بعضهم في عملهم، إلا أنهم يتمسكون بها دون أن يبذلوا ما تستحق من جهد مطلوب، فضلاً عن أن الحكومة علمت ودرست وكبرت وسفرت ودربت..

لكن الخاص يقطف الثمرة، ما دام راتب الحكومة مضموناً وراتب الخاص يحتاج لبعض العرق لتحقيق مبلغ أكبر من المال، بغض النظر عما إذا كانت الخدمة التي يؤديها موازية للقيمة الحقيقية للسلعة.. وبالتأكيد ومن دون أدنى شك، بل "مئة بالمئة"؛ إن هذا الكلام لا ينطبق إلا على قلة قليلة، لكنه القدر المحتوم.

طبيب الكدمات

الأمر الذي كان يزعجه من قسم الأشعة هو الانتظار لوحده مدداً متفاوتة

تلاصق العظم مع البشرة دون فواصل من لحم ومن دهن

تأخر الأطباء كثيراً فلم يكن أمام منير إلا الانتظار أو الموت

قرر الأب الذهاب إلى مخفر الشرطة هذه المرة وتسجيل محضر بالواقعة لكن الأم رفضت

بالعودة إلى مشهد الطبيب المسبب للكدمات واقتراحه بأن يتم نقل منير إلى قسم الأشعة، فهل كان هذا سوء تدبير من أطباء الجهاز الهضمي أم جهلاً بموضوع الأشعة، أو كيف يمكن تبريره؟! ولماذا لم يتم نقل منير إلى قسم الأشعة منذ البداية؟؟؟!!! علماً أن الجميع يعرف حاله الصعبة، خاصة أن تلك النصف ساعة كانت مجرد تجربة فاشلة، بل مدمرة، لمريض لا يحتمل التجارب..

وبعد فترة وجيزة تم نقله إلى قسم الأشعة حيث وضعوا له إبرة السنترال لاين خلال دقائق معدودة ومن دون أي ألم يذكر، الأمر الوحيد الذي كان يزعجه من قسم الأشعة هو الانتظار لوحده مدداً متفاوتة، أما هذه المرة فقد استغرق الانتظار نحو نصف ساعة.. فلماذا لم يتم أخذ هذا الإجراء منذ البداية دون تعريضه لكل هذه الآلام؟!

ويذكر عامل التنظيفات هنا أنه في كل مرة كان ينقل فيها لإجراء أشعة أو فحص ما، كان ينتظر أحياناً نحو ساعة، أو ربما أكثر من ذلك، على الرغم من تردي صحته، فحاله كانت تستوجب الأولوية وعدم تعريضه لأي أخطار إضافية ليس لها داع.. ويكفيه ما فيه من آلام وأمراض..

وكان منير يتحدث بعد خروجه وفي كل مرة أنه كان يتألم ويشعر ببرد شديد لانخفاض الحرارة، وكأنهم كانوا يزيدون من قوة أجهزة التبريد لخفض حرارة الأجهزة.. وكان جسده عبارةً عن جلد وعظم، يتأذى من الاستلقاء فترة طويلة على ظهره أو على جانب واحد، ولا بد من تقليبه بين الحين والآخر، ولم يكن أحدٌ في الداخل يساعده خلال فترة الانتظار، وكان يرجوهم لكي يقلبوه ذات اليمين وذات الشمال، ولا يفعل ذلك إلا قليل منهم، فيضطر أحياناً إلى طلب ذلك من عمال التنظيفات، إذ لم يكن مسموحاً بدخول مرافق مع منير.. ومن جهتي حاولت الدخول في إحدى المرات، باعتباري عامل تنظيفات؛ لكني لم أفلح بذلك، لأنها منطقةٌ محظورة إلا على عمال محددين.

وفي اليوم التالي كان تبرير الدكتور خليل مضحكاً من جوانب عدة شئنا ذلك أم أبينا.. فقد قال الدكتور خليل بكل ثقة "علمية" إنه: "لا بد من التدرج.. لم يكن وارداً نقل منير إلى قسم الأشعة إلا بعد محاولة طبيب العناية المركزة"..

وأنا أقول لهم – كعامل لتنظيفات – دون أن أتكلم: "تحاولون ماذا؟! وهل تبقى في منير ما يصلح للمحاولات والتجارب الخاطئة؟!".

لكني في تلك اللحظات الجارحات الصارخات سمعت صوتاً من مكان ما.. ربما كان

صوت الضمير، أو قد يكون قد أتى من كليات الطب، أو من الطب نفسه، فأعجبني كثيراً هذا الكلام، كأنه يخرج من أعماق القلب، أو من فم الموت؛ لأن الأخير عندما يأتي يلبس موتاه هو أيضاً رداءً أبيض ناصعاً..

"أستغرب كثيراً ممن يتقنون تلوين وجوههم بألوان عديدة كثيرة، ببذخ يضاهي بذخهم في اختلاق الأكاذيب عن محبتهم وقربهم منا، ما حاجتكم لذلك؟ ما دام بإمكانكم أن تختاروا الأسود الغامض بفخامة، أو الأبيض الأنيق بقتامة، فقط كي تريحونا وتريحوا أنفسكم من هذه الأقنعة المزركشة بألوان وأصباغ لا طعم لها ولا رائحة، لكنها تخفي خلفها سواد قلوبكم لا وجوهكم.. وشتان ما بين الاثنين.. وحده البياض لا يليق بكم.. فاعذروني إن ألبستكم إياه عفو الخاطر.. هو خطئي الذي لا أنفك أعود إليه كل مرة.. من دون أن أحظى بفرصة لتعلم هذا الدرس الحياتي الأصعب"..

ثم حدثت مشكلةٌ لعلها أخطر من ذلك، بشكل لا يمكن أن يتقبله عقلٌ ولا منطق، وكيف يتقبل الإنسان ما لا يمكن أن يصدق حدوثه في مكان من المفترض أنه المكان الذي يرعى البشر، ويحرص على حياتهم، فيما كنت أرى ما لا يمكن لإنسان تصديقه، وكأنه يحدث في الخيال..

فبعد ذلك الحدث السابق بفترة وجيزة خرجت إبرة السنترال لاين من مكانها بفعل تقلب منير المتواصل، نظراً لأنه لا يستطيع البقاء على نفس الجانب فترة طويلة، جراء التقرحات التي باتت تنخر جسده النحيل جداً.. حيث أصبح العظم متلاصقاً تماماً مع البشرة الخارجية من دون أي فواصل من لحم ومن دهن، حتى عضل اليدين والقدمين والمؤخرة ذاب كله تماماً، وأصبح بالإمكان لمس عظم الحوض والكتفين، بل يمكن رؤية شكل العمود الفقري من الخلف والقفص الصدري من الأمام، فقد أضحى هيكلاً عظمياً كاملاً مع غلالة رقيقة جداً من البشرة البيضاء المشحونة بالكدمات من كل جهات الجسم..

أما الإبرة فقد انزلقت من مكانها، بسبب تحركه وتقلباته المستمرة، أو ربما لعدم تثبيتها في مكانها بشكل صحيح، ونادى منير أمه ذلك الصباح قائلاً لها: "أشعر بسائل بارد على جنبي، يبدو أن الوسادة مبللة بالماء!!"..

أسرعت الأم لتفقد مكان السنترال لاين، فلاحظت أن الشاش الأبيض على الرقبة مبلل بشكل كامل، فطلبت الممرضين، وعلى الفور قاموا بنزع الشاش ووجدوا أن إبرة السنترال لاين خرجت من مكانها، وكان سائل التغذية والأملاح يصب خارج الوريد. وكان

ذلك ما بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً.

فطلبت الأم منهم اتخاذ إجراء فوري عاجل.. لأن وضع منير لا يحتمل البقاء من دون تغذية وريدية ومحاليل، فهو يأخذ الدواء والتغذية من خلال السنترال لاين، ونظراً للتجربة السابقة؛ خاف الممرضون القيام بأي عمل مبادرة منهم، وقالوا: "يجب علينا انتظار وصول الأطباء".

لكن الأطباء لم يأتوا..

وتأخر الوقت كثيراً، إلى ما بعد الظهر بقليل، حتى جاء الدكتور خليل في موعده المعتاد، ولم يشكل هذا التطور الخطير سبباً مهماً لكي يأتي على الفور، لا هو ولا غيره من الأطباء، بالرغم من أنها حال طارئة عاجلة، وكان على منير الانتظار.. أو الموت.

فقال الدكتور خليل بعد أن دخل الغرفة بهدوء مبالغ فيه، ثم رفع رجله على طاولة جانبية قرب السرير، متعذراً بأن قدمه توجعه، وكأنه هو المريض وليس هذا الغلام المسكين.. ثم تحدث باطمئنان بالغ وكأن شيئاً لم يحدث: "لا مشكلة.. لا مشكلة.. سوف نرسل طلباً لكي يتم نقله إلى الأشعة، حيث يمكن وضع السنترال لاين دون معاناة، لا نريد أن نكرر ما حدث معه في المرة السابقة"..

وهو يقصد الكدمات الكثيرة والبقع السوداء والزرقاء التي حولت جسد منير الأبيض إلى لوحة فسيفسائية الألوان مع أشكال فنية مرعبة.. جعلته يبدو كمصارع ناشئ فاشل انهزم في معركة شرسة مع مصارع محترف.. وعدت لأتذكر – والكلام لعامل التنظيفات – وجه جدتي البشوش وزيتها الدافئ أمام هول هذه المشاهد التي تترى أمامي.. تذكرت جدتي التي كنت أراها كيف تعامل مريضها، وكأنه ابن لها ما زال في المهد صبياً..

طلب الممرضون من منير عدم تناول أي طعام وعدم الإكثار من السوائل، والاكتفاء ببعض الماء وقليل من السوائل الأخرى، بانتظار الانتقال إلى قسم الأشعة، لأنه سيخضع لتخدير موضعي..

وبقي منير طوال النهار من دون طعام مع قليل من الماء.. وفي المساء جاء والده من عمله بعد استنفد معظم أيام إجازاته ولم يكن يستطيع التغيب عن العمل حتى لا يتوقف مصدر رزق العائلة، فتفاجأ بأن منير لم يتناول الطعام منذ الصباح، عندها سأل الممرض المناوب عن ذلك، فنفى علمه بأن منير سينقل إلى قسم الأشعة.

وكان منير كان طوال ساعات النهار من دون تغذية وريدية، وفي ذلك خطر شديدٌ على

حياته، فطلب أبو منير هذه المرة وبكل إصرار من الممرض الاتصال فوراً بكبير الأطباء لخطورة الأمر، لأن ترك منير بهذا الوضع طوال النهار أمر يهدد حياته..

"أرجو أن تتصل بالدكتور حمد فوراً.. فهذه المسألة لا يمكن السكوت عنها".

الممرض: "غير مسموح الاتصال به".

"كيف غير مسموح؟ عجيب! ألا ترى أن الولد يكاد يموت من الجوع؟! حتى في هذه الحال الشديدة الصعوبة!! المرات السابقة كلها كانت صعبة، لكنه اليوم في وضع شديد الخطورة ويهدد حياته"..

الممرض كان حائراً قلقاً.. لكن ليس بيده حيلة: "لا أدري ماذا أقول لك؟! هذه هي التعليمات.. لا يمكنني الاتصال به في أي ظرف كان، سأحاول الاتصال بالطبيب المناوب".

"الطبيب المناوب لن يأتي إلا بعد فترة طويلة مثل العادة.. وهل سيتحمل منير البقاء من دون طعام أو شراب أو دواء مدة إضافية؟! هذا استهتار بحياة إنسان".

توقف الممرض الطيب عن الكلام، لا يدري ما يقول.. هو يعلم أن ما يقوله الأب صحيح مئة بالمئة، وكان شديد التعجب!!! كيف لم يتم إخباره بأن هناك طلباً بنقل منير إلى قسم الأشعة؟؟؟!!! ظن الممرض أن هذا الخطأ قد يكون خطأه هو، أو خطأ زميل له.. أسرع إلى ملف منير يبحث عن أي طلب أو توقيع لطبيب على ورقة يطلب فيها ذلك.. لكنه لم يجد دليلاً واحداً يثبت كلام الأب.. كان الممرض متأثراً تمام التأثر.. هو متأكد من صحة كلام الأب، لكنْ ليس في يده حيلة، فاقترح على الأب الملهوف على ولده أن يذهب إلى غرفة منير ليطعم ابنه الجائع على الفور..

"لكن ماذا لو جاء طبيب الأشعة بعد ذلك؟ يجب أن نتأكد.. هل ننتظر كل هذا الوقت ثم نلغي الموضوع في اللحظات الأخيرة؟! لنتصل بالدكتور حمد".

عندها كرر الممرض قوله السابق الذي يفيد بأن كبير الأطباء يمنع عليهم الاتصال به في أي ظرف كان، حتى وإن كان المريض على حافة الموت: "في هذه الحال وفي كل الأحوال ممنوع الاتصال به".

دخل الأب إلى غرفة منير وكان قد أحضر له بعض الطعام، ثم قامت الأم بإطعام ابنها المسكين الذي كان يتضور جوعاً.. وفي هذا الوقت لم يقف الممرض الطيب القلب والذي كان التأثر بادياً على وجهه مكتوف اليدين من دون المبادرة إلى شيء إيجابي، ولم يلقِ الموضوع في سلة الإهمال، وكأن الأمر لا يعنيه كما يفعل بعض الأطباء، باعتبار أنه

لا شيء يثبت كلام الأب ولا يوجد أي طلب رسمي؛ شفهي أو خطي، ولا بد من القيام بأي خطوة حتى من دون وجود طلب مكتوب ومختوم وموقع من الطبيب المشرف..

لكن وكما قال الممرض؛ فإنه من غير المسموح الاتصال بكبير الأطباء.. فمن الواضح البين أن الاتصال بالأطباء الأصغر مقاماً هو أيضاً: ممنوع! فقام الممرض بخطوة جادة ومن تلقاء نفسه بالاتصال بقسم الأشعة، دون أن يهتم بأنه قد يصبح موضع مساءلة إدارية من مسؤوليه بسبب هذا التصرف الذي بادر إليه من دون الرجوع إلى أحد، ولأنه لم يأخذ إذناً من المسؤولين، فهو يعلم أكثر من أي شخص آخر الآن أن وضع منير لا يحتمل السكوت واللامبالاة.. ولا التأجيل إلى الغد.

"هل وصلكم طلبٌ بنقل منير إلى الأشعة من أجل السنترال لاين؟"..

يتحدث الممرض مع زميل له على الهاتف، ثم ينتظر بعض الوقت ريثما يعطيه النتيجة.. وبعدها يتابع كلامه:

"نعم.. فهمت.. لا يوجد أي طلب.. لكن هنا عندنا الأمر مؤكد.. أرجوك ابحث جيداً.. صحيح.. أعرف أن قسم الأشعة المختص لا يعمل في هذا الوقت.. لكنها حال طارئة.. ويجب القيام بأمر ما.. نعم فهمت، ليس عندك أي تعليمات، مفهوم.. مفهوم.. شكراً لك يا أخي، شكراً".

أدرك الممرض أن قسم الأشعة لم يصله أي طلب بخصوص منير منذ الصباح.. ويبدو أن الأطباء نسوا ذلك ولم يدونوا الطلب في الملف.. لكن ربما طلبوا ذلك مباشرة!!! غير أنه تأكد من محدثه أنه ليس عنده أي طلب مكتوب - ولا حتى شفهي - يفيد بأنه سيتم نقل منير للبحث عن شريان مناسب لوضع الإبرة له من خلال الأشعة.

وعلى الفور بادر الممرض ومن تلقاء نفسه أيضاً، بالبحث عن طبيب متعاون، فاتصل بالدكتورة منار، وهي إحدى طبيبات المركز، لكن ليس لها علاقة مباشرة بموضوع منير، وبعد أن استوضحت الأمر من الممرض، اتصلت بنفسها بالعناية المركزة لاتخاذ إجراء عاجل.. وعلى الرغم من صعوبة الموقف، وإلحاح الممرض ومبادرته المستعجلة والسريعة، فإنَّ هذا الإجراء لم يتم إلا بعد ساعات، حيث حضر طبيب العناية المركزة في التاسعة مساءً تقريباً.. أي إن منير ظل من غير تغذية وريدية وأملاح وأدوية نحو 12 ساعة متواصلة، غير عابئين بحاله شديدة الصعوبة.. وخلال أقل من خمس دقائق فقط؛ تمكن الطبيب البارع من وضع الإبرة في إبهام يد منير، على الرغم مما تسببت له

من ألم بالغ، لكنها الضرورات التي تبيح المحظورات..

قالت الأم لطبيب العناية المركزة: "الدكتور خليل قال إنه سيرسل بطلب إلى العناية المركزة لوضع إبرة السنترال لاين في قسم الأشعة"..

سألها الطبيب بكل أدب: "أي ساعة قال ذلك؟".

"لا أدري بالتحديد.. لكنه جاء حسب موعده المعتاد بعد الظهر بقليل".

فقال طبيب العناية المركزة متعجباً: "ألا يعلم الدكتور خليل أنه لا يوجد أشعة لمثل هذه الحالات في فترة بعد الظهر!!! وأن ذلك كان يجب أن يتم في الصباح!!! على كل حال؛ لم يصلنا أي طلب بشأن منير.. وليس عندي أي علم بمثل هذا الطلب، لا كتابياً ولا شفهياً".

وهذا يعني وبكل وضوح ليس فيه أي لبس - كما قال عامل التنظيفات -: إن الدكتور خليل، وأطباء الجهاز الهضمي، وكل الذين كانوا موجودين في ذلك الوقت، لم يقوموا بالإجراءات اللازمة والخطوات المطلوبة لمثل هذا الوضع.. فهم لم يرسلوا طلباً إلى العناية المركزة وقسم الأشعة!! فضلاً عن كونهم تأخروا كثيراً منذ الساعة التاسعة صباحاً تقريباً، وهو الوقت الذي تم اكتشاف خروج إبرة السنترال لاين من مكانها.. إلى أن جاؤوا في موعدهم المعتاد، على الرغم من إخطارهم بما حدث في حينه، أو ربما لم يتم إخبارهم بذلك..

وفي اليوم التالي جاء الدكتور خليل من دون أي تبكير عن الوقت الذي يأتي فيه غالباً، وكأن الموضوع ليس له أهمية، وكان همه أن يسأل بكل براءة عما حدث يوم أمس لمجرد المعرفة الفضولية، دون أن تكون للمسألة أولوية، فقالت له الأم: "هل من المعقول أن يبقى منير طوال النهار من دون طعام؟!!".

فقال ببساطة ووداعة: "وما الذي حصل؟؟؟"..

وكأن شيئاً لم يحصل! فقرر الأب الذهاب إلى مخفر الشرطة هذه المرة وتسجيل محضر بالواقعة، لكن الأم رفضت ذلك، ومنعت أبا منير من الخروج، لأنها ما زالت حتى تلك اللحظة متمسكة بأمل ولو ضئيل، بأنهم سيجدون حلاً لما يعانيه ابنها..

والمضحك المبكي أيضاً؛ أن إحدى الممرضات طلبت من والد منير أن يتغاضى عن هذا الموضوع لأنه سيضر بالممرضين، علماً أن الأطباء هم المسؤولون عن ذلك، لكن كما يبدو، فقد كانت هناك محاولةً لإلصاق هذا الخطأ الجسيم بالهيئة التمريضية..

فسكت أبو منير على مضض، وبلع الموسى من جديد..

مَشاهد مُؤلِمة

مسؤولة التمريض
تلوم منير على عدم
إحضار نتائج فحص
خارجي!

تلوم عاجزاً
على عجزه ولا
تلوم أصحاب "الهمم"
ذات الشأن على
تقصيرهم!!!

على أهل
المريض أن
يلتزموا الصمت
حتى الموت

كان
يبدو مثل غصن
رفيع جداً إذا حطت
عليه فراشةٌ
انكسر

من المشاهد المؤلمة أيضاً؛ أنه في يوم أصبح منير ينزف من ظهره جراء عملية تغيير لضماد إثر قيام ممرض بنزع الشريط اللاصق، وكان ذلك في حدود العاشرة صباحاً، ولم يتمكن الممرض من وقف النزيف، وحاول أكثر من مرة، لكن النزيف استمر..

وبعد أن بدأ الأب والأم بالاعتراض هذه المرة أيضاً؛ اتصلوا بالعناية المركزة، لكن الطبيب لم يأت إلا عند الساعة السابعة مساء، وكل ما فعله أنه طلب وضع كيس دم له، وظل ينزف طوال هذا الوقت، وعند الساعة العاشرة ليلاً حضر ممرضٌ آسيوي، فجلس خلف منير، وصار يضغط على الجرح النازف لنحو ربع ساعة متواصلة وهو يجلس ملاصقاً لمنير، وبعدها نزع يده فإذا بالنزيف قد توقف.

وأذكر مشهداً آخر حصل قبل أسابيع قليلة من الموت.. كان مشهداً من المشاهد المضحكة والمبكية في آن معاً أيضاً.. يوم جاءت مسؤولة من التمريض إلى غرفة منير تلومه على عدم إحضار نتائج فحص عينات الكرونز من الدكتورة فاطمة التي تعاونت مع الأسرة المنكوبة لكي تظهر نتائج العينات بأسرع وقت ممكن، حيث تبين لها خلال أيام قليلة أن تشخيص الكرونز لم يكن صحيحاً، وكان الأب قد أخذ العينات إلى الدكتورة فاطمة وعليه أن يقوم بإحضار النتيجة، مع أن هذا هو دور المستشفى وليس دوره..

لكنْ على حد قول الدكتور صابر: "إنه مستشفى حكومي"..

وكان منير في هذا الوقت وحده في الغرفة مع عمته التي حضرت لأيام معدودات من بلد بعيد لكي تطمئن عليه وتبقى معه فترة من الوقت.. يا سبحان الله!!! تلومه وهو العاجز عن الحركة!!! تلوم عاجزاً على عجزه ولا تلوم أصحاب "الهمم" ذات الشأن على تقصيرهم!!! بدلاً من أن تكون المبادرة من المستشفى، وبدلاً من أن يلوموا أنفسهم على تأخرهم أكثر من شهر كامل مع كل ما فعلوه بحق منير؟؟؟

عجباً والله بل ألف عجب.. أن تقوم هذه المسؤولة بتحطيم معنويات منير عوضاً عن تشجيعه!!! وكانت مشاعره في ذلك الوقت لا تحتمل أذية صغيرة.. ولا أي كلمة جارحة مهما كانت بسيطة.. كان يبدو مثل غصن رفيع جداً وجاف جداً.. إذا حطت عليه فراشةٌ صغيرة رقيقة فسوف ينكسر..

وبعد دقائق من ذلك دخل والده الغرفة، وعندما وجده يبكي بحرقة بالغة، وعلم بما حدث، خرج فوراً ليعلم هذه الممرضة ما لم تتعلمه في حياتها، ويلقي عليها محاضرة كانت تنقصها عن أهمية الرأفة بالمريض، وعدم جرحه فوق جراحه التي لا تحتمل..

فعلاً إن التمريض ليس دواءً وحقنة.. التمريض إحساس بالمشاعر قبل أي شيء آخر..

ومن المضحك المبكي أيضاً قيام مشرفة اجتماعية تعمل في المستشفى قبل وفاة منير بأيام بالاتصال بأبيه قائلةً له إن مسؤولاً ما – لم تحدد من هو – أبلغها أن والد منير ترك ابنه في المستشفى ولا يريد تسلمه وإعادته إلى منزله.. وفي الحقيقة؛ أنا لم أر في حياتي أغرب من هذا الاتصال ومن هذا الكلام!!! هل يمكن لهذا الأب الذي يجاهد بكل قوة وصبر ومجازفة من أجل ابنه المريض أن يتخلى عنه ويتركه في هذه اللحظات الحرجة؟؟!! وهل يمكن أن يتخلى أبٌ محب عن أغلى غواليه ويتركه في المستشفى وهو يصارع كل يوم لكي يشفى ويعود إلى المنزل سليماً معافى؟!

ويأتي هذا الاتصال بعد نحو سبعة شهور من إقامة متواصلة في المستشفى.. والسبب كما يبدو؛ أنه في يوم سابق رأى والد منير لوحةً كبيرة في البهو الرئيسي خاصة بالأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين؛ تقول اللوحة إن قسمهم العامل في مختلف أجنحة المستشفى، يقوم على أهداف إنسانية نبيلة، وعلى رأسها "زيارة المرضى والاهتمام بمشاعرهم والتخفيف عنهم نفسياً.."!!

التقط والد منير صورة للوحة بكاميرا هاتفه النقال، ثم وضع الصورة على (تويتر) معلقاً عليها بالقول: "إن منير قضى في المستشفى سبعة شهور متتالية من دون أن يزوره في يوم ما أحدٌ من هذا القسم.."..

ويبدو أن الرد جاء سريعاً جداً.. ومن دون أي تلكؤ.. مع أن صورةً واحدة ومهمة جداً كما كانوا يعتقدون وهي صورة الغاليوم، استنفدت من الوقت شهراً كاملاً، ثم أجريت، وكانت نتائجها من دون أي فائدة تذكر.. كما أن تقريراً طلبته فيما بعد لجنة التحقيق الطبية المشكلة من أساتذة كلية الطب، عبر الأدلة الجنائية، استغرق نحو 55 يوماً ليقطع مسافة تستغرق أقل من نصف ساعة، ما بين مبنى ومبنى في منطقتين لا يبعدان عن بعضهما بعضاً مسافة طويلة..

أما شعورهم بالانزعاج فلم يتحملوه يوماً واحداً! لكن على منير ألا ينزعج، ولا يحق له أن ينزعج.. وعلى أهله أن يلتزموا الصمت.. حتى الموت.. وعوضاً عن القيام بدورهم وزيارة منير باعتباره المريض الوحيد المقيم لمدة سبعة أشهر متواصلة ما بين الباطنية والجهاز الهضمي؛ قامت الموظفة بالاتصال بأبيه طالبةً منه إخراج ابنه من المستشفى.. وقالت له: إن مسؤولاً ما طلب منها ذلك بحجة أن والد منير لا يريد

تسلم ابنه وإعادته إلى بيته، وذكرت أن سبب ذلك قد يكون وجود إعاقة عند الولد المريض، وأنه لا يستطيع الحركة، وعرضت عليه توفير سرير طبي له في المنزل إذا كان الأب لا يستطيع تأمين هذا السرير..

سألها أبو منير أن تخبره باسم المسؤول الذي طلب منها ذلك لكي يعرف منه من أين جاء بهذه المعلومات، ومن هو الطبيب الذي أخبره بهذه الوقائع المغلوطة؟! لكنها رفضت ذلك تماماً.. عندها تمنى عليها أن تقوم بزيارة منير لتطلع بنفسها وعن قرب على حقيقة ما قيل لها، فتتبين الواقع بدلاً من الصورة المشوهة التي نقلت إليها لأهداف غير شريفة.. لكن.. وبالرغم من أنها لا تبعد عن غرفة منير سوى مسافة خطوات معدودة؛ فإنها لم تبادر إلى هذه الزيارة.. وطبعاً لم يحاسب أحدٌ هذا ولا ذاك..

أما أنا الإنسان المسكين الفقير.. لو أخطأت في تنظيف غرفة ما.. أو تركت منديلاً ورقياً على الأرض، أو في زاوية، أو ممر أنا المسؤول عنه، ولم أنتبه إلى وجوده، فستقوم الدنيا ولن تقعد، وسوف يصوره الناس في هواتفهم النقالة، وينشرونه في (تويتر) و(فايسبوك).. وغير ذلك من مواقع التواصل الاجتماعي، أما أن نفعل كل هذا السوء بطفل يافع صغير؛ فلا بأس.. مسألةٌ فيها نظر.. وعلى حد قول أحدهم فإن: "مثل هذه الأخطاء موجودةٌ في كل مستشفيات العالم".

يا سيدي لتكن موجودة في كل العالم.. فهل معنى ذلك أنه من الضروري أن تسمح بها وتقبل بأن تكون موجودة عندك!!! وهل وجودها في بلاد ما مبرر لتسكت عنها في ديارك وتعتبرها أمراً عادياً مقبولاً؟ وهل هذا الغلام المسكين الذي ليس لديه عائلة كبيرة تنصره، ولا مسؤولٌ يحميه، ولا قبيلة قوية تدافع عنه.. هل من الضروري أن نلقيه في شراك الأخطاء الطبية.. بل بالأحرى الإهمال الطبي اللامسؤول؟!

وذكرتني قصة هذه الموظفة والمعلومات الخطأ التي وصلتها، بالمعلومات التي أدلى بها مدير المستشفى للصحافة بشأن منير، وقال إنه شابٌ جامعي، ويدرس خارج البلاد، مع أنه كان في الصف العاشر، وما زال صغيراً بالسن.. وبدلاً منْ أن يحقق المدير مع مصدر معلوماته الخاطئة، نفى كلامه الذي كان مسجلاً ومكتوباً.. وأنكر أنه قال ذلك للصحافة!! فإذا كان مدير المستشفى يعتمد على مصادر خاطئة.. فماذا نقول بعد ذلك؟!!!

حِكايةُ الطبيبِ الألماني

إنَّ أمركم
- بالفعل -
غريب.. إلى أي
مدرسة بالطب
تنتمون؟!

لم يسمحوا
للممرضين
مساعدته لأخذ
العينة المطلوبة

قلب الأم عندما
تدعو لولدها يكون
أقرب إلى الله من أي
بشر

كان
ينظر بألم..
متحسراً على نفسه..
وعلى حياته التي
انتهت..

ويتابع عامل التنظيفات شهادته بالقول: ما زلت أذكر أيضاً حوادث كثيرةً مشابهة، تشهد هي أيضاً بأمور عدة، تتطلع إلى من يحمل هذه القضية إلى كل المحافل الإنسانية في العالم.. ومثل ذلك أمور لا أستطيع شرحها ولا تفسيرها ولا تبريرها، ولا أجد لها وصفاً مهذباً.. ولا حتى وصفاً بربرياً..

ومن مجريات تلك الوقائع المؤلمة أن أبا منير اتصل في أحد الأيام بطبيب في ألمانيا، متخصص بالجهاز الهضمي، فاقترح عليه الطبيب الألماني بعد أن أرسل له كل نتائج الفحوصات الطبية السابقة أن يجري فحصاً معيناً.

طلب أبو منير من الأطباء في جناح الجهاز الهضمي ذلك، علماً أن هذا الفحص غير متوفر في المستشفى، ويجرى خارج البلاد على حساب المريض وليس على حساب المستشفى، لكنهم رفضوا من دون أي تبرير، سوى أن الفحص هذا ليس له ضرورة ولا أهمية له تذكر، بحسب رأيهم، وكأن كل الفحوصات والتجارب السابقة التي أجريتموها يا سادة والتشخيصات الكثيرة، وصور الأشعة، والمناظير العلوية والسفلية، والأدوية التي ملأتم بها جسده المسكين، وغيرها من "الأنشطة" الكثيرة التي أقدمتم عليها؛ كانت كلها ضرورية؟؟؟!!!

إنَّ أمركم – بالفعل – غريب.. إلى أي مدرسة بالطب تنتمون؟!

استأذن أبو منير الأطباء لإحضار ممرض من مختبر خارجي ما داموا لا يريدون المساعدة في ذلك، لكي يتم أخذ عينة الدم ونقلها إلى ألمانيا، لكن الأطباء المشرفين رفضوا، على الرغم من أن كل التكلفة كانت عليه، علماً أن كثيراً من الفحوصات كان يتم تقاضي تكاليفها، لأن الضمان الصحي السنوي لا يغطي كامل التكاليف.

فقام الأب بالاتصال بمختبر متخصص لإرسال ممرض يأخذ عينة الدم بنفسه وعلى مسؤولية الأب، وعندما جاء الممرض لم يسمحوا له بأخذ عينة الدم، لأن عينات الدم يتم أخذها من السنترال لاين الموضوع في رقبة منير بسبب ضعف شرايين الجسم.. ورفض الأطباء بإصرار معاونة الممرض الخاص بالمختبر الخارجي، ولم يسمحوا للممرضين العاملين بالمركز بمساعدته لأخذ العينة المطلوبة، فقرر الممرض القيام برحلة عذاب وتعذيب إضافية بحثاً عن شريان يمكن أخذ العينة منه..

لكن الله سبحانه قدر وقتها أن يسهل الأمر عليه، فوفقه لكشف شريان مناسب بوقت قصير بمساعدة ممرض يليق به الأبيض، أقدم على ذلك بمبادرة منه، على الرغم من موقف الأطباء، معرضاً نفسه للمساءلة، إيماناً منه بأن منير يستحق المجازفة والتضحية.

وعلى الرغم من أن نتيجة الفحص التي وصلت بعد نحو أسبوع لم تقدم جديداً؛ فإنها كانت محاولةً جديرةً بالاهتمام، وبدلاً من أن يثني الأطباء على المحاولة – التي وإن لم تنفع فإنها لم تضر مثل كثير من محاولاتهم الفاشلة – كانت السخرية واضحة من الدكتور خليل الذي قال باستهزاء: "نتيجة الفحص هذه تصبِّح علينا".. والمؤسف حقيقة أن الأطباء ادعوا بعد ذلك في التحقيق الطبي أنهم هم من قام بالتواصل مع الأطباء في الخارج، وأنهم بادروا إلى إرسال عينات إلى فرنسا لفحصها في مختبر متخصص.

ومن الذكريات المؤلمة المريرة أيضاً أنهم – قبل وفاة منير بيوم واحد سبق نقله في آخر انتقال له من غرفته إلى العناية المركزة حيث فارق الحياة – أرادوا سحب عينة دم من السنترال لاين، لكن الممرضة المسؤولة ظنت بعد محاولة واحدة فاشلة أن السنترال لاين انسد، فطلبت طبيباً من العناية المركزة.. وعندما جاء الطبيب قام بعمليات غرز لأبر عديدة، حتى أصبح جسم منير مثل المنخل من كثرة الثقوب، لكنه من شدة تألمه لم يعد يتألم فبعد أن كثرت النصال عليه أصبح الألم أمراً عادياً، لكنه كان يتحدث مع الممرض بكل هدوء واحترام متحملاً كل الأوجاع الظاهرة والباطنة التي ينوء بحملها الرجل القوي الكبير الضخم، فكيف ونحن أمام غلام صغير في ربيع العمر؟!

"لا تضع الإبرة في إصبعي الصغير هذا ولا في الإبهام، ولا في قدمي هذه، حاول في يدي.. لا تحاول في إصبعي.. فذلك مؤلمٌ جداً"..

كان الطبيب يتنقل في إبرته مصطنعاً الثقوب والغرز في جوانب متفرقة من جسمه.. كم صعب هذا المشهد المؤلم!!! منير يتجلد متسلحاً بالصبر والإيمان.. ينظر إلى أبيه تارة وإلى أمه تارةً أخرى.. وأنا واقفٌ بينهم أحاول أن أكلمه بكل حب لكي أخفف عنه الألم..

منير لم يعد بالنسبة لي مجرد مريض، وأنا لم أعد بالنسبة إليه مجرد عامل تنظيفات.. أحببته بكل صدق، وكان يقبل هذا الحب الذي تملك قلبي.. لذا كنت أحاول التخفيف عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.. لكن الألم ظل في ذلك اليوم يعصر قلبه.. كما كان يعصر قلبي.

لم نكن ندري ما الذي يحدث بداخله من تغييرات..

لم نكن ندري أن الدم بدأ يتدفق من شعيرات الجسم الداخلية متسللاً إلى الأعضاء المختلفة ومنها الرئة والأمعاء.. وكل أنحاء الجسم.. معلناً عن اقتراب ساعة الحياة من نهايتها.. كان ينظر بألم.. متحسراً على نفسه.. وعلى حياته التي انتهت.. ومن شدة الهول.. والحال الصعبة التي بلغها، تذكرت جملةً قالها لي مرةً في لحظة ضعف

من اللحظات الحرجة: "لو كان بإمكانهم قتلي فليفعلوا.. فذلك أفضل لي ولهم.. لم أعد أستطيع أن أتحمل".

وبعد نحو ساعة يئس الطبيب من إمكانية إيجاد شريان يأخذ منه عينة الدم، ومنير صامت صابر ولم يكن يدري أن حياته على هذه الأرض ستنتهي بعد ساعات معدودة.. كانت لديه رغبة بالبقاء من أجل والدين سخرا حياتهما من أجله.. وفي هذا الوقت العصيب، وقف طبيب الكلى خارج الغرفة متحدثاً لإحدى الزائرات، قائلاً لها: "إن دم منير أصبح مثل العصير"..

وكانت أم منير في تلك اللحظات مشغولة مع ابنها داخل الغرفة، ولم تسمع هذه الجملة المؤلمة.. كما أن الطبيب لم يجرؤ على البوح بذلك، وفضل الانسحاب والذهاب من دون أن يخبرها بحقيقة الدم الذي تحول إلى "عصير"..

وكتمت الزائرة أنفاسها وخرجت هي أيضاً على الفور والدموع تغمر عينيها.. مضت في طريقها كالرصاصة تخترق حاجز البلاغة التي تعجز عنها كل الكلمات.. بل كل قواميس اللغة؟!

وكان الأمل ما زال يتدفق في قلب أم منير.. فقالت لطبيب العناية المركزة الذي قطع الأمل بعدما جاهد بكل صدق من أجل هذا الطفل المسكين.. قالت له متوسلة: "حاول من جديد.. أرجوك.. لا بد من وجود وسيلة ما". فقال لها بصوت مرتجف: "والله لا أدري ماذا أقول لك يا أم منير.. لقد ملأنا جسده ثقوباً دون فائدة.. لا أعرف.. لا أعرف..". كان يتمالك نفسه بقوة فائقة ليخفي دمعة حزن يخفق بها قلبه الأبيض. يحاول أن يمنعها لكيلا تخرج من عينيه فتسقط حارةً بين يدي منير..

عندها.. وقبل أن يخرج الطبيب من الغرفة، قالت أم منير بقلبها لا بلسانها، وكأنها طلقتها الأخيرة: "لماذا لا تحاول من السنترال لاين؟؟!!". فقال لها بصوت يائس حزين يشعر باللوعة الواضحة حيال ما يحدث لهذا الغلام المسكين: "الممرضة قالت إن ذلك غير ممكن". فعادت الأم لتقول برجاء وأمل وهي تدعو الله بكل إيمان، ومن أكمل قدرةً على الدعاء لطفل من أمه؟؟؟.. وهل في الدنيا قلبٌ أحن على الإنسان من قلب أم؟! ومن أصدق منها دعاءً لولدها عند المحن، وكم من أم ضحت بنفسها من أجل ولدها: "حاول.. جزاك الله خيراً.. وسم الله".

وما أن وضع الطبيب الإبرة في السنترال لاين وسمى الله الرحمن الرحيم وسحب ساعدها حتى تدفق الدم وملأ الأنبوب بالعينة المطلوبة.

"الله أكبر.. الله أكبر"..

صاحت الأم بفرح.. إن قلب الأم عندما تدعو لولدها أقرب إلى الله من أي بشر يدعو له.. وفي هذه اللحظة تذكرت جدتي عند وفاة والدي.. تذكرتها كيف كانت تدعو الله بكل إيمان أن ينقذ ولدها من الموت.. لم تنم جدتي في الليالي المظلمة الأخيرة التي سبقت موت أبي إلا نادراً.. كانت تسهر الليالي الطوال وتقضي ساعاتها في تلاوة القرآن والتهجد.. والدعاء قياماً وقعوداً.. ترجو الله أن يستجيب لدعائها.. لكن القدر لا مفر من وقوعه..

نظر الطبيب إلى الأم بكل أسف وأسى وحيرة.. كانت حمرة الخجل على وجنتيه مثل احمرار الدم الذي تدفق من السنترال لاين بقدرة قادر.. رسم في عينيه كل اعتذار ممكن يليق به وله كل بياض في الكون.. وكان لسان حاله يقول: "سامحنا يا منير، لقد ثقبنا في كل جسدك ثقوباً كثيرة، فلم تبق فيه زاوية لا تشهد على ما ألحقنا بك من آلام وأضرار لا تحصى ولا تعد، وكان الأمر لو تمهلنا وفكرنا وحاولنا لا يتطلب سوى محاولة بسيطة جداً، بدلاً من هذا القهر الذي فعلناه عن جهل مرةً وعن إهمال متعمد مرةً أخرى، فيما كنا نعتقد أن ما نفعله بطولة".

وبعدها لم تتكلم الأم كلمة واحدة.. وكان منير في هذه الأثناء متأملاً بأسى.. ناظراً بحسرة.. بلا تعليق واحد.. وصمته يقول: "لماذا تفعلون بي كل هذا!!! أي ظلم أوقعته عليكم وأي جرم اقترفته وأجرمته بحقكم حتى تفعلوا بي هذا؟؟؟ ألا تخافون الله! أليس عندكم أبناء!! فكروا بأولادكم.. بأحفادكم.. بأنفسكم.. أتظنون أنكم بمنأى عما يجري لي! أتعتقدون أن ما أصابني لن يصيبكم؟؟؟ أنتم لستم أفضل حالاً مني.. وكما تدين فسوف تدان".

وكانت الأم ومعها الأب لا يدريان أن الأجل المحتوم قد دنا واقترب.. وأن الموت حان موعده، وأن الملائكة حضرت لتأخذ معها روح الصبي الطاهر النقي.. كان الموعد المقدر منقذاً له من هذا القهر الذي غلبه بكل صفاقة حتى القبر.. ولعل ما اكتشفه أبو منير في اليوم التالي لوفاة ولده عندما تم نقله إلى المغسل ليتم غسله وتكفينه والصلاة عليه كارثةً الكوارث، فبعد إزالة أربطة المستشفى التي عقدت في العناية المركزة، وبعد غسل جسده الطاهر، اكتشف الأب ومن معه أن هناك جرحاً كبيراً في جانب الخاصرة.. ويبدو أن الأطباء قاموا بعمل شق في الخاصرة لأمر ما، من دون أن يبلغوا أهل المريض بذلك، ومن دون أنْ يأخذوا الأذن منهم.. ولم يخبروهم حتى بعد وفاة منير، ولولا أن اكتشف الأب ذلك بنفسه لم يعرف أحد ما حدث، وتم طمس معالم هذه القضية.. فما معنى هذا الجرح الكبير؟؟؟ وما الهدف منه!!! لم يحصل الأب على جواب بالرغم من كل المحاولات التي بذلها؟؟؟!!

والد العامل وزيتُ جَدته

كانت تتوهج
مثل نار مشتعلة
في موقد خشبي
ملتهب

مع مرور
الأيام تسقط
الحقيقة فلا يتبقى
غير خيالات وقليل
من حقيقة

ليست
المسألة مجرد
شهادة وحرف مع
نقطة يضاف إلى
الاسم

الطبيب
الممتنع عن أداء
واجبه يشبه عامل
التنظيفات الذي لا
ينظف جيداً

يقول عامل التنظيفات: أذكر وجه جدتي يوم كان أبي مريضاً موجع القلب باكياً.. وجه لا يشبه الوجه الذي نشأنا عليه، هرمت فجأة من دون مقدمات، ومن دون إنذار.. كانت تتوهج مثل نار مشتعلة، في موقد خشبي ملتهب، في ليلة شتاء بارد مثلج.. لم يكن عندنا سوى قليل من الزيت النقي لتفرك به جسده، وهذا النوع من الزيت غالي الثمن على من هم في مثل حالي، وعندنا كان الزيت إلى جانب بعض الأعشاب التقليدية "الدواء السحري" الأهم - تقريباً - لكثير الأمراض والأعراض المرضية التي كانت جدتي تشخصها على طريقتها..

إذا تألم بطنٌ دعتكه بالزيت، وإذا تساقط شعر رأس نثرت بعض الزيت على منابته، وإذا تألمت أذنٌ، وتيبست مفاصل، والتهبت لوزٌ، وانخفضت حرارة؛ بادرت جدتي نحو إناء الزيت.. تارةً تستخدمه بارداً.. وتارة دافئاً.. وفي بعض الأحيان حاراً..

ترى لو كانت جدتي معي هل كانت ستبادر إلى علاج هذا الفتى الطيب بقطرات من زيت زيتونها الأخضر اللامع، أم ستدعه حيث هو يتألم، على سريره الأبيض الناصع؛ وتتركه تحت رحمة السماعات المرفهة بدلال وسخاء، والمدلاة بزهو وخيلاء؟!

الفتى الصغير كان يتألم ولا تخرج من فمه الآهات.. كان يتألم بشدة لكن بصبر أشد.. فشاركته ألمه، وعندما أدمنت صنوف الألم؛ فاجأني ورحل.. رأيت في شدة تحمله ما رأيت من شدة تحمل أبي.. فأثار همي وجذبني نحوه كالمغنطيس "بمعزل" عن كل المرضى الذين رأيتهم منذ أن باشرت عملي في هذه المستشفى الواسعة.

صحيحٌ أن أبي لم يكن صغيراً مثله، لكنه لم يكن عجوزاً.. كان شاباً لم يتجاوز الأربعين من عمره القصير، لكن المرض المجهول دهمه وقضى عليه، ولم ينفع طب جدتي ولا دواؤها، وما تحمله من حكايات كثيرة ترويها على مدى عمرها الطويل.. وكثيرٌ من الناس يلهثون وراء حكايات جدتي وما يشبه حكاياتها.. وهذا من طبيعة النفس البشرية منذ القدم.

وكثيرٌ من حكايات الناس، القديمة منها أو الجديدة، قد تكون مفعمةً بالإحساس الدافئ العطوف المقترن بالعطاء، أو تكون بما تحتويه من أحداث متتالية ومواقف متباينة محفزة للأنفس التواقة نحو المجد، أو حتى مثيرة لهموم قلوب مهمومة في أعماقها.. ومنها ما يكون عكس ذلك.

ويسعى هؤلاء الناس وراء تلك الحكايات المصاغة بدقة وعناية بالغتين، فيما تبدو

كأنها عقد من اللؤلؤ المنثور.. أو بستان عامر بالزهور. يعيشون تفاصيل حروفها وكلماتها وفقراتها وفصولها بشغف نادر، ونهم لا يفتر، يدورون في فلكها حتى تصبح جزءاً منهم، ثم ينصرفون عنها وقد أصبحوا جزءاً منها.

بل إن بعضهم يتأثرون بالقصة التي تروى عليهم إلى حد لا يطاق، فإذا كانت شخصية البطل "المؤثر" طاغيةً على كل ما في القصة من تفاصيل.. فهم يتقمصونه؛ عندما يشعر بسعادة غامرة تنعكس عليهم سعادة مماثلة، وإذا أمسى حزيناً مهموماً بائساً؛ يشعرون بالحزن والبؤس، فلا يتكلمون إلا لضرورة، وإذا تكلموا ربما وضعوا الأشياء في غير مواضعها.

وإذا أضحى البطل "المؤثر" شجاعاً قوياً منتصراً، تشتعل في نفوس هؤلاء القراء أو المشاهدين المستسلمين إزاء ما يرونه ويسمعونه أو يقرأونه؛ الشجاعة والقوة والاستبسال، حتى الإحساس بالنصر المتوهم بحدوثه.. وهلم جراً.

أما أنا فلم أكن مثل كثير من هؤلاء الناس، لأن تلك النوعية من القصص لم تكن تؤثر في نفسي على الإطلاق، لا من قريب ولا من بعيد، بل إني كنتُ لا أحب سماع القصص ولا الحكايات التي تكذب أكثر مما تصدق، مثل بعض الناس، لأني أعتقد أن معظم القصص، بل ربما كل تلك القصص، خيالية، وتفاصيلها من نسج خيال الكاتب، وليست من الواقع في شيء.. لذا أفضل سماع القصص المؤلفة والمبتكرة التي لا تشعرني بأنها مختلقة لهدف ما.

وحتى وإن كانت القصة أصلها من الواقع، فمع مرور الأيام والسنين، تكثر الإضافات والتحسينات الخيالية، بما تقتضيه المصلحة أو رغبة الراوي. ثم ينمو الخيال وينمو كلما انتشرت القصة أكثر فأكثر، وتداولها الناس بشكل أوسع عدداً ونصاً.. حتى تتزاحم الحقائق مع التخيلات، فتسقط بعض الحقائق من القصة تباعاً، وتسكن الإضافات مكانها، فلا يتبقى فيها مع مرور الأيام والسنين والأجيال غير ما صنعه الخيال والابتداعات المنسوجة من أوهام وأحلام.

أما المعضلة الكبرى فتكمن في أن أقواماً كثيرين من زمن مضى ورحل عنا، أو يمضي راهناً وما زلنا نحيا فيه، أو سيأتي لاحقاً ثم يمضي كما مضى غيره، يصدقون تفاصيل القصص المزوقة والمزورة، المرصوصة على أسس وقواعد من الحقيقة، ثم يأتي الخيال الجامح القائم على الأهواء والغايات الباعثة على الشفقة

ليزيد عليها، ثم مع مرور الأيام تسقط الحقيقة منها، فلا يتبقى فيها غير خيالات مصطنعة، وربما قليل من حقيقة.

والمثير للغرابة القصوى – أو ربما للشفقة – أن بعض من يبتدع مثل تلك القصص، أو يخترع ما فيها من خرافات بعيدة عن الواقع، يخضع لها ويقتنع بها بعد حين، إما بالتكرار أو بالإصرار.. أو بالرضوخ غير المبرر.. فيظن واهماً ثم جازماً أنها من الحقيقة بلا ريب ولا شك في ذلك، مع أنه هو نفسه، وبيديه تحديداً، هو من وضع خرافاتها ونسخ خيالاتها.. وهذا لعمري أكثر غرابة من أي شيء آخر..

وكنت من قبل أشك في كل القصص التي ترد من الماضي، لما أرى فيها من مبالغات لا تحصى ولا تعد، وحوارات تنقل بالتفصيل، مع أن الأحداث قد تكون جرت بين اثنين لا ثالث لهما، بينما الأمور التي حدثت أمامي جعلتني أعيد النظر والتفكير.

لكني رأيت بعيني هاتين، وسمعت بأذني واقعاً عجباً، كان ما فيه أغرب من خيال وأبعد من واقع، فصرت أتمنى لو بقيت ظنوني حول الإضافات الخيالية على حالها، بدلاً من أن تنعكس الصورة فيزاحم الواقع الخيال، حتى يبدو الواقع وكأنه وهمٌ أو غير حقيقي، ومن الصعوبة – بل يكاد يكون من المستحيل – تصديقه.. فكانت حكاية قريبة إلى خيال، ويكاد سامع لا يصدق تفاصيلها.. وخاصة هؤلاء الذين لم يجربوا من قبل مثلي الطب الحديث ولا الأطباء أصحاب الشهادات، أو ربما جربوا لكن بشيء من السطحية، من دون حاجة كبيرة لشفقة طبيب أو لهمته التي تتطلبها الحالات المستعصية الشديدة الصعوبة.. وربما لا تكون حالةً مستعصية.

ولنكن أكثر دقة، لأنها مستعصية على الطبيب المعالج لا على الطب، فيدعي المعالج صاحب الشهادة "استعصاءها"، حتى يضمن نجاته عندما يموت المريض بـ"هبوط في الدورة الدموية"، على اعتبار أنه "الأجل المحتوم"، و"البقاء لله"، و"إنا لله وإنا إليه راجعون"..

وكان البعض لا يريد أن يوجع رأسه بالتفكير والبحث والتدقيق.. الأمور بسيطة؛ يجرب التشخيص ويجرب الدواء، فإذا نجح الأمر وأصاب الدواء الداء فـ"شكراً"، وإذا لم ينفع وفاقم الدواء الداء فـ"عذراً".. هذا إذا طلبوا العفو.. لكن الكبر والاستعلاء منعهم فلم يعتذروا!!! وفي الحقيقة؛ ليس مطلوباً من الطبيب ضمان النتائج، ومسؤوليته كما يقولون تقتصر على بذل الجهد، و"الأعمار بيد الله"..

هذا في القانون، أما قلب الأم فلا تعنيه مواد القانون ولا الدساتير ولا البروتوكولات، قلب الأم يفهم أن على الطبيب أن يؤدي دوره ما دام قد قرر أن يكون طبيباً وأن يرتدي الثوب الأبيض، فهذا الثوب يفرض على صاحبه مسؤوليات جساماً، وليست المسألة مجرد شهادة وحرف مع نقطة يضاف إلى الاسم، كما أنها ليست محاولات وتجارب يقوم بها.. وبكل وضوح بين للمبصرين، فإن الأم لا ترضى أن يكون ابنها حقل تجارب ليس أكثر، لمن قال بلسانه، وبفعله قبل لسانه: "إن الطبيب لا يتأثر بالمريض، وليس في الأمر أي علاقة إنسانية يتأثر بها".

صحيحٌ أني عاملٌ بسيطٌ جاهل، لكنني ذهبت إلى المدرسة لسنوات عديدة، ومات أبي وأنا طفلٌ صغير، وعملت مبكراً جداً.. ثم سافرت للعمل في هذا المستشفى قبل دخول منير إليها بأسابيع قليلة.. وكانت أول مرة ألتقي فيها بالأطباء الحقيقيين وجهاً لوجه.. ففي بلدتي النائية البعيدة لا توجد مستشفيات ولا أطباء.. إلا أنني إنسانٌ أشعر وأفكر وأتعاطف مع أصحاب الحاجات، وكأن قدري وقدر الناس أمثالي أن يشعروا بآلام بعضهم.

أما مكنسة التنظيف التي أحملها بعصاها الطويلة، فهي تفهمني وأفهمها، ربما أكثر من كثير من البشر، لا أدري تماماً كم عمرها، عندما قدمت للعمل هنا أعطوني مكنسةً قديمة، لكنني أحببتها، وتعودت عليها، وأشعر أنها هي أيضاً تحبني، وتحن علي كما أحن عليها.. عندما أمسك بها أشعر بحنانها البالغ نحوي أكثر من شعوري بحنان كثير من البشر.. فأبادلها الحنان والحب نفسه، وهل هنالك أجمل من أن يحب الإنسان عمله وأشياءه التي ترتبط بالعمل.

وفي الحقيقة؛ فإن معظم أصدقائي العمال أكثر تعاطفاً مع المرضى من كثير من الناس، وقد رأيت ذلك بنفسي، وبخاصة مع تجربة منير، هذه التجربة القاسية التي نقلته من الدنيا إلى الآخرة، إلى مكان أفضل من مكاننا وزماننا، ومخلوقات أفضل من كثير من المخلوقات التي نضطر مرغمين على التعايش معها.

صحيحٌ أنه نصيبه وقدره، وأن عمر الإنسان بيد خالقه، ولا يستطيع أحد مهما أوتي من سلطة أو ثروة أن يقدم أو يؤخر ساعةً من عمره المحدد، فكل أمر مقدر ومكتوب من قبل ولادته، بل منذ الأزل، ونعرف هذه الأمور كلها ولا نشك فيها على الإطلاق؛ لكن الطبيب الممتنع عن أداء واجبه على أتم وجه؛ يشبه عامل التنظيفات

الذي لا ينظف الممرات جيداً.. بل يقوم بعمله ببلادة ومن دون مبالاة. فتتجمع الأوساخ بشكل متدرج، عندما لا يزيل طبقةً بسيطةً من الغبار الملتصق بالبلاط، ثم تأتي طبقة فوقها، وطبقة أخرى فوقها، ومع الأيام تتكدس الطبقات حتى يتغير لون البلاط، وتتشكل طبقة صلبة لا يزيلها التنظيف اليدوي العادي البسيط، وتحتاج إلى مزيلات كيماوية شديدة المفعول، وإلى آلة تنظيف خاصة بجلي البلاط لإزالة الأوساخ المتراكمة التي تعجز عن إزالتها أساليب التنظيف التقليدية.

لكن الحقيقة – كما رأيتها – قد تكون أغرب من الخيال.. والقصص الواقعية فيها من الدهشة ما قد يتغلب على الدهشة التي تصيب المغرمين بالقصص الخيالية.. وكثيرة هي القصص والحكايات التي لا يمكن تصديقها بسهولة، وحتى من يراها حقيقة على أرض الواقع يظن أنه يحلم.. وربما رأى الإنسان أحداثاً لا يخبر بها، وقد يخبر بأحداث من نسج الإنسان نفسه.

ومع ذلك تبقى القصص المحكية راسخة في ذاكرة الناس، يرويها الكبار للصغار، وتتناقلها الأمم أجيالاً وراء أجيال، وربما تكون معظم القصص أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، لكن التجارب التي نحياها كل يوم تدهشنا أحياناً بوقائع كانت بالأمس خيالاً.. ولطالما سمع الناس عن أمور غريبة، لا يمكن أن تخطر على بال أحد ببساطة، وعن أحداث عجيبة لا ينسجها إلا فكر واسع ونفس غارقة في الأحلام البعيدة عن الواقع.

وفي أحيان عدة نسمع عن قصص حدثت في التاريخ وقد نظن أصحابها أسطورةً من الأساطير، أو خلقاً من غير البشر من غرابة الأحداث التي تصادفهم. لكن تلك القصص على الرغم من كل ما تثيره من استغراب؛ فإنها تظل مرتبطةً بالواقع مثيرةً للجدل. وهناك من يؤمن بأن وراء الواقع شيئاً أبعد من الحقيقة وأوسع من الخيال، وأن وراء كل خيال طرفاً من الواقع. هي أشياءٌ لا تسقط مع المطر، ولا تنبع مع الماء، ولا تثمر مع الزهر، ولا تنبت مع العشب. أشياءٌ فوق العقل أو التوهم.. فوق الرؤى والأحلام. ومع ذلك يظل الناس يسعون جاهدين لاقتناص الأمل والحياة من وراء الواقع.

فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل...

سبعة شهور كاملة مضت وهو مسجونٌ في المستشفى، كان يتألم بصمت، وكنت

أتلوى على جمر اللهب من جراحه ودموعه النازفة. كان لشهور طويلة بحال يمكن إنقاذه منها، لكنهم تركوه ينزف دماً من كل مكان.. وعاملوه وكأنه رجلٌ مسن مقبلٌ على الموت لا محالة.. وحتى الطبيب المشرف لم يدخل غرفته سوى مرة واحدةً طوال شهور، وكانوا يقولون: "إنه يتابع عن بعد".

قد لا يصدق كثيرٌ من الناس بسهولة أنني منذ جئت للعمل في المستشفى أتعامل مع مكنسة التنظيف بكل احترام، لإن مهمتي خطيرة، أو هكذا اعتقدت أنا على الأقل.. كنت أحرص على تنظيف الزوايا الرطبة المعتمة والأماكن المخفية أكثر من الأسطح الظاهرة للعيان، لأنني أؤمن بأن تلك الأماكن بيئةٌ خصبةٌ لتكاثر الجراثيم المضرة، وكنت أقوم برش المبيدات بالقدر المسموح باستخدامه، وأمسحها بكل اهتمام حتى لا يتبقى في المكان الموكل لي تنظيفه أية جراثيم..

كنت وما زلت أدرك أن المريض ضعيف المناعة، جاء إلى المستشفى حاملاً لمرض ما، ومن غير المقبول أن يكون المستشفى مكاناً لكي ننقل إليه مرضاً آخر، ومن الأمانة ألا أترك زاويةً مهما كانت مخفية من دون أن أنظفها تنظيفاً تاماً، وأن أتأكد من نظافتها.. لقد آمنت بأن مهنتي كعامل تنظيفات لا تقل أهميةً عن مهنة الأطباء الشرفاء، إذا كان الطبيب استشارياً متخصصاً فأنا أيضاً يجب أن أكون منظفاً استشارياً متخصصاً.. وكان بعض من أعمل معهم يطلبون مني أن أضع كميةً قليلة من المواد المنظفة في دلو الماء للتوفير، ولم أكن أعترض على الإطلاق.. من حيث الشكل طبعاً.. أما من حيث المضمون والتطبيق فكنت أفعل ما يجب أن أفعله.

صحيحٌ أنني لا أضع سماعة طبيب ولا أتباهى بها بين الممرات وبين أسرة المرضى، كما يفعل كثيرٌ منهم.. لكنني فخور بعملي وبمكنستي التي أحملها، وعندما أذهب للعمل أضعها على كتفي.. تماماً كما يفعل الطبيب عندما يضع السماعات ويدليها رافعاً رأسه ونافخاً صدره، مفتخراً بها، يتهادى متبختراً في غرف المرضى.. متناسياً أن الصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى، كما كان يردد الفتى الصغير منير، وكما كتب مرةً على صفحته في الفايسبوك.

وحبذا لو كان جميعهم يستعملها!!! فقد كان بينهم من يترك الأمر في معظم الأحيان للممرضين من دون أن يضع يده على جسد المريض.. وإذا أراد على الأقل أن يبدي بعض الاهتمام كان يضع السماعات على المريض، ويظهر اهتماماً بما

يسمع.. مع أنني رأيت مرة طبيباً يضع قرص السماعة على ظهر المريض وصدره من دون أن يضع السماعات في أذنيه.. مشهد مضحك أليس كذلك؟! غير أن الذي أضحكني كثيراً قوله بعد ذلك:

"لا بأس.. لا بأس.. الأمور طيبة".

"عن أية أمور طيبة تتحدث يا دكتور؟! الظاهر من الأمر كما يبدو أنك لا تسمع ولا تبصر"..

كان عامل التنظيفات من خلفه كمن يشاهد فيلماً هزلياً مضحكاً.. تساءل بدهشة:

"هل ما رأيت هو حقيقة أم خيال! وكما أسلفت في سابق القول: إن في الحقائق - أحياناً - وفي تفاصيلها ما هو أغرب من القصص الخيالية".

وبعد هذه التجربة المريرة، لم يعد البقاء في هذا المكان متاحاً، بل ينطوي على كثير من الجنون، فكيف يمكن أن يبقى ويستمر بهذا الجرح المفتوح الدامي بعد أن شاهد ولمس وعاش تفاصيل كل هذه المعاناة المؤلمة؟! كما أن هناك الكثير من الناس قد يكونون بحاجة له، أكثر من حاجته إلى ما تدره عليه مكنسة التنظيف من دراهم معدودة.. فكان لا بد لعامل التنظيفات من أن يتخذ قراراً حاسماً "مئة بالمئة"..

"لم يكن أمامي سوى أن ألملمَ أحزاني، وأجمع ما تناثر مني، ثم أعود من حيث أتيت.. أعود إلى ذلك المكان الجميل الذي جئت منه. قررت التخلص من مكنستي وثيابي ومن مهنة "التنظيف"، على الرغم من أهميتها بالنسبة لي وبالنسبة للآخرين، لكن من سيتأثر بغياب عامل تنظيفات مثلي.. قررت العودة إلى جدتي.. وإلى زيت جدتي.. وإلى ابتسامة جدتي.. وإلى السلام والطمأنينة والمحبة.

لقد فهمت معنى ما تقدم جدتي.. والأشياء العظيمة التي كانت تخصصها للآخرين.. فليس السر في الزيت، بل في تلك الابتسامات التي توزعها بغير حساب، ودون أن تضع ابتسامتها على فاتورة الحساب.

لم يكن قراري بأن أشغل نفسي بالعمل مع جدتي في مساعدة المرضى على الشفاء هروباً من ذكرى منير، بل كان هو الذكرى نفسها، والعنوان الوحيد لكل التغيير الذي حدث في حياتي.. ومنذ عودتي شغلني زيت جدتي عن كل شيء آخر.. فكنت يديها اللتين تحملان أباريق الزيت أينما مضت، وكنت عينيها اللتين تبصر بهما وتنقلان لها التفاصيل الدقيقة التي تعجز عن رؤيتها لضعف بصرها، وكانت هي ابتسامتي

التي تشبه ابتسامة منير الذي لم تفارقه الابتسامة كما لم يفارقه الأمل.. حتى آخر لحظة من لحظات الحياة.

وبعد وفاة جدتي؛ كان زيتها ضوء سراجي في عتمة طريقي.. لأني عندما عدت إلى قريتي كنت عازماً على أمر خطير؛ قررت أن أعود إلى الدراسة، ومتابعة الطريق من أجل منير وأمثاله.. فدرست بكل جهد، كنت أدرس في الليل وأعمل في النهار مع جدتي.. علمتني جدتي كل شيء عن مهنة الطب الشعبي، وعن سر العلاج بالزيت.. تعلمت منها أن هذا السر يكمن في الابتسام للناس وليس في الزيت نفسه.

ومشيت على طريقها أعمل معها في النهار وأدرس في الليل، حتى أنهيت المدرسة بعد أعوام قليلة بتفوق، وحصلت على منحة في الجامعة.. كان هدفي متابعة الدراسة.. انتقلت إلى العاصمة، وكان الطب هو التخصص الذي أسعى إليه.. وتحديداً في الجهاز الهضمي.. صرت أواصل الدراسة في الليل والنهار، وأبحث في تفاصيل الأمور.. أردت أن أكون طبيباً.. يليق بي الثوب الأبيض.

كانت شهادة تخرجي تحية لروح ذاك الغلام الجميل الذي كان في عذابه وموته؛ قصة غيرت حياتي.. أخبرت كل الناس في قريتي وفي جامعتي بقصة منير.. حتى أصبحت هذه القصة عنواناً للصبر والثورة على من لا يليق بهم الثوب الأبيض.. رحم الله منير.. الغلام الصالح النبيل"..

وهنا انتهت شهادة عامل التنظيفات.. لكن قصة منير لم تنته بعد..

لجنة التحقيق الطبية

كيف يكون الجلاد هو الحكم؟؟؟!! مفارقة لا يمكن تجاوزها

اللجنة رفضت مقابلته فوضع الشهادة عند سكرتيرة العميد

هل كان هذا الجرح لاستئصال شيء ما أو لسرقة أعضاء أو لتدخل طبي؟

أكدت الشهادة وجود تهاون وعدم تعاون وتضارب في الآراء

تدرك ليلى أن طرح قضية طفل تمت أساءت رعايته الصحية على القضاء أمر شائك، خاصة أن القضاء سوف يكلف أطباء زملاء لأطباء للذين تم الادعاء عليهم، وهنا مكمن الخطورة.. لكنها تعلم أيضاً أنها لا تملك قدرة على غير ذلك، كما أبيها التاجر الجوال يعلم هذا تماماً، ومثلهما أمها المكلومة، فهي تشعر أن حق أبنها سيضيع بين أيدي الأطباء كما أضاعوا حياته، فكيف يكون الجلاد هو الحكم؟؟!! فهذه مفارقة لا يمكن تجاوزها.

كانت ليلى تريد الذهاب مع أمها وأبيها إلى جلسة التحقيق الطبية، الجلسة التي تأخرت كثيراً لولا تدخل بعض الجهات التي اتصلت بالمسؤولين المعنيين حتى يتم تشكيل اللجنة، بعد مضي شهور طويلة من وفاة منير..

تخبر ليلى بعض زميلاتها الطبيبات بما حدث فتقول:

"تعاملت اللجنة مع أبي وأمي بطريقة فظة.. نعم.. لا يمكن أن أنسى كيف عادا يومها من كلية الطب والحزن الشديد يغمرهما.. حاولا كتم ما حدث عني، لكني سمعتهما يتحدثان بحرقة بالغة..

استقبلهما بفظاظة بالغة أحد أعضاء لجنة التحقيق الطبية المشكلة بطلب من مدير عام الأدلة الجنائية المكلف من المحكمة، وكان محامي القضية برفقة أبي، لكن العضو نفسه رفض حضور المحامي جلسة التحقيق فيما بقي العضوان الآخران صامتين لا يتكلمان، وحاول المحامي تبرير حضوره بأن لا نص قانوني يمنع ذلك، لكن الطبيب المحقق رفض وجوده رفضاً قاطعاً، وكأنه لا يريد أن يكون هناك شهود على ما سيجري في التحقيق، فأذعن المحامي وخرج من الغرفة وترك أبي وأمي، لكنه بقي قريباً من المكان بانتظار انتهاء الجلسة.. وقبل أن يجلسا إلى الطاولة قال الطبيب نفسه موجهاً كلامه لأبي:

"سمعت أنك تسجل دائماً.. هل تملك آلة تسجيل"..

فابتسم أبي متسائلاً بكل احترام:

"من أخبرك بذلك؟"

كان التجني واضحاً منذ الوهلة الأولى.. فهذا الطبيب الذي من المفترض أنه أستاذ كبير في الجامعة بدا منحازاً بشكل كامل إلى زملائه الأطباء المدعى عليهم.. سأله أبي:

"لو أخبرتك أني لا أحمل آلة تسجيل هل ستصدقني؟!.. عموماً ليس لدينا شيء سري لنخفيه.. بل نتمنى أن تسجل الجلسة بنفسك، بالصوت والصورة، حتى تكون جلسة موثقة".

انفعل الطبيب، وبدأ يهاجم أبي ويستفزه، كأنه يريد أن يخرجه عن طوره، فتنقلب القضية ضده، وكان الاستفزاز واضحاً جداً منذ البداية، وغير طبيعي، ووصل صوت الطبيب إلى خارج الغرفة، وكان المحامي يقف في الخارج ففتح الباب طالباً معرفة ما يحدث، ورافضاً معاملة أبي بهذه الطريقة.

ومما زاد من غضب الطبيب اطلاع المحامي على هذا الموقف وإصراره على حضور الجلسة بهدف متابعة التحقيق لكيلا يتعرض موكله للترهيب، لكن الطبيب المحقق رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وأكد المحامي عدم وجود مانع قانوني من حضوره، خاصة أن موكله حريص على ذلك..

وكان عضو آخر باللجنة المكونة من ثلاثة أعضاء يحاول تهدئته، ويمسك بيده لكي يتوقف عن الصياح، لكنه انفعل بشكل مبالغ به رافضاً حضور المحامي وبأعلى صوته، ثم قام من مكانه وقال وهو يغادر الغرفة إنه سيكتب في التقرير ما يفيد بعدم تعاون المدعي، ودون أن يستشير عضوي اللجنة الآخرين، فيما كان أبي يبتسم طوال الوقت، مفوِّتاً على الطبيب الفرصة التي يريدها بأن يثير انفعاله، ويصبح هو المخطئ"..

قدم والد منير شهادته للجنة التحقيق بعد ذلك مكتوبة، لأن اللجنة رفضت مقابلته مرة ثانية، وضع الشهادة عند سكرتيرة عميد كلية الطب.. وسجلت الشهادة خمسة تشخيصات خاطئة على الأقل وبعض التفاصيل التي أوردها عامل التنظيفات في شهادته السابقة لكن باختصار مكثف، وأكدت الشهادة وجود تهاون بحياة المريض من خلال عدم التعاون وتضارب الآراء، وإعطائه إبرة في وريد الرقبة كانت ذاهبة لمريض، آخر وكذلك كيساً من الحديد، مرجحاً أدوية أخرى خاطئة.

وذكرت الشهادة الخطية أيضاً أنه تم إعطاء منير جرعات أدوية عالية من الكورتيزون بناء على تشخيص خاطئ، وكان مقدار الجرعة الواحدة كبيراً ولا تلائمه، ما أصابه بتشنجات وصرع، ومع ذلك تركه الطبيب الذي أمر بالكورتيزون ولم يزره في العناية المركزة ولا غرفته بعد ذلك لمدة أكثر من أربعة أشهر رغم تدهور حالته.. وقبل وفاته

بيومين يأتي طبيب آخر كان يشخص الحالة عن بعد ليقول إن المريض موجود في جناح خطأ.. ومع ذلك لم يتدخل لتصحيح هذا الخطأ الجسيم في كل تلك الشهور الطويلة.

كما أكدت الشهادة المكتوبة وجود جرح كبير في خاصرة منير يبلغ نحو 10 سنتمترات تم اكتشافه عند غسله لدفنه، فهل كان هذا الجرح لاستئصال شيء ما، أو لسرقة أعضاء داخلية، أو لإجراء تدخل طبي.. إضافة إلى الأمور التي تحدث عنها عامل التنظيفات سابقاً.. لكن لجنة التحقيق لم تأتِ على ذكرها في التقرير الذي قدمته للمحكمة.. وكانت الشهادة المكتوبة أكثر من 30 صفحة، تضمنت ملخصاً عن الشهادة الكبيرة التي قدمها عامل التنظيفات.. وجاء التقرير متجاهلاً كل ما في هذه الصفحات..

وتابعت المحامية ليلى الراصد القضية بتفاصيلها بمعونة المحامي الشاب البارع محمد الحساس، المحامية كانت أيضاً تحمل اسم ليلى.. وكأن قدر هذا الاسم أن يعاني ويجنح نحو الحقيقة وإن عاكسته الريح.

لم تكن المحامية موافقة على جوانب كثيرة مما ورد تقرير الأدلة الجنائية الطب الشرعي، وهو تقرير مبني على قرار اللجنة الطبية المشكلة من عميد كلية الطب، وهم بالتالي، أي أعضاء اللجنة، ليسوا سوى أصدقاء وزملاء للأطباء المقامة ضدهم الدعوة، فمنذ متى يمكن أن يحكَّم الصديق في رقبة خصم صديقه؟؟!! وفي هذا أمر يستدعي الشك قبل أن يصدر التقرير، وها قد صدر التقرير، فظهرت حقيقة ما كان يحاك في ظلمة الليل، واقتضى كل هذا التأخير، فموت منير كان في نهاية الثامن والعشرين من شهر يوليو 2015، أما التقرير فصدر في الثلاثين من يوليو 2017، أي بعد سنتين كاملتين من الوفاة، كما أن طلب تشكيل اللجنة كان بتاريخ 21 أغسطس 2016، وتطرح المحامية تساؤلاً:

"هل تقرير قضية وفاة طفل يافع من بضع صفحات يحتاج كل هذا الوقت، أليس في ذلك دليل على المماطلة ومحاولة طمس القضية كما حدث في تشكيل اللجنة الأولى التي أخفيت نتائجها؟!".

تقرير الأدلة الجنائية

أخبروه
بأنه يسجل
الحوارات فكانت
البداية هجوماً
مستفزاً وتهكماً

احتد النقاش
بين المحامي
والطبيب المحقق
فقام الطبيب وغادر
الغرفة

رغم
كل التشخيصات
الخاطئة لم يذكر
التقرير مرة واحدة عبارة
تشخيص خاطئ..

هل القانون
يمنع المدعي من
قول الحقيقة التي
يراها يا سيدي
القاضي؟!

أورد التقرير في مقدمته؛ أنه تنفيذاً لحكم المحكمة الكلية الموقرة الصادر بتاريخ 16 مارس 2016 في القضية تم الاطلاع على ملف الدعوى وما به من مستندات، كما تم طلب عرض شكوى الأب على لجنة طبية ثلاثية من كلية الطب، مهمتها بيان ما إذا كان هناك ثمة خطا طبي، أو إهمال من الطبيب خلال فترة وجود منير في المستشفى حتى خرج متوفياً، وإبداء الرأي في هذا الشأن لإجابة طلبات المحكمة الموقرة.

وأوضح أنه وبموجب كتاب رسمي إلى عميد كلية الطب بتاريخ 21 أغسطس 2016 بطلب عرض شكوى المدعي على لجنة طبية ثلاثية من كلية الطب لا يكون أحد منها قد شارك في علاج منير، تكون مهمتها بيان ما إذا كان هناك ثمة خطأ طبي أو إهمال من الطبيب سواء في التشخيص أو العلاج، وقد ورد كتاب من مكتب العميد بتاريخ 2017/1/15 (مع ملاحظة أن تقرير الطب الشرعي تم توقيعه بتاريخ 2017/7/30، أي بعد نحو سبعة شهور من استلام الطب الشرعي التقرير) مفاده بأن اللجنة طلبت مقابلة والد منير رحمه الله بتاريخ 11 يناير2017، والذي أصر على حضور المحامي الخاص به المقابلة، وهذا ما رفضته اللجنة الطبية، واستمر إصراره على حضور المحامي، كما أنه رفض الإجابة على سؤال اللجنة ما إذا كان يحمل آلة تسجيل، لهذا اكتفى بتسليم تقرير مطبوع إلى اللجنة.

ومن طريف ما حدث؛ أن أحد أعضاء اللجنة وجه لأبي منير الذي حضر برفقة أم منير وقبل أن يجلسا اتهاماً بأنه يسجل الحوار الذي لم يبدأ، وقال له "إنهم" أخبروه بأنه يسجل الحوارات، فكانت البداية هجوماً مستفزاً وتهكماً، ولما رفض الأب شكل السؤال ارتفع صوت العضو الذي – كما يبدو – نصَّب نفسه رئيساً للجنة، فيما كان العضوان الآخران صامتين هادئين، عندها تدخل المحامي الذي كان يقف خارج الغرفة وجرى نقاش حاد بين المحامي والطبيب المحقق، فقام الطبيب من مكانه وغادر الغرفة قائلاً إنه سيكتب بالتقرير عدم تعاون الأب..

وذكر تقرير المحقق الجنائي أن اللجنة طلبت تزويدها بنتائج تحقيقات اللجان التي تشكلت من وزارة الصحة وجميع التقارير الطبية وشهادة الوفاة.. رغم أن جميع التقارير الطبية كان مرفقة بملف منير. وبالفعل تم إرسال كتاب رسمي إلى مدير إدارة الشؤون القانونية والتحقيقات بوزارة الصحة بتاريخ 18 يناير 2017، بطلب

نتيجة التحقيق في شكوى المدعي بخصوص حالة وفاة نجله المتوفي.. كما ذكر التقرير الجنائي.

وأضاف التقرير:

"ورد إلينا بتاريخ 14 مارس 2017 – أي بعد نحو 55 يوماً من إرسال الطلب – كتاب من الإدارة المذكورة مرفق بصور ضوئية من محاضر التحقيق الفني والإداري، وصورة ضوئية من تقرير لجنة التحقيق، وقمنا بموافاة اللجنة الثلاثية بما طلبت. كما ورد كتاب من مكتب العميد بتاريخ 2017/7/2 مرفق بتقرير اللجنة الطبية بأن أعضاء اللجنة الثلاثية قاموا بمناقشة الأطباء الذين باشروا حالته المرضية خلال تواجده في المستشفى لبيان ما إذا كان هناك ثمة خطأ طبي جسيم أو إهمال من عدمه في تشخيص وعلاج المتوفى المذكور".

ويضيف التقرير أنه بعد مطالعة الملف الطبي والتقارير الطبية من المستشفى وتاريخ أقسام المختبرات والأشعة والتقرير الطبي الصادر في بلد آخر، والذي يشير إلى أن تاريخه المرضي يرجع إلى معاناته من مرض الربو الشعبي عندما كان في التاسعة من عمره – لكن التقرير لم يوضح ما علاقة ذلك بقضية الرعاية الصحية السيئة التي عانى بسببها منير – ويتحدث أيضاً عن إصابته بالتهاب الأذن الوسطى في مرحلة طفولية مبكرة.

ثم يزعم أن منير أصيب خلال وجوده خارج البلاد وتحديداً في أبريل 2014 بضعف حاد مفاجئ بالرؤية في العين اليمنى، علماً أن منير لم يكن موجوداً في البلد الذي حدده التقرير في الوقت المذكور، وهذا يدل على أن اللجنة لم تدقق جيداً بالتقارير، لأن تقارير الطبيب المحلي واضح، وعنوان المختبرات التي أجريت فيها الاختبارات تبين أنه لم يغادر البلاد في ذلك الوقت.

ويشير التقرير إلى أن الفحوصات بالأشعة المقطعية والرنين المغناطيسي أظهرت التهاباً بالعصب البصري بالعين اليمنى لسبب غير معلوم، وتم علاجه بالكورتيزون بدون حدوث تحسن في الحالة.. دون أن يربط ذلك بأي علاقة معينة مع ما هو مطروح بالشكوى، وكأنه يريد أن يشير إلى تاريخ مرضي لتشتيت الموضوع، وإيهام المحكمة بإن مرض منير مرض قديم وليس بشيء جديد.

ويضيف التقرير أنه وبتاريخ مايو 2014 حدث ارتفاع في ضغط الدم،

وتدهور بسيط بوظائف الكلى، نتيجة متلازمة الالتهاب الكلوي (كبيبات الكلى الغشائي)، ولم يتم تشخيص السبب المرضي لها بالرغم من أخذ عينه من نسيج الكلى وفحصها مخبرياً، وبتاريخ يونيو 2014 كان يعاني من التهابات بالغدد الليمفاوية.

وفي يوليو 2014 أظهر فحص الرنين المغناطسي وجود تغيرات مرضية بكل من البنكرياس والكبد وتم اجراء فحص بالمنظار على الجهاز الهضمي وفحص بالموجات فوق الصوتية للبنكرياس، وكذلك تم إجراء مسح ذري لكل الجسم بتاريخ سبتمبر 2014 – علماً أن هذه الفحوصات جرت خارج البلاد – كما تم إجراء العديد من الفحوصات المناعية وفحوصات وظائف القلب، وتم أخذ عينات عشوائية من القولون بطريق المنظار بسبب معاناة منير من فقدان الوزن وإسهال شديد، وأظهر الفحص بالمنظار والفحص النسيجي المجهري لتلك العينات وجود ارتجاع بالمريء والتهابات حادة غير نوعية بكل من الأمعاء الدقيقة والقولون، ولم تظهر أي من تلك الفحوصات المذكورة مرضاً محدداً.. ثم يقول التقرير: "ولم يتوصل الفريق المعالج له في البلد الآخر إلى تشخيص محدد للتغيرات المرضية التي كان يعاني منها".

ويضيف أنه بتاريخ 2014/12/10 أدخل منير إلى المستشفى ومكث فيه خمسة أيام بعدما عانى انخفاضاً بضغط الدم، وضعفاً عاماً بالجسم، وإسهالاً مزمناً لحوالي ثلاثة شهور، وأظهر الفحص الطبي تدهور وظائف الكلى مع نقص بنسبة البوتاسيوم بالدم، وتمت مباشرته بواسطة فريق من أطباء أمراض الكلى، وأعطي بعض المحاليل لتعويض الأملاح المنخفضة بالجسم نتيجة الإسهال المزمن، وكانت رغبة عائلته كما أشار التقرير لاستكمال علاجه الطبي في البلد الآخر حيث كان يعالج، فخرج من المستشفى بتاريخ 13 ديسمبر 2014 وهو في حالة مستقرة ومعدلات البوتاسيوم طبيعية بالدم.. وبعد عودته تم إدخاله إلى قسم الأمراض الباطنية بتاريخ 31 ديسمبر 2014، مع الوضع في الاعتبار أنه سبق فحصه بشكل مكثف بكل من البلدين، وتم إعادة فحص جهازه الهضمي بالمنظار، دون أن يذكر التقرير كيف ترك المريض عدة أيام دون طعام بسبب أخطاء طبية أوضحها عامل التنظيفات في شهادته السابقة.

وتم بعد ذلك إجراء العديد من فحوصات الدم، والاختبارات المناعية، واختبارات الفيروسات المتخصصة، كما تم أخذ عينات نسيجية للفحص المجهري وعمل مسح ذري كامل للجسم، وقد كانت نتائج تلك الفحوصات غير محددة، أو سلبية، ولذلك لم يتم التوصل إلى تشخيص محدد حالته المرضية.. وأعيد التشخيص بواسطة استشاري أمراض المناعة والحساسية بتاريخ 20 يناير 2015، واستبعد فرضية الإصابة بعدوى أو أمراض مناعية بسبب وجود أورام وتم تصنيف الحالة بغير محددة السبب.

ولم يذكر التقرير أن طبيب المناعة قرر له بعض الأدوية المحددة، وأن منير واظب على أخذ الدواء لأكثر من شهر بناء على طلب الطبيب، وبذلك يخفي التقرير مسألة أخرى تفيد بتشخيص خاطئ من جديد وأنه تناول دواء لم يكن بحاجة إليه بناء على هذا التشخيص..

ويضيف التقرير أنه تم إعادة تقييم الحالة مرة أخرى بواسطة فريق الجهاز الهضمي في ضوء وجود التهاب بسيط بالمعدة، والتهاب شديد بالاثني عشر، مع سلبية اختبار الجرثومة الحلزونية البابية والتهاب ليمفاوي مزمن مع سلبية الفحوصات للأورام الخبيثة.. مع الأخذ في الاعتبار احتمال وجود ورم عصبي بالغدد الصماء للبنكرياس.

وبالرغم من كل التقارير والتشخيصات الخاطئة الذي ذكرها التقرير؛ فإنه لم يذكر ولا مرة واحدة عبارة (تشخيص خاطئ).. ولم يتساءل مجرد تساؤل بريء عن مبررات كل هذه التشخيصات المتعددة المتنقلة من مرض إلى مرض، ومن تشخيص خاطئ إلى تشخيص خاطئ آخر، ومن احتمال "غير جازم" إلى احتمال "ضئيل"..

وكان كل احتمال يقابله مجموعة كبيرة من الإجراءات والتدخلات الطبية والإشعاعية والجراحية غير اللازمة، إضافة إلى الأدوية المكثفة التي كانت تعطي له دون حسيب ولا رقيب، ودون أن يدري أهله ما إذا كان حصل على أدوية ليست له بالأساس، وذلك بعدما حجبوا المعلومات عن عائلة منير في تلك في الفترة، وأخفوا ملفه الطبي ووضعوا إعلاناً في غرفة التمريض تمنع العائلة أو أي طبيب من جانبهم من الاطلاع على الملف وعلى مضمون التقارير الطبية.

ويعود التقرير إلى القول إنه تم فحص منير بواسطة فريق من أطباء الغدد الصماء بتاريخ 22 يناير 2015، علماً أنه لم يكن هنالك في الواقع فريق حقيقي كما قال التقرير، بل كان الدكتور عبدالعظيم وحده كما شهد بذلك عامل التنظيفات، فضلاً عن الأستاذ بكلية الطب الذي جاء برفقة طلابه وحول غرفة منير إلى صف دراسي دون رأفة ولا رحمة.

ويقول التقرير إنه وبعد إجراء العديد من الفحوصات المعملية في هذا الصدد، وبعد مناقشة عائلة المريض في استخدام عقار (نظير السوماتوستاتين) وهو العقار الذي سبق أن تحدث عنه عامل التنظيفات باسم (أوكتريوتايد).

تم إعادة إجراء الفحص بالمنظار استرشاداً بفحص بالموجات فوق الصوتية بتاريخ 3 فبراير 2015 لأخذ عينة نسيجية من البنكرياس، لكن لم يتم الحصول عليها نظراً لقرب مكان ذلك النسيج من الأوعية الدموية وخطورة ذلك على حياة المريض.

وزعم التقرير – بشكل مجانب للحقيقة – أنه تمَّ الاتفاق مع عائلة المريض على إرجاء البدء بالعلاج بعقار (نظير السوماتوستاتين) انتظاراً لنتيجة الفحص بالمسح الذري، وهو فحص (الغاليوم) كما سماه عامل التنظيفات في شهادته السابقة، وقد أجري في 11 فبراير 2015، وكانت النتيجة سلبية.

ويقول التقرير إنه بناء على ذلك كان من رأي فريق أطباء أمراض الغدد الصماء – ولم يفصح ما هو المقصود بفريق الغدد الصماء غير الدكتور عبدالعظيم، إلا إذا اعتبروا أنه فريق بحد ذاته – في ظل احتمال وجود ورم عصبي بالغدد الصماء للبنكرياس البدء بذلك العلاج، علماً أن هذا الفحص نفسه الذي ذكره التقرير كان قد أجري في السابق في بلد آخر ونتيجته موجودة في ملف منير.. ولم ينتبه الأطباء إلى ذلك لأنه كان باسم آخر.

وتقول ليلى معلقة على هذه القضية في نداء لم يبلغ الآذان ولم يلامس القلوب:

"أليس في هذا دليل إضافي على أنهم لم يطلعوا على التقارير جيداً، كما أنه لم يكن هناك ضرورة لإجراء هذا الفحص بحسب الدكتور عبدالعظيم وتعريض منير لأشعة سببت له المزيد من الإضرار الصحية والنفسية، كما ذكر ذلك عامل التنظيفات، حيث لم يكن هناك داع لذلك، وتم بناء على توصية الدكتور آميرال

الذي زار منير مرة واحدة فقط وطلب إجراء الفحص، وكان من الواضح أنه لم يطلع على ملف منير.

أليس في ذلك استهتار واستخفاف بحياة المريض؟! حيث يعرض لفحص إشعاعي لا ضرورة له، كما أنه تم بناء على طلب طبيب لم يقرأ الملف، وقد اكتشف ذلك الدكتور عبدالعظيم متأخراً، وبعد تضييع نحو شهر كامل من انتظار موعد الفحص.. وهذه الكارثة أعرض عنها تقرير الأدلة الجنائية بناء على إعراض لجنة التحقيق الطبية الثلاثية، بالرغم من الإشارة إليها في شهادة الأب المقدمة إلى لجنة التحقيق، وقبل ذلك شهادة عامل التنظيفات..

كأنهم لم يروا ولم يسمعوا فلم يشهدوا!!!..

أليس في ذلك انحياز بيِّنٌ صارخ إلى صف المدعى عليهم؟؟؟!!! ويقدم دليلاً إضافياً على عدم نزاهة التحقيق؟!!!! غير أن العدالة لم تر ذلك، ومن حق القاضي طبعاً أن يحكم بما يشاء.. وعلى المتخاصمين السمع والطاعة، ولكن من حقهم في المقابل أن يقولوا الحق الذي يرونه، ما داموا يقولونه بكل احترام أمام سلطة القضاء، وتحت سقف القانون، حتى وإن خالف رأي القاضي ورفضه كل قضاة العالم".

وزعم التقرير مجدداً أن الأطباء ناقشوا مرة أخرى وبالتفصيل مسألة البدء بالعلاج بعقار (نظير السوماتوستاتين) مع عائلة منير بواسطة الدكتور ساجد، "إلا أن العائلة فضلت انتظار تشخيص جازم"، ورفضت حقن منير بالعقار المذكور، لكن هذا الكلام الذي أورده التقرير غير صحيح على الإطلاق، لأنه لم تتم أولاً استشارة العائلة بشأنه، فضلاً عن كثير من المسائل..

ولم تستطع ليلى الكلام عندما سمعت هذا الاتهام، لم يسمح لها القاضي بقول ما تريد، فلم تتلفظ به بلسانها لكنها كتبته لاحقاً في رسالة يبدو أنها لم تصل إلى المرسل إليه.. تقول الرسالة:

"يا سيدي القاضي.. الدكتور ساجد لم يستشر العائلة كما ورد في تقرير لجنة التحقيق.. وفي هذا تجن كبير على عائلتي يا حضرة القاضي المبجل، فهو يوحي وكأننا نحن من رفضنا إنقاذ منير وإعطائه الدواء لمواجهة مرض محتمل، وإن بتشخيص غير جازم ولمجرد احتمال ضعيف، بينما هم في الحقيقة حقنوه بالدواء نحو ثلاثة أشهر دون هوادة جراء تشخيص "غير جازم"، باعتراف التقرير نفسه،

وفيما يبدو أن هذا الاعتراف كان زلة لسان.. أليس في ذلك يا حضرة القاضي كذب وخداع واستهتار بالمحكمة واستقواء بك على أهل مريض توفي بين أيديهم نتيجة تجارب واحتمالات وتشخصيات غير جازمة.. قدموا إليك تلك المعلومات المتخمة بالمغالطات لكي تنصرهم على الحق؟! وهل القانون يمنع المدعي من قول الحقيقة التي يراها يا سيدي القاضي؟!".

وبالفعل فقد استمر منير بتناول هذا الدواء لمدة تصل إلى نحو ثلاثة أشهر بناء على "تشخيص غير جازم"، ومع ذلك نفى التقرير هذه "الحقيقة الجازمة"، وفي هذا دليل آخر على السعي البين لتزوير الحقائق المدهشة من جانب أطباء لا يليق بهم اللون الأبيض، وهذا دليل إضافي يؤكد عدم جدية التحقيق، في حال افتراض حسن النوايا وعدم الرغبة بالتزوير..

كما أن التقرير يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن التشخيص كان "غير جازم"، لكنه ينكر أنه تم حقن منير بالدواء الخاطئ مرة أخرى وثالثة ورابعة... دون تشخيص صحيح، فضلاً عن أن التقرير أعطى معلومات كاذبة تبين المستوى الحقيقي لأعضاء اللجنة، وكذلك للطبيب الذي ذكر اسمه بالتقرير وأدلى بمعلومات غير صحيحة وهو الدكتور ساجد، والأسوأ من ذلك كله أن المسؤول الصحي المعني مباشرة بالموضوع رفض مراجعة القضية، ورفض الاطلاع على الحقيقة ومقابلة الشهود..

ويضيف التقرير أنه على ضوء عدم كفاية الاحتياج من السعرات، نظراً لنقص التغذية عن طريق الفم، تم البدء في تنظيم بدائل للغذاء عن طريق المحاليل في فبراير 2015 بعد أخذ موافقة عائلة المريض.

عدالة التقرير؟!

التقرير ابتعد عن الحيادية التامة المنصفة بل وحتى عن الحيادية البسيطة

التقرير تضمن أكاذيب ومغالطات ووقائع غير صحيحة لم يتم التحقق منها

يذكر التقرير أموراً جانبية فيما يغفل عن أمور أساسية

القاضي وجد في الشهادات الموقعة اصطناعاً للأدلة!

تتساءل ليلى عن عدالة وحيادية وإنصاف التقرير الذي كان يحاول في كل مرة أن يثبت أن الأطباء قاموا ببذل الكثير من الجهود، وأن أسرة المريض كانت مقصرة نحوه، وأنهم من رفض علاجاً "غير جازم".. وتجنب في المقابل الإشارة إلى أية أضرار نتجت، ومنها التغذية بمقادير غير سليمة عبر السنترال لاين، وذلك بسبب عدم وضع معايير مناسبة للمحاليل، بحسب ما يحتاج المريض، كما قال الدكتور خليل الذي كان يتابع الحالة يومياً وقبل ذلك طبيب الكلى.

ويضيف التقرير أن المريض استمر يعاني من الإسهال المزمن وفقدان الوزن والهزال وفقدان النشاط المعتاد، وتم إعطاؤه مكملات غذائية ومحاليل ثم تحسن الإسهال قليلاً، وكذلك الشهية للطعام مع نهاية شهر فبراير 2015، إلا أنه لم يتم التوصل إلى تشخيص محدد للحالة، وتم إعادة إجراء فحص العينات النسيجية من الأمعاء والذي رجح وجود مرض كرونز وذلك في 16 مارس..

وهكذا يعود التقرير لـ"يرجح" دون أي دليل، ثم يتم البناء على هذا الترجيح ويؤكد أنه تم إعطاء منير أدوية جديدة نتيجة "ترجيح"، ثم تبينوا لاحقاً أنه ترجيح خاطئ، ومع ذلك يتجنب التقرير الخوض في هذا الكلام، ويظهر ذلك مدى ابتعاد التحقيق عن الحيادية التامة المنصفة، وحتى الحيادية البسيطة.

ويكمل التقرير بعد ذلك بالقول إنه خلال مكوث منير في المستشفى تم إدخاله إلى وحدة العناية المركزة مرتين؛ الأولى نتيجة تشنجات عامة بالجسم من جراء اختلال الأملاح نتيجة الإسهال المزمن الذي كان يعاني منه وتم علاجه منها، والثانية كانت بسبب حدوث التهاب رئوي وتم إعطائه العلاج اللازم، لكنه لم يشر إلى الخلل في التغذية الوريدية، كما أنه لم يذكر موضوع الكميات العالية من الكورتيزون التي ساهمت بحدوث تشنجات، كما تجنب ذكر أسباب الالتهاب الرئوي... فهل هكذا تكون عدالة التحقيق الطبي وحياديته وإنصافه؟؟؟!!!.. كما تساءلت ليلى.

ويشير التقرير بعد ذلك إلى استمرار علاج الطفل المريض بقسم الجهاز الهضمي، وأنه كان يباشر حالته فريق من أطباء الغدد الصماء، علماً أنه لم يكن هناك في الحقيقة فريق كما أكدت شهادة عامل التنظيفات وشهادة والد منير،

بل كانوا مجموعة من الطلاب مع أستاذهم الذي حول غرفة منير إلى قاعة دراسية دون أخذ إذن الوالدين.

ويزعم التقرير أنه نظراً لعدم كفاية الاستجابة للعلاج بالكورتيزون – ولم يشر التقرير إلى خطأ التشخيص وتهرب من ذلك إلى القول بعدم كفاية الاستجابة، فكيف يستجيب المريض إذا كان العلاج بني على تشخيص خاطئ؟! – فتمت الاستعانة بخبير في الفحص المجهري للأنسجة في فرنسا – التقرير يوهم القضاء هنا بأن الأطباء هم من أرسلوا العينات إلى فرنسا، بينما الأسرة هي ما بادرت إلى ذلك وعلى نفقتها الخاصة – حيث ورد تقرير من مختبر (يوني لاب) بمدينة ليون بفرنسا، بتاريخ 2015/5/21، إثر فحص مجهري لعينات نسيجية من الأمعاء الدقيقة والغليظة للمريض، أرسلت بواسطة الأطباء المعالجين بالمستشفى – وهذا دليل آخر على عدم دقة التقرير لأن الأطباء لم يرسلوا العينات بأنفسهم – حيث لم يختلف ما انتهى إليه التقرير عن الاحتمالات التي وصل إليها الأطباء المعالجون بالمستشفى المحلي، من أن ما يعاني منه المريض التهاب مزمن غير محدد بتلك العينات.

وأشار التقرير الى احتمال أي من مرض سيلياك أو مرض كرونز، ثم تم الاستعانة بأحد استشاري أمراض الدم والذي اقترح بعد إجراء بعض الفحوصات أن يتم أخذ عينة من النخاع العظمي لإجراء فحوصات متقدمة، إلا أنه تم تأجيل هذا الإجراء نظراً لإصابة الطفل المريض بارتفاع في درجة الحرارة بسبب عدوى بكتيرية والتهاب رئوي، دون أن يقر التقرير بأن العدوى كانت من المستشفى وتكررت عدة مرات.

ويضيف التقرير: ثم تم تكوين لجنة استشارية برئاسة رئيس قسم الباطنية بالمستشفى، وعضوية استشاريين في تخصصات: علم الأمراض النسيجي، والجهاز الهضمي، والغدد الصماء، وأمراض الكلى، والأمراض الصدرية، والمناعة، لدراسة الحالة، وقد أصدرت اللجنة تقريرها في 2015/5/25 حيث جاء في التقرير أن الاحتمال الأرجح هو مرض سيلياك – وهنا يعودون للقول إنه احتمال وأنه أرجح – وتم علاجه بحمية خاصة تعرف بنظام غذائي خال من الغلوتين، وكذلك أوصت اللجنة بإعادة قياس هرمونات الجهاز الهضمي وأخذ عينة من

البنكرياس وإجراء بعض التحاليل والأشعات المتخصصة الأخرى، ومحاولة أخذ عينة من النخاع بعد موفقة الأهل لاستبعاد وجود درن أو أورام الجهاز الليمفاوي – وذلك بالرغم من ضآلة هذين الاحتمالين – ومراجعة الأشعات وعينات الأنسجة المأخوذة من البلد الآخر، وقد تم إجراء جميع تلك الفحوصات، حيث ورد تقرير من رئيس وحدة الجهاز الهضمي الدكتور حمد قال فيه إن المريض شخص بمرض (سيلياك) بناء على فحص محدد وتحليل عينات الأنسجة، وهو على حمية غذائية خالية من الغلوتين.. وأدلى بمجموعة من المسائل منها أنه تم إرسال عينات أنسجة الأمعاء إلى فرنسا للمراجعة – وكأنهم هم الذين أرسلوها – وتم إرسال عينة لقياس مستوى الرصاص.

وذكر التقرير ملخصاً عن تقارير الفحص المجهري النسيجي في مستشفيات ثلاث بلدان، البلد الحالي والبلد الآخر الذي كان يعالج فيه المريض وفرنسا. وذكر تقريرين صادرين في المستشفى المحلي، في يوم واحد وفي مختبر واحد، قدما تشخيصين مختلفين تماماً، الأول انتهى إلى تشخيص التهاب مزمن شديد بالاثني عشر، والتهاب مزمن بسيط الشدة بالمعدة وتضخم نسيجي مزمن بالقولون. والثاني ينتهي إلى تشخيص التهاب متقرح بالأمعاء مع تكون ورم حبيبي يرجح أنه كرونز.. ويقول إن تقرير فرنسا يشير إلى تشخيص التهاب مزمن غير محدد بالأمعاء من الممكن أن يكون سيلياك أو مرض كرونز.

ويذكر التقرير أموراً جانبية أخرى فيما يغفل عن أمور أساسية عرضها والد منير، ويقول التقرير إنه خلال الأسابيع التالية من شهر يوليو استمرت حالة الطفل بالتدهور وضعف الجهاز المناعي بالجسم، ما جعله عرضة لسهولة الإصابة بالعدوى البكتيرية، مما نتج عنه حدوث تسمم بكتيري بالدم صاحبه تدهور شديد في حالته الصحية وهبوط حاد بالدورة الدموية والقلب، ما أدى إلى وفاته. دون أن يتحدث عن سبب العدوى، ولماذا لم يتم اتخاذ الاجراءات الوقائية والاحترازية طالما أن الإصابة بالعدوى كانت محتملة ومرجحة لديهم..

ثم تحدث التقرير عن جزء من شكوى الأب التي ذكر منها خمسة تشخيصات خاطئة على الأقل، وقد أكد بعضها التقرير نفسه، لكنه حاول التملص منها والهروب إلى الأمام بجمل علمية وادعاءات غير صحيحة، أخذ بها القاضي،

وكأن شهادة الأب فضلاً عن شهادة الشهود لا محل لها من الحقيقة.

وتحدث التقرير عن سبب موته المباشر، مشيراً إلى العدوى البكتيرية التي لم تذكرها سابقاً شهادة الوفاة، وفي هذا إضافة بالغة، لكن هل سأل القاضي عن سبب هذه البكتيريا التي حاولوا تبرير حصولها في التقرير، وهل سأل كذلك لماذا لم يتم علاجها فوراً وكأن موته صار أمراً حتمياً، بالرغم من أن شكوى الأب أشارت بوضوح كبير إلى دور السنترال لاين في حدوث العدوى البكتيرية، فضلاً عن أنهم لم يتخذوا أي إجراء احترازي لتجنب حدوثها، رغم اعترافهم بأنهم كانوا يتوقعونها، كما أنهم تركوا البكتيريا عدة أيام تنهش دمه ولحمه دون أن يقوموا بنزع السنترال لاين من وريد رقبته الملوث بالبكتيريا كما قالت شهادة عامل التنظيفات نفسه، حتى توفي.. رحمه الله.

كما تحدثت شكوى الأب عن تغيير التشخيصات بشكل متسارع، وعدم التنسيق بين الأطباء، والتهاون بإعطائه علاجات لمرضى آخرين.. لكن التقرير تجاهل كل ذلك، في محاولة لاستبعاد ارتكاب الطاقم الطبي للعديد من الأخطاء، حتى أنه لم يطرح أي قضية من هذه القضايا للبحث والتحقيق وسؤال من أورد الأب أسماءهم، كما أنه تم ايضاً إغفال مسألة مهمة جداً، وهي وجود جرح غائر في خصر منير بحدود 10 سنتمترات اكتشف عند غسله لدفنه بشهادة ثلاثة من الأقارب والأصدقاء، ولم يأت التحقيق على ذكر الجرح من قريب أو من بعيد.. فضلاً عن أن القاضي رفض شهادة الشهود الثلاثة.

وقال التقرير إنه تم استدعاء أبو منير لمناقشته إلا أن اللجنة لم تتمكن من مناقشته بحجة إصراره على وجود محاميه، ورفضه الإجابة على سؤال ما إذا كان يحمل تسجيلاً يريد به تسجيل وقائع الحوار.. ولم يذكر التقرير موضوع العينة التي تم أخذها من النخاع الشوكي، وكيف تم أخذها دون نقل الطفل إلى غرفة العمليات، ودون أن يتم إعطاؤه مخدراً، وتعريضه لألم شديد ولمخاطرة رغم ما وصفه بـ"ضآلة" احتمال التوصل إلى نتيجة.

وخلصت اللجنة إلى القول: "إن الطفل المريض سبق إصابته في بلد آخر بحالة مرضية في يونيو 2014" وهذا يتناقض مع التقرير نفسه، في التاريخ والإصابة، كما أنه كان في البلد المقيم فيه عند إصابته بالحالة التي ذكرت

في عينه اليمنى، كما أنه أشار إلى أن "حالة منير والتي تمثلت بإسهال مزمن وفقدان للسوائل والأملاح وفقدان الوزن كلها أعراض من الممكن أن تحدث نتيجة لأكثر من مرض، وليست من مرض واحد، وقد تكونت أمراض تصيب الجهاز الهضمي أو الغدد الصماء مثل البنكرياس، وقد تكون نتيجة أحد أمراض المناعة، أو الدم، أو نتيجة تسمم، ولذلك وخلال مراحل الحالة المرضية فقد باشر الأطباء حالته من تخصصات مختلفة، وهو أمر مقبول من الوجهة الطبية، وشائع الحدوث في حالات غير قليلة ولاسيما في مثل حالة الطفل المتوفى، وبعد دراسة الملف الطبي للطفل ترى اللجنة أنه لم يحدث خطأ أو أخطاء من قبل الأطباء الذين باشروا الحالة أو عدم التنسيق بينهم أو إجراء تجارب على المريض المذكور كما ورد بشكوى والده"..

وذكر أن الأطباء المباشرين رجحوا عدة أمراض لكن الأعراض أدت إلى صعوبة شديدة في الجزم بتشخص المرض، وإن وفاة الطفل حدثت نتيجة الإسهال المزمن، وما تسبب عنه من مضاعفات أدت إلى فقدانه للسوائل والاملاح المختلفة بالجسم، ما أدى إلى فقدان الوزن والهزال وضعف الأجهزة المناعية، ما أدى إلى حدوث تسمم بكتيري بالدم أدى إلى هبوط بالدورة الدموية والقلب وحدوث الوفاة، وإن كل المضاعفات من الوارد حدوثها في مثل هذه الحالات رغم تلقيها العلاج المناسب..

ويفيد بأن اللجنة الطبية لم تجد فيما اطلعت عليه من ملفات وتقارير طبية ما يشير إلى ثمة تهاون أو خطأ طبي جسيم أو إهمال في تشخيص أو علاج الطفل من قبل أي من الأطباء منذ دخوله المستشفى حتى وفاته، (وهذا يعني أنه يمكن حدوث خطأ طبي غير جسيم لكنه أمر لا يستحق الاهتمام). وقرر الطب الشرعي التابع للأدلة الجنائية بناء على ذلك في تقريره المقدم للمحكمة أنه: "لا يوجد ما يشير إلى ثمة تهاون أو خطأ طبي جسيم أو إهمال في تشخيص أو علاج الطفل".

وعلقت ليلى على هذه النتيجة بالقول:

"يبدو تقرير لجنة الأطباء مستميتاً في السعي بكل جهده لكي يبرر للأطباء المباشرين ما فعلوه، متجاهلاً إلى أبعد حدود كل الملاحظات والتهم، حتى

أنه لم يرد على شهادة المدعي ولم يفندها، وكأن هم اللجنة الأول البحث عن تبريرات وسبل للدفاع عن المدعى عليهم..

وبذلك نصب أعضاء اللجنة أنفسهم محامين عن المدعى عليهم، عوضاً أن يكونوا محايدين تماماً ومنصفين، خاصة أنه من المفترض أن تكون لجنة التحقيق تحت قسم القضاء، لأن الحكم سيصدر بناء على توصياتها، وبهذا تكون اللجنة قد ضللت القضاء سواء عن قصد أو غير قصد. لكنها - كما يبدو - تعمدت حجب المعلومات من جانب، والتستر على أحداث وقعت من جانب آخر، ورفضت الاستماع إلى العائلة تحت حجج واهية، ونقلت معلومات كثيرة غير صحيحة.. كل ذلك يجعل اللجنة متواطئة، ويجعل تقرير اللجنة مضللاً للقضاء، وهو ما أدى إلى صدور حكم مبني على باطل.. وما بني على باطل فهو باطل، كما تقول القاعدة المشهورة".

وفي الحقيقة.. لم تكن المحامية ولا عائلة المريض ولا أصدقاؤه ولا أصدقاء العائلة يتوقعون من اللجنة أن تكون محايدة، وخاصة كما اتضح في دفاعها عن الأطباء والمفترض أن تكون منصفة وتشير إلى ما يقوله الأب من جانب وما يقوله الأطباء من جانب آخر وتتقصى الحق..

كما أن التقرير أورد أخطاء جمة، ووقائع غير صحيحة، فضلاً عن اعترافات بأن التشخيصات كانت كلها مجرد ترجيحات، إلى جانب التستر على الحقائق الخطيرة التي أوردها المدعي من قبل في بيانه المقدم خطياً للجنة.

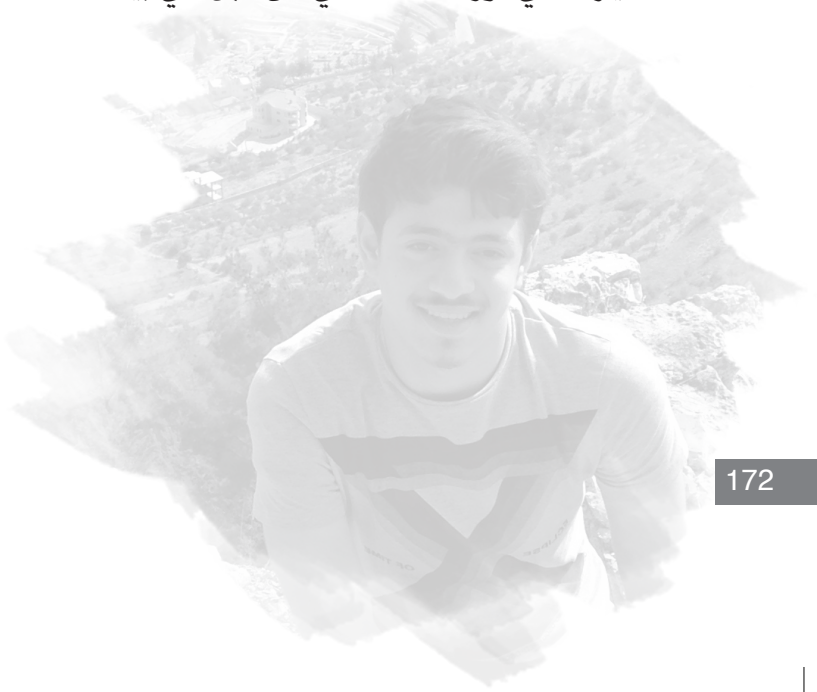

في قاعة المحكمة

الحكم أغفل
استعراض الأدلة
والتعليق عليها مما يؤكد
عدم بحث ودراسة سائر
أوراق الدعوى عن بصر
وبصيرة

أسباب
الحكم تعتبر
مشوبة بالفساد في
الاستدلال إذا انطوت
على عيب يمس سلامة
الاستنباط

تعرض لأشد
أنواع القسوة
والإهمال والإهانة ممن
يفترض بهم الرحمة
والإنسانية

وقفت المحامية ليلى الراصد أمام القاضي وبرفقتها المحامي محمد الحساس، ورفعت للقاضي كلمتها في صحيفة الاستئناف وطعنت في التقرير الطبي، رافضة كثيراً مما قالته لجنة التحقيق الطبية، وطالبت بانتداب لجنة طبية أخرى محايدة للاطلاع على ملف المتوفى لمعرفة حقيقة مرضه والعلاج الذي تم إعطاؤه له، والكيفية التي تم تشخيص المرض بها، ومدى ملائمة العلاج، وحالته، وهل تم ذلك استناداً للأصول الطبية المتبعة في ذلك، وهل ثمة أخطاء حدثت عند وصف العلاج له، وهل تم اعطاؤه هذه العلاجات بالطريقة الصحيحة طبياً، وهل كان المرحوم يعاني فعلاً من مرض كرونز، وكذلك التأكد إذا ما كانت هناك أية أخطاء طبية أو إهمال من قبل الأطباء المشرفين عليه، ومدى تأثير العلاجات التي تم اعطاؤها له على صحته، وسبب تدهور حالته الصحية التي تسببت بعدم مقدرته على المشي والتشنجات ومن ثم النزيف والوفاة.

وقالت المحامية إن ذلك يأتي على سند من القول إن المريض أدخل المستشفى نهاية عام 2014 وكان يعاني إسهالاً شديداً ومتواصلاً، ومكث بها مدة سبعة أشهر إلى أن توفاه الله، وجاء في شهادة الوفاة أن سبب الوفاة هبوط حاد بالدورة الدموية والقلب ونزيف ودم من الشرج وإسهال مزمن وتدهور في وظائف الكلى والجهاز الهضمي.

وحيث أن المتوفى عند إدخاله للمستشفى ومكوثه فيها لفترة طويلة قد تعرض لخطأ بتشخيص المرض، فالأطباء المشرفين قرروا أنه يعاني من عدة أمراض ومنها مرض كرونز، وكانت كلها تشخيصات خاطئة، وتم إعطاؤه أدوية متعددة ومنها كورتيزون بكمية كبيرة لا تناسب سنه ولا جسمه الهزيل، ما تسبب له بمضاعفات في الكلى والجهاز الهضمي وتشنج يشبه الصرع، ثم تراجع الأطباء عن قرارهم بأن مرضه كرونز كما تراجعوا عن التشخصيات التي تمت قبل ذلك، وتم تحويله للعناية المركزة بعد تدهور صحته وخرج منها لا يستطيع السير على قدميه، وتم بعد ذلك نقله من جناح الأمراض الباطنية وتحويله إلى مركز الجهاز الهضمي حتى يتنصلوا من مسؤوليته بلا أي رحمة أو ضمير أو مراعاة أصول مهنة الأطباء الإنسانية .هذا فضلاً عن تلقى المرحوم علاجات أخرى أدت لتدهور حالته الصحية ومنها مسيلات للدم بكمية كبيرة ما تسبب له بنزيف مستمر لم يتمكن الأطباء من إيقافه .

وأشارت إلى أنه تم وضع إبرة المحاليل برقبته مما وفر بيئة مناسبة لتكون بكتيريا

بدمه بسبب السنترال لاين، ولم يتم نزعه منه بحجة عدم وجود شريان آخر بجسمه، كما أنه أعطي علاجات تخص مريضاً آخر بالخطأ، عندما وضعت وصفة مريض آخر بملفه دون أن يلاحظ الممرض اسم المريض المدون عليها، مما تسبب أيضاً بتدهور صحته، وبالتالي وفاته .

وقالت: لما كان المرحوم يافعاً في مقتبل العمر ولا يتجاوز السادسة عشرة، فقد تعرض لأشد أنواع القسوة والإهمال والإهانة من أناس كان يفترض فيهم الرحمة والإنسانية، طوال سبعة أشهر حتى وفاته.. ولما كانت الوفاة بسبب أخطاء بتشخيصات عديدة لمرضه، وتناقض نتائج العينات المأخوذة منه، ففي حين قرر الأطباء في المستشفى أن مرضه كرونز إلا أن نتائج نفس العينات تم فحصها في مستشفيات أخرى بينت أن العينات خالية من هذا المرض. وحيث عرضت هذه النتائج على الأطباء المشرفين على حالته إلا أنهم لم يأخذوها بعين الاعتبار، وأُعطيَ علاجات لا تناسب مرضه، وبكميات كبيرة أدت إلى تدهور صحته وبالتالي إلى وفاته .

وأضافت أنه في جلسة 2016/3/16 حكمت محكمة أول درجة بإحالة الدعوى للخبرة.. وإذ ورد تقرير الطب الشرعي وقدم المستأنف مذكرة اعتراضات على هذا التقرير، وطلب في ختام دفاعه إعادة ملف الدعوى إلى الطب الشرعي لتنتدب لجنة طبية محايدة لا تضم الأطباء السابقين، مهمتها الاطلاع على الملف الخاص بنجل المدعي لبحث جميع الاعتراضات السابقة، ولتحديد سبب الوفاة الحقيقي، وماهية المرض، وكيفية علاجه طبقاً للأصول الطبية المتعارف عليها، ولبيان إغفال التقرير عن إثبات وبحث وجود جرح غائر في جنب المتوفى الأيمن، وبشكل واضح، وعما إذا كانت هناك ثمة أخطاء طبية وقعت من الأطباء المعالجين، سواء في التشخيص، وكيفية علاج المرض، والدواء المخصص لعلاجه، ومدى تأثير الأدوية التي أعطيت له في حدوث الوفاة، تمهيداً لإلزام المدعى عليهم بما يسفر عنه التقرير، وفقاً لقواعد المسؤولية التقصيرية .

وبينت أن المحكمة قررت حجز الدعوى للحكم ليصدر بجلسة 2017/11/29 ليصدر الحكم المبين منطوقه بصدر هذه الصحيفة.. ولما كان ذلك وكان الحكم المستأنف قد صدر "مجحفاً" بحقوق المستأنف، حيث شابه عيب الخطأ في تطبيق القانون وتأويله، ومخالفة الثابت بالأوراق، والفساد في الاستدلال، والقصور بالتسبيب،

الأمر الذي دفع المستأنف إلى الطعن عليه بالاستئناف الماثل بغية القضاء له بإلغاء هذا الحكم وذلك للأسباب التالية:

أولاً: من حيث الشكل: الاستئناف مقبول شكلاً لإقامته في الميعاد المقرر قانوناً.

ثانياً: الأثر الناقل للاستئناف: جاء بنص القانون أن "الاستئناف ينقل الدعوى بحالتها التي كانت عليها قبل صدور الحكم المستأنف بالنسبة إلى ما رفع عنه الاستئناف، على أساس ما يقدم لها من أدلة ودفوع وأوجه دفاع جديدة، وما كان قد قدم من ذلك لمحكمة الدرجة الأولى."

ثالثاً: أسباب الاستئناف: الفساد في الاستدلال والقصور في التسبيب ومخالفة الثابت بالأوراق، حيث أنه من المقرر بقضاء التمييز "أن الحكم يجب أن يكون مبنياً بذاته، ما يطمئن المطلع عليه إلى أن المحكمة قد محصت الأدلة التي قدمت إليها، وحصلت منها ما تؤدي إليه، وذلك باستعراض هذه الأدلة والتعليق بما ينبأ عن بحث ودراسة أوراق الدعوى عن بصر وبصيرة، والإفصاح عن مصادر الأدلة التي كونت منها عقيدتها وفحواها، وأن يكون لها مأخذها الصحيح من الأوراق، وأن يكون ما استخلصته سائغاً ومؤدياً إلى النتيجة التي خلصت إليها، حتى يتأتى لمحكمة التمييز أن تعمل رقابتها على سداد الحكم، وأنه وأن كان لمحكمة الموضوع السلطة التامة في تحصيل وفهم الواقع في الدعوى وتقدير الأدلة والأخذ بما تطمئن إليه منها وطراح ما عداها؛ إلا أنه مشروط لذلك أن يقيم قضاءها على أسباب سائغة."

وقالت المحامية ليلى: إنه وهدياً من قضاء محكمة التميز، وحيث قضت محكمة أول درجة برفض الدعوى استناداً على تقرير الطب الشرعي، إلا أن تلك المحكمة لم تمحص الاعتراضات التي قدمت أمامها من المستأنف، والمشفوعة بالأدلة التي تؤكد على صحة تلك الاعتراضات، إلا أن الحكم أغفل استعراض هذه الأدلة والتعليق عليها، مما يؤكد على عدم بحث ودراسة المحكمة لسائر أوراق الدعوى عن بصر وبصيرة، مما يعد فساداً في الاستدلال وقصوراً في التسبيب، هذا فضلاً عن عدم إفصاح تلك المحكمة عن مصادر الأدلة التي كونت منها عقيدتها وفحواها، دون تقرير الخبرة والتي ليس لها مأخذها الصحيح من الأوراق".

وأكدت أنه من المقرر في قضاء محكمة التمييز أنه "وإن كان لقاضي الموضوع السلطة في تقدير الأدلة والمستندات؛ إلا أنه إذا كانت الأسباب التي استند اليها غير مؤدية إلى النتيجة التي انتهى إليه في قضائه فإن حكمه – وعلى ما جرى به قضاء هذه المحكمة – يكون معيباً بالفساد في الاستدلال، وكذلك الحال إذا ما أوردت محكمة الموضوع أسباباً لتبرير أخذها بدليل معين أو عدم الأخذ به، فإن لمحكمة التمييز أن تقضي بتمييز الحكم إذا كان استخلاصه غير سائغ مبنياً على أدلة أو قرائن ليس من شأنها أن تؤدي إلى ما انتهى إليه".

وقالت: "من المقرر أيضاً أن أسباب الحكم تعتبر مشوبة بالفساد في الاستدلال إذا انطوت على عيب يمس سلامة الاستنباط، ويتحقق ذلك إذا استندت المحكمة في اقتناعها إلى أدلة غير صالحة من الناحية الموضوعية للاقتناع بها، أو عدم فهم العناصر الواقعة التي ثبتت لديها، أو وقوع تناقض بين هذه العناصر، كما في حالة عدم اللزوم المنطقي للنتيجة التي انتهت اليها المحكمة، بناء على تلك العناصر التي ثبتت لديها".

وذكرت أن المستأنف تقدم بمذكرة دفاع أمام محكمة أول درجة بجلسة 2017/10/25، تضمنت اعتراضات على كامل ما جاء بتقرير الطب الشرعي، إلا أن تلك المحكمة لم تمحص تلك الاعتراضات، وأغفلت عن الرد عليها، والتي تؤكد على عدم مطابقة هذا التقرير مع الحقائق والواقع، وحيث أننا نتمسك أمام عدل المحكمة بجميع تلك الاعتراضات والتي نوجز أهمها في النقاط التالية:

أولاً: إغفال التقرير وجود جرح كبير في بطن المتوفى يصل إلى نحو 10 سم:

فالتقرير أغفل طرح مجموعة من الوقائع الهامة التي طرحها المستأنف في تقريره المكتوب إلى لجنة التحقيق، فقد أكد الأب (المستأنف) في بداية التقرير وبحروف بحجم كبير، وفي الصفحة الأولى، أنه وجد في بطن ابنه المتوفى عند القيام بغسله وتجهيزه للدفن جرحاً كبيراً يصل إلى نحو 10 سم، وأن الأب لم يحصل على رد من المستشفى عن سبب هذا الجرح، وأنه تقدم بأكثر من ثلاث شكاوى لمدير المستشفى، وأخرى لوزير الصحة، وجميع الوكلاء، يطلب تفسيراً لهذا الجرح، لكنه لم يصل إلى جواب، ومع ذلك تجاهلت لجنة التحقيق التحقيق في هذا الموضوع والبحث فيه، لا من قريب ولا من بعيد،

رغم خطورته الشديدة، وقيام المستشفى بإجراء لم يتم أخذ إذن ولي أمر الطفل قبل إجرائه، كما لم يتم إبلاغ ولي الأمر بأنهم سيقومون بفتح بطنه، كما أنهم لم يفيدوه بسبب ذلك فيما بعد، رغم سؤاله المتكرر حول هذا الموضوع.
والسؤال الحتمي – تضيف المحامية – ما هو سبب تجاهل اللجنة وعدم تحقيقها بهذه الحادثة الخطيرة، علماً بأن لدى المستأنف ثلاثة شهود مستعدين للشهادة أمام المحكمة، وهم شاهدوا الجرح الكبير في جانب من بطن الطفل المتوفى.
وهنا يتساءل المستأنف: لماذا فتحوا بطن المتوفى؟!!! هل فتحوا بطنه قبل أو بعد وفاته؟ وهل قاموا باستئصال أعضاء من جسمه بعد موته دون استئذان العائلة؟! ولما أخفوا الأمر ولم ويشيروا إليه من قريب أو بعيد؟؟!!

ثانياً: تعارض التقرير في تحديد سبب الوفاة مع الثابت بشهادة الوفاة، فقد أشار التقرير بوضوح إلى أن سبب الوفاة كانت إصابته ببكتيريا قاتلة، سممت دمه، علماً بأن هذا الأمر لم يذكر سابقاً في تقرير الوفاة، حيث ذكرت شهادة الوفاة أن الوفاة كانت بسبب هبوط بالدورة الدموية، لكن التقرير يؤكد أن السبب الحقيقي لوفاته كان إصابته بعدوى بكتيرية وتسمم الدم.. وهذه العدوى تتحمل مسؤوليتها المستشفى، وهذا يعني أن كل مريض يدخل المستشفى من المحتمل أن يصاب بعدوى بكتيرية، كما أنهم لم يقوموا بعلاج هذه العدوى فوراً وتركوه يصارعها حتى الموت، حيث أنهم لم يقوموا بنزع أنبوب التغذية من رقبته والذي كان سببا للبكتيرياً، وكانوا يضعون كل الأدوية من خلال هذا الأنبوب الملوث بالبكتيريا، وكانت البكتيريا تتغذى من هذا الأنبوب وبالمواد الذي يحقن الطفل المتوفى بها من خلاله، حتى تسمم جسمه بالكامل وأدى ذلك إلى وفاته.

كما أن التقرير في نهايته يجزم بأن سبب الوفاة كانت بسبب حدوث تسمم بكتيري بالدم أدى إلى هبوط بالدورة الدموية والقلب وحدوث الوفاة.. وهذا الجزم وحده دليل قطعي ونهائي أكيد بغض النظر عن كل الأخطاء الواردة بالتقرير، فهذا الجزم الأخير بالتقرير يؤكد أن هناك عدوى سببها المستشفى، وكان سببها السنترال لاين الموضوع في الرقبة ولم يتم نزعه فور حدوث العدوى البكتيرية.

ثالثاً: لم يتم التحقيق في الحقن والأدوية التي أخذها الطفل بالخطأ، إذ إن تلك الحقن والأدوية التي أخذها الطفل المتوفى كانت مخصصة لمرضى في غرف أخرى، وخاصة حقنة في (وريد الرقبة) كانت ذاهبة لمريض مسن لديه غيبوبة سكر بحسب قول الدكتور نوفل – كما ورد سابقاً في شهادة عامل التنظيفات الذي شاهد بنفسه الورقة الخطأ الموضوعة في ملف منير رحمه الله وهي لمريض آخر – وكذلك إعطاء المتوفى (كيس حديد) في الدم مباشرة عبر وريد اليد، وكان أيضاً لمريض آخر.. وهذا الكلام مدون في تقرير المدعي الموجه للجنة، ومع ذلك لم تقم اللجنة بذكره من قريب أو بعيد.

رابعاً: تأكد للجنة التشخيص الخاطئ لحالة المتوفى، فقد أثبت التقرير أن التشخيص كان غير جازم، ومع ذلك تم حقن المريض بكل تلك الحقن البيولوجية الهرمونية الغالية الثمن، والتي تضر الإنسان السليم لو أخذها دون حاجة إليها، فكيف بمريض هزيل الجسم، ضعيف البنية، ما زال في سن الطفولة، ويأخذ هذا الدواء الخطير بتشخيص "غير جازم"، على حد تعبير التقرير، الذي ينفي أن الطفل المتوفى حقن بهذا العقار بينما في الحقيقة تم حقنه بالعقار لمدة أربعة أو خمسة أيام بثلاث حقن يومية ثم بحقنة شهرية لمدة شهرين متواصلين قبل تغيير التشخيص مرة أخرى، بتشخيص خاطئ أيضاً.. باعتراف التقرير نفسه. وقد تم بالفعل حقن الطفل المتوفى بهذه الحقن لشهرين متواصلين إلى أن تم تغيير التشخيص، وأكد الدكتور حمد أنه مرض كرونز، فيما أكد الأطباء الآخرون ذلك أيضاً، وأنه متأكد 100%، ورفضوا استشارة أي طبيب بحجة أنه أفضل طبيب كرونز في البلاد، وقالوا ذلك حرفياً، ورفضوا طلب العائلة، رغم إلحاح والد ووالدة منير، بحجة أنه أفضل طبيب كرونز ولا يوجد من هو أفضل منه.

ويقول التقرير إن الطبيب رجح وجود مرض كرونز وذلك في 2015/3/16، وهنا التقرير يقول رجح، بينما الأطباء وقتها قالوا إنه متأكد 100%، وبناء على هذا الترجيح قاموا على الفور بحقنه بكميات ضخمة من الكورتيزون، ما أدى إلى تدهور صحته بشكل سريع وكبير ودخوله العناية المركزة، وقال الدكتور ساجد حينها إن جسم منير لا يتحمل هذه الكمية الهائلة من الكورتيزون، وعندما

سألته له الأم: لماذا لا تقولون ذلك للدكتور حمد؟ قال الدكتور ساجد ومن كان معه من الأطباء إنهم لا يتدخلون بقراراته، ولم يكن الأهل يطلبون التدخل بل التفاهم وتبادل الرأي.

ويشير التقرير إلى دخول منير مرتين إلى العناية المركزة، واحدة منهما بسبب تشنجات حدثت جراء اختلال الأملاح وتجاهل التقرير كميات الكورتيزون التي لم يتحملها الجسم والتي تم تخفيضها بالعناية المركزة من 4 حقن 100 ملغ في اليوم إلى 3 حقن 50 ملغ ثلاث مرات في اليوم لأنهم لم يستطيعوا توقيفها فوراً، فتم تخفيضها فوراً إلى أقل من الثلث تقريباً، وهذا أكبر دليل على أن الكورتيزون كانت كميته كبيرة، كما أن التقرير غفل عن هذا الموضوع المهم، ولم يذكره على الإطلاق.. وهل هناك دليل أكبر من هذا على عدم حيادية اللجنة.

كما أن التقرير تجنب الحديث عن تشخيص الكرونز وذكره عرضاً رغم خطورته، ورغم ما حدث معه إثر حقنه بالكورتيزون ما أدى إلى إدخاله العناية المركزة، فيما يذكر التقرير أسباباً أخرى بينما الدكتور ساجد نفسه المذكور اسمه بالتقرير أكد لعائلة منير أن كمية الكورتيزون كانت عالية جداً فتم تخفيضها من 400 ملغ يومياً إلى 150، وهذا دليل على أن هناك خطأ جسيماً في تقدير الكمية، وفي النهاية تبين أن التشخيص كان خاطئاً، ولم تكن هناك ضرورة لتعريض الطفل لكل هذه الكمية الضخمة من الكورتيزون... ومع ذلك لم تهتم اللجنة بهذه المسألة.

ولا بد للإشارة إلى أمر آخر مصاحب، وهو أنهم قرروا قبل ذلك أنهم سيخرجون منير من المستشفى، وقرروا وقف جميع الأدوية والمحاليل الوريدية والاستعاضة عنها بأدوية عن طريق الفم، واستمر ذلك لمدة أسبوع كامل، حتى تدهورت حالة منير، وأصيب بهزال شديد، دفع الدكتور ساجد إلى وضع أنبوب مغذ في عملية أجريت في غرفة العمليات، لكن بعد أيام وبسبب أخطاء في وضع المحاليل وبشهادة طبيب الكلى، وارتفاع نسبة الحموضة بالدم كاد منير وقتها يصاب بفشل كلوي، وتم نقله على عجل إلى العناية المركزة، وكانت الطبيبة هناك مستعدة لوضعه على جهاز غسيل الكلى كما أخبروها، لكنها رفضت

ذلك وأعادته إلى غرفته في أقل من ربع ساعة.. بعد الاطمئنان على صحته.. وتجنبت اللجنة التحقيق في هذه المسألة رغم خطورتها.

ويشير التقرير أنه تم بعد ذلك أخذ عينة من النخاع العظمي "بالرغم من ضآلة" احتمال الوصول إلى نتيجة كما يؤكد التقرير، وذلك لاحتمال وجود درن أو أورام.. وكلمة "ضآلة" تعني أنه تم تعريض الطفل المسكين لخطر عملية جراحية قاسية وإن كانت محدودة، وهو في هذا الوضع الصعب، مع تعريضه لآلام شديدة مبرحة جداً لا يتحملها الإنسان القوي السليم الخالي من الأمراض، وذلك لعدم تخديره عند القيام بحفر عظام حوضه لاستخراج النخاع العظمي منه، وكان الطفل في هذا الوقت يصرخ بصوت عال جداً من شدة الألم ولنحو نصف ساعة وأكثر، ثم في النهاية يكون الاحتمال "ضئيلا"!!!.

وتتساءل المحامية ليلى الراصد: لماذا تم تعريضه لكل هذا الخطر والألم مع احتمال إصابته بعدوى أو بشيء ما نتيجة ضعف جسده وهزاله، وضعف مناعته كما أشار التقرير نفسه بحثاً عن شيء غير محتمل، أليس في هذا استهتار بحياة المريض؟!!!! أليس في هذا دليل آخر من التقرير نفسه يؤكد وبشكل مباشر وواضح أن المريض تعرض لانتهاك خطير، بإخضاعه لعملية خطيرة وهو في وضع صحي خطير، ولاحتمال "ضئيل"، والضئيل يعني أن النسبة ضعيفة جداً، ربما واحد إلى 5%، فهل تستحق هذه الاحتمالية "الضئيلة" المجازفة وتعريضه لألم شديد وخطر مميت، وأن ننتهك حرمة جسده وكرامته الإنسانية بلا سبب وجيه؟؟؟!!!

خامساً: عدم حيادية اللجنة ومنعها للمستأنف من حضور التحقيق: فقد كان التعامل مع الوالدين تعسفياً واستفزازياً، وعندما سمع المحامي الصوت العالي دخل الغرفة وأصر على حضور الجلسة، وبين لهم أنه لا توجد أي موانع قانونية ولا أسباب تمنع من حضوره التحقيق، رفض أحد أعضاء اللجنة ذلك رفضاً قاطعاً، ثم قام من مكانه وخرج من الغرفة قائلاً إنه سيقوم بكتابة (عدم تعاون)، وانسحب دون استشارة العضوين الآخرين - أحدهما أجنبي كان مصاباً بالدهشة ولم يكن يدري ماذا يحدث تماماً لعدم إتقانه لغة الحوار، والعضو الآخر كان يحاول تهدئة العضو الذي كان منفعلاً منذ اللحظة الأولى - وعند

انسحابه لوحده ثم لحق به العضوان الآخران ظل الوالدان يجلسان في مكانهما لنحو خمس دقائق بانتظار عودته، لكنه رفض العودة رغم تحدث الأب والأم مع سكرتيرة العميد التي طلبت لاحقاً إرسال رأي الوالدين مكتوباً.

وتذكر المحامية أنه بعد خروج الأب والأم من غرفة التحقيق وجدا ثلاثة من رجال أمن الكلية يقفون عند باب الغرفة وهم يحملون العصي، وكل هذا يدل من البداية إلى النهاية على عدم حيادية اللجنة، لاسيما العضو الذي تهجم على الوالدين وأخذ قراره منفرداً بالانسحاب من الجلسة دون التفاهم مع العضوين الآخرين.

سادساً: يُعتقد أن أحد أعضاء اللجنة كان من الأطباء المشرفين على حالة المتوفى، حيث أن الطفل المتوفى تم عرضه على استشاري دم، كما جاء في الصفحة الرابعة من التقرير، دون أن يتم ذكر اسم الاستشاري، علماً أن معظم التقرير يتضمن أسماء أطباء وأدوارهم، فيما تم إغفال اسم استشاري الدم، وربما كان الطبيب المحقق المنفعل هو نفسه ذلك الاستشاري، باعتبار أنه استشاري دم، في حين تمت الإشارة في التقرير إلى أنه من المختصين في الأمراض الباطنية، وقد يكون هذا التخصص إضافياً فيما يتم التعريف به على أساس أنه استشاري أمراض الدم.

سابعاً: ورد في التقرير أخطاء كثيرة في الزمان والمكان، وخلطاً في الأحداث والأشخاص، مع عدم دقة كثير المعلومات... وتقول المحامية إن التقرير يكشف بكل وضوح أن ما يقوله الأب بشأن التشخيصات الخاطئة كان واقعاً، واستتبعته كمية كبيرة من الأدوية لا ضرورة لها. كما يكشف التقرير إجراء مسح ذري للمتوفى، فيما أجريت له عملية مسح سابقة قبل مدة قصيرة، لكن الأطباء لم يكتشفوا ذلك لأنهم لم يطلعوا تماماً على ملف الطفل، وقرروا إجراء الفحص مرة ثانية رغم خطورته، حيث يتم حقن الطفل بمواد إشعاعية ليس لها ضرورة، كما أن التقرير يثبت حدوث عدوى بكتيرية قاتلة من داخل المستشفى، وذلك مع توقع الأطباء بأنها ستحدث دون أي إجراءات استباقية، مثل تعقيم الغرفة، وتعقيم أدوات المريض.

وتشير إلى أن التقرير ينفي إعطاء المريض عقار (نظير السوموستاتين)،

لرفض عائلة لمريض، بينما المريض ظل يأخذ هذا العقار لمدة تجاوزت الشهرين الكاملين، ولم يذكر التقرير سبب فتحة كبيرة وجدها الأب في بطن ابنه المتوفى أجريت بغير علمه قبل موته، أو ربما بعد موته لأخذ أعضاء داخلية منه، وفي هذا الأمر جريمة في الحالتين.. كما امتنع التقرير عن التحقيق في كثير من الأمور التي ذكرها والد الطفل في تقرير مقدم إلى اللجنة.. ومنها إعطاء المريض كمية كبيرة من الكورتيزون بتشخيص خاطئ ما أدى إلى دخوله غرفة العناية المركزة، فيما يذكر التقرير أسباباً أخرى تنفيها الوقائع.

وتؤكد المحامية أنه بناء على تقرير الخبرة فإن كل الأدوية الكثيرة التي أخذها المريض كانت بسبب تشخيصات خاطئة، وترجيحات خاطئة وغير جازمة وضئيلة الاحتمال، وتعبيرات كثيرة مشابهة تضمنها التقرير.. كما أنه تم إجراء عملية في الحوض دون تخدير المريض لأخذ عينة نخاع عظمي، وتم تعريض الطفل لألم شديد وللخطر رغم "ضآلة" النتيجة المتوقعة حسب تأكيد التقرير نفسه.

وذكرت أن التقرير يشير إلى أن الطفل المتوفى أصيب في أبريل 2014 بضعف حاد بالعين اليمنى، ويحدد التقرير أن هذا الضعف كان خلال وجوده في بلد آخر، وذكر التقرير مجموعة من الفحوصات وأنها أجريت في ذلك البلد، ومنها علاج بالكورتيزون، وفي هذا خطأ فادح، لأن الطفل كان وقتها موجوداً في البلد المقيم فيه، بدليل الفحوصات والتقارير التي تحدث عنها تقرير اللجنة، وكان بإمكان اللجنة أن تقرأ فقط اسم الطبيب والجهة التي صدر عنها التقرير، وهذا دليل آخر على عدم دقة اللجنة برغم أن جميع التقارير التي تحدثت عنها والمختبرات التي أجرت الفحوصات، والمكان الذي تم حقنه فيه بالكورتزون كان أيضا في البلد نفسه..

علما أن هذا الموضوع ليس له أي علاقة بموضوع التحقيق بشأن سوء الرعاية التي يطالب الأب بالتحقيق فيها، لأن هذا موضوع سابق كان قبل شهور طويلة من دخول الطفل المستشفى.. لكنها كما يبدو محاولة أخرى، في سياق محاولات اللجنة لتضليل القضاء وإيهامه بأن الطفل كان مقيماً في بلد آخر، كما ادعى في ذلك الوقت مدير المستشفى نفسه في تصريح لإحدى الصحف، وقال إن

منير طالب في جامعة أجنبية ويعيش في الخارج، علماً أنه كان في عمر أقل من 15 عاماً وما زال في المدرسة، وكأنَّ ذلك يتضمن إيحاء بأنه طفل مريض أتى به أهله من بلد خارجي لكي يستفيد من علاج مجاني في مستشفيات محلية..

وتقول المحامية إن استنتاجات أعضاء اللجنة وتحليلاتهم الطبية البحتة ليس لها علاقة بما يطرحه الأب من مسائل غير طبية، فقد استندت اللجنة إلى بعض التقارير التي صدرت عن مستشفى أجرى فيها سابقاً بعض الفحوصات لتبرير عدم قدرتهم على تحديد نوع المرض، وهذه ليست المشكلة التي يتم طرحها، مع اعتراف الأب بصعوبة المرض، لكن اللجنة كانت تعرض جوانب طبية ثانوية حتى تبين أنها قامت بدراسة معمقة، فيما هي لم تعرف حتى من أين جاءت بعض المعلومات، كما هو واضح في صفحات التقرير.

وتؤكد المحامية أن اللجنة لم تطلع على التقارير الطبية وملف منير بشكل كامل ودقيق نظراً لما في تقريرها من وقائع غير صحيحة على الإطلاق، وهذه مشكلة كبيرة، تدل على عدم التحقيق الجدي، وفيها نوع من الاستهتار بحياة الناس، فكيف بلجنة من كبار الاستشاريين تقوم في خلال فترة امتدت نحو سنة بدراسة حالة المريض المتوفى، ومع ذلك يتضمن تقريرها كل هذه الأخطاء، هذا إذا اعتبرناها أخطاء، وهذا يعني الشك بكل التقارير الطبية التي تصدر عن مثل هذه اللجان، فإذا كان تقرير السنة بهذا الخلل الكبير جداً، فماذا عن تقارير الأسبوع الواحد، أو ربما اليوم الواحد، أو الساعة الواحدة..

وترى المحامية أن اللجنة تحاول التستر على الأخطاء التي حدثت، وعدم كشف الحقائق وقلب الوقائع التي يذكرها الأب، فيما هو لديه أوراق وشهود ودلائل تؤكد صحة أقواله، فهي بذلك تحاول تحريف مسلك القضية، وتضليل العدالة، وهنا تتجسد مشكلة كبيرة جداً فيها نوع من الاستهتار بالحياة والاستهانة بعدالتكم.

وتضيف: حيث أن الحكم المستأنف قد استند في حكمه إلى أدلة فاسدة من الناحية القانونية، فإنه بذلك يكون قد شابه عيب الفساد في الاستدلال والقصور في التسبيب ومخالفة للثابت بالأوراق، الأمر الذي يوجب معه إلغاء هذا الحكم والقضاء مجدداً بالطلبات المستأنف الختامية.

وتوضح أنه من المقرر في قضاء محكمة التمييز أنه: "إذا كان الحكم قد أقيم على عدة قرائن متساندة، وتعيب إحداها، وتعذر الوقوف على أثر هذا العيب في النتيجة التي انتهى إليه، فإنه يكون فاسد الاستدلال"، فلهذه الأسباب والأسباب الأخرى التي سوف يبديها المستأنف خلال مرافعته الشفوية ومذكراته التحريرية كان هذا الاستئناف .

وطالبت بإلغاء الحكم المستأنف فيما قضى به من رفض الدعوى، والقضاء مجدداً بإعادة ملف الدعوى إلى الطب الشرعي لتنتدب لجنة طبية محايدة، ليس من بينهم الأطباء السابقين لتكون مهمتهم الاطلاع على الملف الخاص بنجل المدعى لبحث جميع الاعتراضات السابقة، وتحديد سبب الوفاة الحقيقي، وماهية المرض، وكيفية علاجه طبقاً للأصول الطبية المتعارف عليها، ولبيان إغفال التقرير عن إثبات وبحث وجود جرح غائر في جنب المتوفى الأيمن وبشكل واضح، وعما إذا كانت هناك ثمة أخطاء طبية وقعت من الأطباء المعالجين، سواء في التشخيص وكيفية علاج المرض، والدواء المخصص لعلاجه، ومدى تأثير الأدوية التي أعطيت له في حدوث الوفاة، تمهيداً لإلزام المستأنف ضدهم بما يسفر عنه التقرير وفقاً لقواعد المسؤولية التقصيرية .

النهاية ليست حزينة؟؟

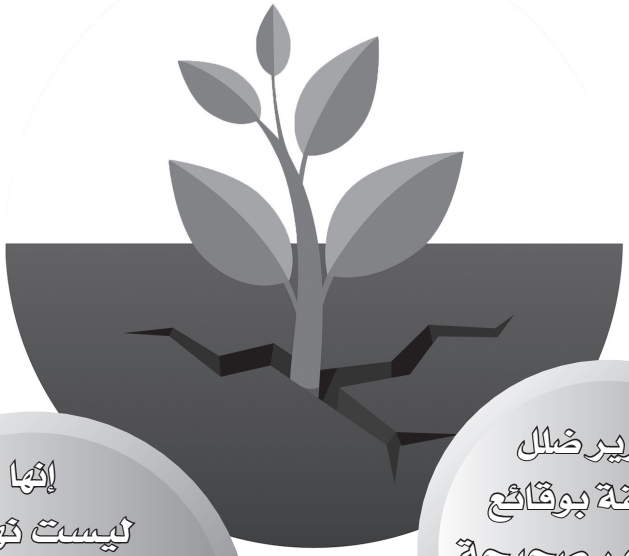

التقرير ضلل الحقيقة بوقائع باطلة غير صحيحة تضمنتها صفحاته الهزيلة

إنها ليست نهاية حزينة.. فهناك حقيقة تجسدت وإن اعترضت سبيلها العقبات والمصالح والأهواء

القاضي يرى أنه لا يحق للمدعي اصطناع الأدلة

قصة منير صارت عنواناً للصبر والتحدي ورصداً للأخطاء الطبية

تعود ليلى بالذاكرة دائماً إلى كل ما قالته المحامية، وما قدمته من أدلة، وشهود وقرائن، وتتذكر أن المحكمة رفضت كل ذلك، وكان الاستئناف لمصلحة المدعى عليهم.. حيث قال القاضي إنه لا يحق للمدعي اصطناع الأدلة.. كيف تكون إذن الأدلة إن لم يبحث عنها صاحب الحق.. وكيف تكون أدلهم المصطنعة حقيقة ما دامت كاذبة؟! أليس من حق الحق علينا أن نناصره، أو على الأقل أن نبحث فيما يقول المدعي من أمور تستوجب التدقيق والبحث والتمحيص.

وهكذا كانت وفاة الطفل المسكين بهذه الطريقة التي يثبتها التقرير؛ مجموعة كبيرة من الأدوية الخاطئة التي حقن بها دون رحمة، وكأنه كان حقل تجارب لكل دواء وتشخيص يخطر على بال الأطباء، دون وجهة علمية صحيحة، ودون تشاور حقيقي، تشخيصات كثيرة خاطئة، وعملية جراحية دون تخدير ودون هدف واضح، وأشعة ذرية وغير ذرية، خطرة وغير خطرة، مناظير متكررة لا ضرورة لها...

وكل ذلك عن طريق التجارب وتضارب الآراء التي تبين وبكل وضوح عدم التنسيق بين الأطباء، إضافة إلى عرقلة سفر المريض للخارج للعلاج، إما عن طريق جهة عليا، أو بعد تدخل مسؤول كبير وتكفله بالدفعة الأولى لمستشفى فرنسي، ومشاركة عدد من الخيرين، ثم تعثر السفر بعد تدهور الحالة نتيجة العدوى البكتيرية التي حدثت بالمستشفى لعدم وجود إجراءات احترازية مناسبة.. وبعد هذا كله نحتاج لأدلة إضافية أكثر مما سبق لإثبات إهمال الأطباء؟؟؟!!!..

وتحزن ليلى من محاولة التقرير تضمين الحقيقة وقائع كثيرة غير حقيقية في صفحاته الهزيلة، وكانت تأمل أن يكون هناك تحقيق مع لجنة التحقيق التي قدمت للمحكمة وقائع لا تمت للحقيقة بصلة، بل حاولت تشويه الحقيقة وتضليل القضاء، لكنها رغم كل محاولتها أثبتت في جوانب كثيرة صحة ما ذهب إليه الوالدان من وجود تقصير وإهمال وتسرع، وعدم جزم بالتشخيصات التي كانت كثيرة جداً، وأدت بمجملها إلى ضعف جسده وتدهور حالة الطفل، ثم تركه يصارع البكتيريا دون إجراءات سريعة.. حتى توفي الطفل المسكين رحمه الله أمام الأطباء وهم يتجنبون دخول غرفته دون رحمة ولا عطف، وهذا ما تدل عليه وقائع التقرير وما بين سطوره، رغم ما تضمنه من وقائع غير حقيقية.

لكن... وكما تقول ليلى: "هل هي حقاً نهاية حزينة حقاً؟؟؟".

هي وعائلتها يعلمون تمام العلم أن منير في مكان أفضل، وأنه لو استطعنا أن نتواصل معه فسوف يقول:

"أنا حزين عليكم لأنكم ما زلتم في الدنيا"..

إنها حقاً ليست نهاية حزينة.. فهناك حقيقة تجسدت، وإن اعترضت سبيلها العقبات والمصالح والأهواء.. وتذكر ليلى كثيراً من الإشراقات، منها مسرحية شاهدتها في إحدى المدارس، تحكي تفاصيلها مأساة (منير).. كتب عنها الطلاب والطالبات.. ومنهم من رسم صورته وجعلها شعاراً لها.. حتى صارت قصة منير عنواناً للصبر والتحدي، ورصداً للأخطاء الطبية، ودافعاً لكشف الحقائق.

كما أنها شاهدت قصة المعاناة تنتقل من مكان إلى مكان.. وصارت هي أيضاً (قصة جوالة)، ترويها الأمهات، ويسردها الآباء، تنتقل من بيت إلى بيت، ومن دار إلى دار، يستفيد من هذه التجربة كثير من الناس، ليزدادوا حرصاً وحذراً من أطباء السوء و(تجار الطب)، على حد تعبير الدكتور صابر نفسه الذي نسي أو تناسى المفهوم الحقيقي للطب وكذلك التجارة..

كما أن هذه المعاناة كانت سبباً في كشف كثير من الأخطاء الطبية، وشجعت الكثيرين على التحقق وتلمس المعاناة.. حتى أعلن كثير من طلاب الطب أن (الأبيض سيليق بنا) في تحد لكل (تجار الطب) الكبار.

هي تذكر كيف وقف أبوها أمام مئات من الطلاب، وفي كليات الطب والقانون تحديداً، ليتحدث عن هذه القضية، تناصره الدكتورة منال حرصاً منها على الطب وعلى الإنسان، وهي التي نقلت القضية من الجامعة إلى المؤتمرات العالمية، ليصبح اسم (منير) شعاراً في مقارعة الأخطاء الطبية.... فحمل كثير من الناس هذا الشعار على عاتقهم، لينير (منير) دربهم، فيما كتب الشعراء الأشعار وأنشدوا قصائد تحكي هذه المعاناة.. ومن مكان إلى مكان كان أبو منير (البائع الجوال) يحمل الملابس المستعملة يوزعها على المساكين، ويحكي لهم قصة منير.. ومن مكان إلى مكان كانت ليلى (الطبيبة الجوالة).. تنتقل بين خيام النازحين تعالج المرضى منهم، وتحكي لهم قصة منير لتخفف عنهم أوجاعهم..

لم يكن (البائع الجوال) ولا ابنته (الطبية الجوالة) ومعهما أفراد العائلة – كما قال أحد أطباء الأخطاء الطبية – ضائعين تائهين بسبب "الصدمة".. فهي بالنسبة لهم

صدمة للخير وليست صدمة للشر فهم يدركون معنى الموت، ورهبة الموت، وحقيقة الموت وما بعد الموت.. لكنهم يدركون بالمقابل خطورة ما اقترفه كل من أساء.. وكل من طعن بالحقيقة.. فمن يكذب على القضاء وهو تحت القسم يمكنه الكذب في كل شيء دون قسم.. إنها ليست نهاية حزينة... وكأن منير جاء لينير.. كما قال الشاعر الجميل إبراهيم أبوطالب في قصيدة (منير):

كأنّ أيوبَ النبيّ عادَ من جديد
بصبرهِ.. بصمتهِ.. بدمعهِ المسكوبِ
-دونما اعتراض-
بحمدهِ.. بشكرهِ.. بحبّهِ الصادقِ
-دونما امتعاض-
للواهبِ القدير
منيرُ.. عفوًا..
إننا لم نستطعْ أن ندفعَ المصير
ولا اعتراض
-نستغفرُ الله العظيم-
لا اعتراض
مصيرُنا إلى الممات
-كلنا-
لا شكّ في المصير
لكنّنا يا طفلَنا الصغير..
لم نستطع أن نوقظَ الضّمير
فيمن يليقُ بالبياض لبسه
فيمن يُسمّى عندنا -تجوّزاً- ملاكُ رحمة
قد أقسمَ اليمينَ.. بأنّه لن يدّخر وسعاً
عن خدمةِ الصّغير.. والكبير
يخفّفُ العَناء.. يقرّرُ الدواءَ.. بحكمةِ المدقّقِ البصير..

وحين يأتي الدّاء.. من مصدرِ الدّواء..
فكلُّ شيءٍ حينها مُبرّرٌ.. لا شيءَ في الوجودِ يشبه الغَبَاء
*****

منيرُ.. عذراً أيُها النّبيل..
إنّا خَذلنا حُسنَك الجميل..
وجسمَكَ النّحيل..
صرنا نراكَ كلّ يوم.. تذبلُ يا صغيرنا..
كوردةٍ في يدِ عابثٍ حَقير
فلا يجيدُ شمّ روحها.. لا يستطيع فهمَ ريحها
وليسَ يتركُها.. لكي تعانقَ الحياةَ في المسير
*****

منيرُ..
يا قصةَ النّقاء..
يا لوحةَ الصّبر العظيم..
يا جرحَنا الكليم..
كنا نراكَ كلّ يوم..
في الصّباحِ باسماً.. وفي المساء باسماً
تراقبُ الجميع.. وترسلُ الحياةَ للجميع
بلطفكَ البديع.. بصوتكَ الدافئ كابتسامةِ الربيع
تقول: يا أبي لا تبتئس! غدًا أنا بخَير..
لأمّك التي تذرفُ من دموعها.. مواجعاً كثيرةً
وحرقةً كبيرةً: يا أمُ.. إني في غدٍ بِخَير
*****

في كلِّ يومٍ تُرسلُ الدعاء.. للسماء..
لكن غداً.. ذاكَ الذي تبحثُ عنهُ يا صغيرَنا
أخفوهُ عَنكَ في سرادبِ الظّلام
وخبّأوه في غياهبِ اللئام..

ما أبشعَ الجهل إذا أرتدى ثياب غيره..
ولجّ في الخصام!
ما أبشع الإنسان حين يلبس الغباء!
ويدّعي النقاء والصفاء!
ما أبشع الإنسان حين يغدو قاتلًا!
بدمه البارد
يغتالُ من عيونِنا الضّياء
يا رحمةَ السماء.. ما أصعبَ الفقدَ!
وما أشدّ حزنَنا عليكَ.. يا منير ..!
*****
منيرُ.. يا حكايةً لم تنتَه فصولُها
قصيدةً لم تكتملْ بيوتُها
في كل بيتٍ أنتَ بَلسَمُ الجروح
في كل طفلٍ مقبلٍ على الصباح
في كل عطرٍ في الزهورِ فاح
نراكَ في اكتمال حلمنا.. وفي كفاح يومنا
نراك -يا بنيّ- آيةً من سورة الصبر
ومن كتاب أمةٍ مزّقها سكوتُنا
وخانَها الكِبرُ..
في صدرِ جاهلٍ كبير
لا يعرف الحياة..
وليس في قاموسِه سوى الغرور
لكنّه إذْ حَصحَصَ الحقُ..
ليس سوى هباء
*****
منيرُ..
يا صديقَنا الحاضر بيننا..

رغم الغياب..

الذِّكرُ منك خالدٌ.. وفي الحياةِ شاهدٌ

يرفعُهُ إلى ذُرا العُلا

ثباتُك العظيم.. وصبرُك الكريم

على الجراحِ والعناء

****

يا أصدقاء..

منيرُ قصةُ الصَّغيرُ والكبير

منيرُ لم يمت.. بل صار نجمةً

ألا ترونها!!

هناك في السما

في كل ليلة تُنير..

رحم الله منير..

(النهاية)

هل هي فعلاً النهاية أم إن الرواية لم تنتهِ بعد؟؟؟